طوني مفرّج

حرب الردّة

دار
الجريدة

بيروت في ١٥ تموز ١٩٧٩

المضمون

مقدّمة

بقلم
الدّكتور فؤاد أفرام البُستاني

« لو كان في السماء والأرض إلاهان لَفَسَدَتا! » .

هذا القول المأثور هو أول ما يخطر على بال الناظر في كتاب طوني مفرِّج ، منذ قراءَته الجملة الأولى : « لبنان ولد برأسين » فيتحقق من أن « هذه العاهة كانت السبب الرئيسي الأوحد » في انهيار « لبنان التعايش » المصطنع مديحه ، المزوّر الفخر به ، المراءَى في الإدلال بصيغته على الشرق والغرب ، المُكَاذَب في تحابّ أهليه ، وتعاطف طوائفه وتساهل أديانه ، منذ ذاك « الاستقلال » المزعوم ! حتى بلغ من نفاق حكوماته المتعاقبة على خمس وثلاثين سنة ، ومن تدجيل سفرائه في الحواضر

العالمية الكبرى ، ومن تمويه ممثّلينه في المحافل الدولية ، ومن غفلة بعض أقطابه وزعمائه ديناً ودنيا ، ومن جبن البعض الآخر ، وتبييت البعض الثالث ، وتخاذل ... الرابع ... والخامس ... ، أن وقر في أذهان أراكنة الحلّ والربط في العالم ، وأساطين القيم الروحية والمادّية ، حتى الفاتيكان نفسه ، أنَّ لبنان « بلد الحرية » و « ملتقى الأديان » و « مختبر التعايش » - ينبغي أن يحافظ عليه في « صيغته الفذّة » وأن يُبذل كل غال ونفيس - من مواعيد الدول الشقيقة إلى نصائح الدول الصديقة ، إلى أدعية الدول الحَفِيَّة الشفيقة - في تأييد « وحدته الوطنية » و«سيادته

الشرعيّة » ؛ وفي مساعدته على اجتياز المحن العابرة ، واستعادة الاستقرار والطمأنينة ! ...

هذا القناع الغرّار ، هذا البرقع الغشاش ، هذا الخمار المغوي بالإغراء والتضليل ، ما يستر من مفاسد ، وتنافق ، وتكاذب ؟ هذه الدِّمَن الخضر ، ماذا تخفي تحتها من خبائث ومناتن ؟

من شاء اكتشاف ذلك - وإن على مضض ، وكره ، وامتعاض ، وإن على خيبة أمل ، وتشاؤم ، وتطيرُّ ! - فليقرأ هذا الكتاب .

فؤاد إفرام البستاني

تمهيد

ولد لبنان الحديث سيامياً برأسين ، فكان عندما يتوافق الرأسان ، جباراً منيعاً ، وكان عندما يختلفان مجنوناً مستقتلاً . وغالباً ما كان الرأسان غير متوافقين . فيما عدا ذلك ، بوسع المرء أن يذهب في امتداح « صيغة التعايش » و« بلد الحرية » و« النظام الحر » و« ملتقى الأديان » وما هنالك من شعارات حلوة الى ما لا حدود . إلا أن المسألة هي في كون الإستقرار برأسين ، أمر مستحيل .

هذه العاهة ، كانت السبب الرئيسي الأوحد ، في انهيار الجمهورية اللبنانية الحديثة ، وتبقى جميع باقي الأسباب عوامل ثانوية ، كان بوسع لبنان أن يتغلب عليها فيما لو كان طبيعياً برأس واحد .

إن ما فشل في لبنان ، ليست صيغة تعايش المسيحية والإسلام ، ولا تجربة الدولة الديموقراطية في العالم الثالث ، ولا استقلال الشعوب الشرق أوسطية قبل منتصف القرن العشرين ، ولا الاتنية الحضارية ، أو الدينية . . .

إن ما فشل حقاً ، هي تجربة حكم الدولة برأسين .

فاذا كان الباحثون عن العبر ، يريدون استخلاص العبرة الرئيسية من الحرب اللبنانية ، عليهم أن يفيدوا البشرية من تعميم

التنبيه الى أن كل دولة ذات رأسين ، لا بد وانها سائرة الى الإنهيار ، مهما كانت ركائزها متينة .

في العام ١٩٤٣ ، ولد لبناننا السيامي هذا ، وفي غضون الحقبة ذاتها ، ولدت حوله دولتان ، واحدة اتنية ، والأخرى دينية عنصرية ، أحدية الإرادة ، فالدولة المصطنعة المغروسة في أرض أعداء ، عاشت ونمت وتوسعت وتغلبت وقهرت . بينما الأتنية ضاقت وترجرجت ولم تعرف الإستقرار إلا في ما ندر ولفترات قصيرة . أما ذات الرأسين ، فانفجرت . فكان نجاح الأولى شهادة على حساب كافة الاعتبارات السامية ، وكان في ذلك النجاح ، وفي ذاك الفشل ، حجة للعنصريين ضد الإنسانيين المنادين بالمحبة والسماح والتعايش . . . كذا هو قدر الإنسان .

في العام ١٩٧٩ ، راحت الرؤية تنقشع عن منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط بعد حرب متعددة التسميات ، كانت أشبه ببركان استمر معربداً خمس سنوات ، فلاح شبح ينتصب فوق المنطقة الممتدة بين خليج السويس وحدود تركيا ، حاملاً بيد نجمة داود ، وبالأخرى خريطة سياسية جديدة ، عليها أختام كثيرة ، أشدها بروزاً اثنان : موسكو وواشنطن .

عند ظهور الشبح ، جماعات فوجئت فارتعبت ، وأخرى فوجئت فاغتبطت ، وأخرى فوجئت فذهلت . . . وجماعات لم تفاجأ ، بل راحت تعمل لإكمال ما خططت له ، أو اشتركت في تخطيطه ، أو في تنفيذه .

هذا الكتاب ، يهدف الى كشف هؤلاء جميعاً ، بلا استثناء ،

انطلاقاً من الإيمان بحق من قاتلوا ، ومن عانوا ، ومن ترملوا ، ومن تثكلوا ، ومن افتقروا ، ومن التاعوا ، ومن أقعدوا ، ومن تشوهوا ، ومن تهجروا ، ومن مرضوا ، انطلاقاً من الإيمان بحق هؤلاء في الإطلاع على الحقائق ، حتى لو كان ذلك الإيمان يتطلب دفع الشهادة .

* * *

هذا البحث ، بدأ بالتساؤل :

هناك مؤامرة تعرض لها لبنان ، فما هي تلك المؤامرة ومن وضعها ؟

هذا السؤال السطر ، فرض سنوات ثلاث من البحث ، وعندما اكتملت عناصر الإجابة ، راحت الأحداث تتوالى بسرعة تسابق كلمات وضع الجواب . غريب كيف يكون وقع الأحداث مهما كانت غير طبيعية على انسان يمتلك المقياس وأسرار الأهداف . عندئذ ، يصبح لكل حدث ، مهما صغرت قيمته ، تفسير ذو أبعاد . ويصير للأحداث الكبرى ، في نفس العارف، وقع تحقق النبوة .

وفي اكتمال عناصر الاجابة على السؤال السطر ، إجابات على أسئلة طالما طرحت ، وما زالت ، وستبقى تطرح زمناً . . .

- لماذا انهزمت صيغة التعايش الحضارية أمام الصيغة العنصرية الرجعية ؟
- لماذا تخلى العالم عن لبنان ؟
- من ضرب المقاومة الفلسطينية بالقوى المسيحية ؟

- من فكك الجيش ؟ ولماذا ؟
- ما هي حقيقة دور الحكم السوري في الحرب اللبنانية ؟
- الدروز والشيعة والعلويون ، ما هي حقيقة أهدافهم من خلال الحرب اللبنانية ؟
- ما هي أهداف اليسار ؟
- لماذا اقترحت أميركا ترحيل المسيحيين من لبنان ؟
- ما هي حقيقة موقف الاتحاد السوفياتي ؟
- هل استقالت أوروبا من مركز النفوذ أم أُقيلت ؟
- وأخيراً . . . الى أين ؟ ومتى ؟

كل ذلك استتبع العود الى الينابيع : الدينية والتاريخية والسياسية والإستراتيجية والأيديولوجية ، فجاء البحث متجاوزاً الظرفيات الى الأسس المبدئية ، والى الأهداف البعيدة المدى .

ومن خلال ذلك التعمق الشامل ، بدا واضحاً ، أن الحرب اللبنانية التي وصفت بالكثير من النعوت (حرب أهلية . حرب اليمين ضد اليسار . حرب الفلسطينيين واللبنانيين . . .) ليست في الواقع سوى : حرب دينية .

إشترك في الحرب الدينية اللبنانية كل من :

السنة

الشيعة

العلويين

الدروز

المسيحيين

اليهود

الشيوعيين (باعتبارهم دين إلحاد)

أما الإشتراك الفلسطيني ، فكان اشتراكاً تحالفياً مع المسلمين طوراً ومع الشيوعيين تارة .

وكانت جميع هذه القوى متأثرة بالإستراتيجية الدولية التي كانت بدورها متأثرة بالصهيونية العالمية .

من هنا ، تناول البحث في فصول دراسة معتقد كل من تلك الطوائف وارتباط ذلك المعتقد الديني بالدولة . ثم تاريخ علاقة كل من تلك الطوائف بالطوائف الأخرى . ثم ظروف توطنها المناطق التي هي فيها اليوم . وأخيراً أهدافها من الحرب اللبنانية وكيفية اشتراكها فيها .

الفلسطينيون لهم في البحث استفاضة ، ماضية وحاضرة ومستقبلة .

وللشيوعية واليسار تفصيل يبين الأهداف ، ويشرح أسرار التحالفات المرحلية .

ويكشف فصل « الإستراتيجية الدولية » أسراراً هامة وخطيرة من شأنها أن تضع الخطوط العريضة لقمة البحث التي تأتي في الفصل الأخير تحت عنوان : المؤامرة .

أخيراً ، ليس هذا الكتاب بحثاً تاريخياً ، وليس تسجيلاً لأحداث الحرب اللبنانية ، كما أنه ليس ذات أهداف أيديولوجية .

إنه بحث سياسي في القوى المشتركة في الحرب اللبنانية ، وتحقيق صحافي عن المؤامرة ومدبريها ، وتصوير مجرد للواقع . وقد توجب إدخال مادتي البحث الديني والتاريخي بغية التمكن من

استيعاب الأبعاد الكاملة لحرب السبعينات في لبنان .

أما لماذا « حرب الردّة » ؟ فلأن أهداف المؤامرة الكبرى التي أغرقت لبنان في بحر الدم ، كانت تهدف الى الرجوع بجغراسية شرقي البحر الأبيض المتوسط الى ما كانت عليه قبيل إعلان جمهوريتي لبنان وسوريا .

لهذه « الردّة » أسباب عميقة ، هي مفصلة في هذا المؤلف الذي من شأنه كشف الجذور المتأصلة لأسباب عدم الإستقرار في منطقة « مهد الحضارة » و« أتون السياسة » المشتعل أبداً .

الفصل الأول

السنّة

الإسلام دين ودولة

التناقض الرئيسي الذي من شأنه أن يكوّن محور المشكلة الناتجة عن استحالة انسجام المسلم السنّي مع شرع الدولة بحالتها اللبنانية ، هو في أن « الدعوة المحمّدية لا تعرف الوطنية . . . بالمعنى الحديث ، فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية ، هو يمتد مع العقيدة ، بل هو في الحقيقة وطن معنوي كما أن الدين أمر معنوي ، والمسلم أخو المسلم أينما كان ، جاوره أم تباعدت به الأرض ، والمسلم أينما حل في دولة إسلامية فقد حلّ في وطنه[١] » وإن « ولاء المسلم لا يمكن أن يكون إلا للأمة الإسلامية . فلا قيمة للوطن إلا بارتباطه بالدين . ولا ولاء لوطن إلا بقدر ولائه للإسلام[٢] » .

أما الشريعة عند المسلم ، فهي « مجموعة القوانين الإلهية التي إذا تقبلها إنسان ، أصبح مسلماً . والمسلم هو الإنسان الذي يطيع أوامر الشريعة باعتبارها أوامر ملزمة . . . إن الشريعة هي القانون

---

١ ـ زين نور الدين زين « نشوء القومية العربية » (بيروت ١٩٧٢) صفحة ٤٣ ـ ٤٤
٢ ـ صبحي الصالح . النظم الاسلامية صفحة ٢٥٥

الإلهي بمعنى انها تجسيد لإرادة الله التي ينبغي للمرء أن يعيش بموجبها في حياته الخاصة وحياته الإجتماعية . ومشيئة الله تظهر في كل دين من الأديان بصورةما ، وجميع الوصايا الروحية المتضمنة في كل دين هي من أصل سماوي . أما في الإسلام فان تجسد المشيئة الإلهية ليس مجموعة تعاليم عامة بل تعاليم محددة ملموسة . فالشريعة لا تأمر الانسان أن يكون محسناً ، أو متواضعاً أو عادلاً ، بل انها تعلمه كيف يكون محسناً ومتواضعاً في حالات وفي ظروف معينة ، أي أن الشريعة لا تكتفي بالأمر بل تعلن أيضاً السبيل ، أي الطريقة . . . إن الشريعة تشمل وصايا الإرادة الإلهية كما ينبغي لهذه الوصايا أن تطبق في كل ظرف من ظروف الحياة . إنها الشريعة التي أرادها الله لكل مسلم كي يحيا حياته بموجبها . اذن ، هي الدليل والمرشد في كل عمل من أعمال البشر . وتتناول كل ناحية من نواحي حياة الانسان ، فانها الدليل على أنها تقدس الحياة ، وتسبغ على كل عمل يقوم به الإنسان صبغة دينية مهما يكن هذا العمل دنيوياً عادياً بسيطاً[٣] » من هنا ، يضحي « القرآن الكريم مصدر الشرع ودليل حياة الإنسان الواقعية ، ومصدر المعرفة التي تستأثر بالحياة العقلية الفكرية . وهو (القرآن الكريم) عالم قائم بذاته ، يحدد الإطار المادي والإجتماعي الذي يكتنف الإنسان ، عالم يقرر حياة الانسان ، صيرورتها ، ونضجها ، وقوتها ، ومصيرها بعد الموت[٤] » وهكذا فان « فصل السياسة عن الدين مناقض أساساً للإسلام ، وعزل الاسلام عن المجالات الإنسانية الأخرى (غير الدينية) هو بمثابة اعتراف بسلطة جديدة غير سلطة الله في منأى عن

٣ ـ الدكتور سيد حسين نصر . الإسلام أهدافه وحقائقه . الدار المتحدة للنشر . بيروت ص ٨٧

٤ ـ الدكتور سيد حسين نصر . ص ٦١ ـ ٦٢

الإيمان المطلق ، مما يعتبر مناقضاً لمبدأ التوحيد ، إذ لا يمكن توحيد المجتمع إلا باسم الإسلام وبواسطة شخص متمتع بالصفات الدينية . . .[٥] » .

لذلك ، فان « المسلم المسلم لا يمكن أن يقف من الدولة موقف اللامبالي ، وبالتالي لا يمكن أن يكون موقفه من الحاكم والحكم موقفاً مائعاً يرضى بانصاف الحلول ، فإما أن يكون الحاكم مسلماً والحكم إسلامياً فيرضى عنه ويؤيده ، وإما أن يكون الحاكم غير مسلم والحكم غير إسلامي فيرفضه ويعارضه ويعمل على إلغائه ، باللين أو بالقوة ، بالعلن أو بالسر ، هذا موقف واضح لأنه موقف مبدئي هو في أساس الإسلام ، واستطراداً ، هو في أساس عقيدة المسلم . وإن أي تنازل من المسلم عن هذا الموقف أو عن جزء منه ، إنما هو بالضرورة تنازل عن إسلامه ومعتقده ، ذلك ان إقامة الدولة ، كما يقول مفكرو الإسلام ، والإضطلاع بالحكم والسلطة جزء ضروري من الإسلام ، لا يقوم إسلام المسلمين إلا به . والمسلم في لبنان ، من حيث المبدأ ، لا يمكن إلا أن يكون ملتزماً بما يفرضه الاسلام عليه ، ومن ضمنه قيام دولة الاسلام ، وهكذا كان منذ الفتح الاسلامي لبلاد الشام وحتى سقوط الدولة العثمانية المسلمة . . .[٦] » .

هذا المفهوم الواضح للدين الإسلامي ، الذي يعتبر « دين حياة

٥ ـ أيان ريشار ـ نائب مدير قسم الدراسات الإيرانية في المؤسسة الفرنسية في طهران ، « الحوادث » العدد ١١٦٣ الجمعة ١٦/ ٢/ ١٩٧٩ ص ٦١

٦ ـ حسين القوتلي ، مدير دار الإفتاء في لبنان ، جريدة « السفير » البيروتية في ١٨/٨/١٩٧٥

ودين اجتماع ودين اقتصاد ودين وطنية[٧] » لا يقبل المساومة . و« بالنسبة الى الشرع الإلهي ، فالوضع يختلف في كلتا الديانتين الإسلامية والمسيحية ، فالاسلام لم يعط قطاً ما لقيصر لقيصر . . . بل كان الأمر على نقيض هذا ، إذ حاول الاسلام أن يدمج ما لقيصر ذاته - نعني السيادة في السياسة والاجتماع والاقتصاد - في نظام ديني شامل[٨] » .

وفي المفهوم الإسلامي « ليس هناك من مساواة بين المسلم وغير المسلم . فان - غير المسلمين - تقتصر حريتهم في المجتمع الإسلامي على حرية الضمير ، وحرية الإحتفاظ بدينهم ضمن حدود الشرع الإسلامي ، وليس بمقتضى أية حقوق انسانية من شأنها أن توجب المساواة بين المسلم وغير المسلم . وكل من ليس مسلماً بوسعه أن يعتنق الإسلام ، لكنه لا يحق لأي مسلم أن يترك الإسلام ، وإذا فعل ، حكم عليه بالإعدام . وفي الدولة المسلمة ،. لا يحق لغير المسلم بأن يشترك في المناصب الرسمية في الدولة ، حيث يمارس المسلم واجباته الدينية علانية ، بينما ليس لغير المسلم الحقوق نفسها في هذا المجال ، فحرية العبادة عند غير المسلمين يجب ألاّ تنال من الشعور الديني لدى المسلمين . . . وفي الوقت الذي يعطي الشرع المسلم الحق في أن يتزوج من مسيحية ، فهو يمنع المرأة المسلمة من أن تتزوج من غير المسلم[٩] » .

قد يقول معترض أن هذه القوانين تتعارض مع « شرعة حقوق

---

٧ - الشيخ حسن خالد - مفتي الجمهورية اللبنانية - المسلمون في لبنان والحرب الأهلية - دار الكندي (بيروت ١٩٧٨) ص ٢٤

٨ - الدكتور سيد حسين نصر. ص ٨٩

٩ - عبد الحميد الأحدب في جريدة «le REVEIL» البيروتية في ١٣/٧/١٩٧٧

الانسان التي أقرّتها منظمة الأمم المتحدة ، ومنها نص يقول : - للرجل والمرأة ، متى بلغا سن الزواج ، حق لهما التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج ، وأثناء قيامه وعند انحلاله[١٠] » غير أن مثل هذا الإعتراض مردود ، كون الشريعة الإسلامية لا تعترف بغير القرآن الكريم مصدراً للشرائع والقوانين ، ففي اعتقاد مفتي المسلمين « أن الدين ، في وجوده الفعلي وجوهره الأصيل ، تحريك شامل للانسان ولأوضاعه الفردية والاجتماعية ، في كل زاوية من زوايا الحياة . . وان الدين ، ولا سيما الاسلام ، بايجابيته وواقعيته وشموله ، لم يعلن انسحابه ولن يعلنه أبداً لا من ميدان السياسة ولا الإجتماع ولا الإقتصاد . . .[١١] » وهكذا فان المساواة التي تعتبر أساس الفكر الغربي تبدو مشكلة ، فهناك فوارق عميقة جداً بين المرأة والرجل ،وبين السليم والمريض ، وبين المتعلم والجاهل ، وبين المسلم وغير المسلم ، بحيث يصعب الحديث عن المساواة . . .[١٢] » من هنا « الحقيقة الأساسية الجوهرية ، وهي أن المسلمين في لبنان ، عندما يطرحون مبدأ الحكم الوطني اللاماروني والقائم على - العدل والمساواة - إنما يفعلون ذلك كحل وسط ، أما الحل الأساسي ، فهو الدعوة لإقامة حكم إسلامي في لبنان[١٣] » وإلا . . . فالدين الإسلامي « هو دين قتال في سبيل الله إذا اقتضى الحال ذلك[١٤] » .

---

١٠ - ميشال غريب . الطائفية والاقطاعية في لبنان . (بيروت ١٩٦٤) ص ١١٢

١١ - الشيخ حسن خالد . ص ٢١

١٢ - أيان ريشار ، « الحوادث » العدد ١١٦٣ الجمعة ١٦/٢/١٩٧٩ ص ٦١

١٣ - حسين القوتلي . « السفير » ١٨/٨/١٩٧٥

١٤ - الشيخ حسن خالد . ص ٢٤

هذه المبادىء الأساسية هي من صلب الإسلام ، مما جعل المجتمع المسلم ، حيثما وجد ، يسعى الى جعل دين الدولة التي يحيا فيها ، الإسلام ، كما في سائر الدول العربية (باستثناء تونس) والبلدان الأخرى ذات الأكثرية المسلمة . وإلا ، فهو يسعى للتقسيم أو لنيل الإستقلال الذاتي . ولهذا الواقع أمثلة حديثة متعددة .

فلقد « كان تقسيم شبه الجزيرة الهندية الى باكستان وهندستان الحل الوحيد الذي تم التوصل اليه لوضع حد للصراعات الدامية التي استمرت تطحن الشعب الهندي عدة مئات من السنين ، وكان سبب تلك الصراعات هو الدين ، حتى انتهى الجميع الى قناعة تامة بأن لا حل للمشكلة بغير التقسيم ، أي بقيام دولتين في شبه الجزيرة الهندية ، تقومان على أسس دينية بحتة ، ويكون ضم إحدى المقاطعات الى احداها على أساس الأكثرية الدينية فيها ، وبهذه الطريقة استطاع المسلمون الهنود أن ينشئوا دولة مستقلة يمارسون فيها شعائر دينهم بحرية وسيادة ، وكانت تلك الدولة باكستان ، كبرى الدول الإسلامية اليوم[١٥] » .

مثال آخر يجدر بنا ذكره في هذا المجال ،يدور حول مسلمي الفليبين الذين تشكل « منطقتهم ثلث مساحة البلاد ، ويبلغ عددهم حوالي ثلاثة ملايين نسمة من أصل حوالي ٤٢ مليوناً هو مجموع سكان البلاد[١٦] » .

١٥ ـ محيي الدين القابسي . التضامن الإسلامي . مؤسسة الجزيرة للنشر . الرياض . ص ٦٧ ـ ٦٨

١٦ ـ راجع : « الحوادث » العدد ١٠١٥ الجمعة ٢٣/٤/٧٦ ص ٢١

كانت اسبانيا الكاثوليكية قد استعمرت جزر الفيليبين سنة ١٥٢٧ بعد اكتشاف الرحالة ماجيلان [١٧] لمجموعة تلك الجزر عام ١٥٢٠ . واستطاعت اسبانيا أن تنصرّ نسبة كبيرة من سكان الجزر الذين كانوا وثنيين ، ولكنها عجزت عن تنصير المسلمين المقيمين في تلك الجزر منذ القرن الثالث عشر . في عام ١٨٩٨ تنازلت اسبانيا عن مجموعة جزر الفيليبين للولايات المتحدة الأميركية ، وحاول الأميركيون بدورهم تنصير المسلمين ، ولكنهم عجزوا عن ذلك . وفي سنة ١٩٤٦ استقلت جزر الفيليبين عن الولايات المتحدة ، ولكن الاستقلال لم يقترب من جزر المسلمين ولم تتغير أوضاعهم التعليمية أو الصحية أو الإجتماعية ، فأخذوا يتحدثون عن الإستعمار الاسباني ، والاستعمار (الماركوسي) نسبة الى الرئيس الفيليبيني ماركوس - بنفس الصيغ والعبارات ، وقالوا أن الاستعمارين الاسباني والأميركي قد زالا ، ولكن حلّ محلهما استعمار الأكثرية الكاثوليكية . . . وتعتبر جزيرتا ميندانا وسولو (يقطنهما المسلمون) من أخصب الجزر في المجموعة الفيليبينية ، وفيهما ثروة معدنية لا بأس بها ، وهذا ما يدفع بحكومة مانيلا للتمسك بهما ، ورفض منحهما استقلالاً كاملاً ، والثورة أصلاً قامت حين حاولت الحكومة المركزية السيطرة على الأراضي الزراعية الخصبة ، فأرسلت جيشاً كبيراً الى الجزيرتين لقمع حركة طائفية قام بها المسلمون في أواخر عام ١٩٧٢ ، رداً على استيلاء الكاثوليك على الأراضي الزراعية ، ولم تردع عمليات القمع المسلمين عن تصعيد مطالبهم ، وتحويل الحركة

١٧ ـ ماجيلان FERNAND DE MAGELLAN (١٤٨٠ ـ ١٥٢١م) رائد برتغالي ، اكتشف المضيق المعروف باسمه سنة ١٥٢٠ وقام بأول دورة حول العالم . قتل في الفيليبين .

الطائفية الى ثورة شعبية مطالبة بالإستقلال الكامل عن الفيليبيين . وبعد عام من الثورة ، أعلن المسلمون في مطلع ١٩٧٣ عن إنشاء جمهورية مستقلة باسم جمهورية « ميندانا وسولو » وفي ١٩٧٤ اشتدت الثورة ... وظهر للجميع أنه ينبغي إيقاف الحرب ... وجاءت المبادرة من المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في بنغازي في شهر آذار ١٩٧٤ . وفي هذا المؤتمر اقترحت دولة السنغال إيفاد بعثة وساطة الى حكومة الفيليبين ، وأخرى الى حاضرة الفاتيكان ، والنتائج التي انتهت اليها البعثتان ... أتاحت فتح باب المفاوضات بين حكومة مانيلا والثوار المسلمين[١٨] . وكان وزير الخارجية اللبنانية السابق فؤاد نفاع قد كلف من قبل المؤتمر بالإشتراك في الوفد الذي كلف الاتصال بالفاتيكان . وقد يكون لاختيار وزير خارجية لبنان الماروني من قبل المؤتمر الإسلامي للإشتراك في وفد وساطة مع الفاتيكان من أجل قضية إسلامية ، دلالة واضحة على أهمية « لبنان المسيحي » بالنسبة للدول العربية المسلمة . غير أن هذه الأهمية ... لم تمنع حصول حرب لبنان ...

في أي حال ، فان قضية مسلمي الفيليبين من شأنها أن تثبت النظرية القائلة بسعي المجتمع الإسلامي ، حيثما وجد ، الى الاستئثار بالحكم ، بشكل أو بآخر . ويبدو أن الغرب قد تنبه مؤخراً الى هذه الظاهرة ، فأصبح أمر توصل المسلمين الى غايتهم في هذا المجال أمراً عسيراً ، ويبدو أن آخر نجاح في هذا المسلسل كان نجاح مسلمي قبرص بتقسيم الجزيرة . إذ بعد ذلك ، فشل المسلمون الحبشيون كما

١٨ - راجع : « الحوادث » العدد ٩٥٣ الجمعة ١٤/٢/١٩٧٥ ص - ٣٧

فشل الأوغنديون والتشاديون في تقسيم كل من بلادهم أو في السيطرة عليها .

ففي أوغندا ، أطاح عيدي أمين المسلم بحكم ميلتون أوبوتي المسيحي الذي كان يعتمد على قبيلتي « أوكولي » و« لانجي » وفور استلامه الحكم ، راح عيدي أمين يصفي القوى المسيحية عن طريق المذابح السرية ، وقد اختلف المراقبون في تقدير عدد ضحاياه بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف قتيل . وقد أباح عيدي أمين لأعوانه ، وكان يختارهم دوماً من المسلمين ، عمليات القتل والإغتصاب والسلب والنهب .

ينتمي عيدي أمين الى قبيلة « كاكاوا » المسلمة التي يقيم بعض أهلها في أوغندا ، أما أكثرها فينتشر في جنوب السودان ، وحين استولى عيدي أمين على السلطة ، استعان بأفراد قبيلته في قوات الشرطة والجيش ، وجنّد « النوبيين » من جنوب السودان ، خاصة وانهم كانوا مدربين على استعمال السلاح بسبب ثورتهم الدائمة على حكومة السودان . وبما أنهم غرباء عن أوغندا ، فان ولاءهم الوحيد كان مكرساً لعيدي أمين الذي أغدق عليهم الأموال ومنحهم سلطات غير محدودة عبر ترتيبات شفهية تركت الفوضى في الجيش تبلغ حداً جعل « النوبي » يأتي الى محاسب الفرقة ويقول له : « أعطني راتب ضابط . أو راتب رقيب أو عميد » وذلك بناء على أمر شفهي يعزى الى عيدين أمين ، الذي يعرف أن يقرأ الإنكليزية ولا يعرف أن يكتبها ... وقد نظم عيدي أمين هؤلاء المرتزقة ، وعددهم خمسة عشر ألفاً ، ووزعهم في مختلف النقاط الحساسة في الجيش ، وأجهزة الأمن ووظائف الدولة . ومنحهم حصانة مطلقة مهما فعلوا ، وأطلق يدهم

على مواطني أوغندا ، بحيث لا يمتنع عليهم أي شخص مهما كان مركزه ، وبواسطة هذه الأجهزة كان يختفي المعارضون ، ويتلاشى المغضوب عليهم ، ومنها تتألف لجان التحقيق ... للبحث عن المفقودين والتحقيق في قضايا المعتدي عليهم ، وأمام إحدى هذه الفرق ، أعلن عيدي أمين في آب ١٩٧٢ انه حلم بأن الله تعالى يأمره بطرد ٥٠ ألف آسيوي (أكثرهم من الهنود) من أوغندا خلال ثلاثة أشهر ، وكانت هذه « الرؤيا الإلهية » رغبة شعبية عميقة الجذور بين الأوغنديين ، لأن الأسيويين كانوا يستولون على المرافق التجارية والصناعية في أوغندا ، وكانوا يشكلون طبقة البيروقراطيين ... وقد أفلح عيدي أمين في تجريد الآسيويين من كافة ممتلكاتهم ... ولم يسمح للفرد بأن يأخذ أكثر من مائة دولار ... وما أن اقترب الموعد النهائي لترحيل الآسيويين حتى أوعز عيدي أمين لجنوده باجتياح بيوتهم ومخازنهم التي اضطروا لأن يتركوها وراءهم مفروشة وملأى بالبضائع ، ولم تسمح سلطات المطار لأي منهم بأن يأخذ أكثر من حوائجه الشخصية ، مما جعل الصناديق الملأى بالتحف الثمينة تتكدس في المطار تحت حراسة ... الشرطة العسكرية « المكلفة منع حوادث النهب .... » لكن تلك الصناديق كانت تفتح ليلا وينهب ما فيها ، وبالتدريج ، اختفى كل شيء .... حتى الصناديق .

وبأموال الآسيويين ، اكتسب عيدي أمين قلوب جنوده ، أما بيوتهم ذات الرياش الفاخرة ، فقد وزعها على كبار الضباط والوزراء ، واحتفظ بعدد منها لاستعمال عشيقاته ، كما وزع أفضل المخازن على زوجاته .

وفي شباط من العام ذاته ـ ١٩٧٢ ـ قام عيدي أمين بزيارة ليبيا ،

فوعده القذافي بمساعدة شخصية كبيرة وبمعدات عسكرية لقواته ، إذا قطع علاقاته باسرائيل ، وسرعان ما بدأت إذاعة أوغندا بمهاجمة اسرائيل دونما هوادة ، شاجبة احتلالها للأراضي العربية المحتلة ... وأخيراً القى عيدي أمين نفسه خطاباً اتهم فيه الإسرائيليين بأنهم « يحلبون » من أوغندا ثلاثة ملايين شلن يومياً لقاء مشاريعهم التي يزعمون أنهم يساعدون بها الشعب الأوغندي ، وأعلن طردهم من البلاد ، وكان الإسرائيليون أكثر مكراً من عيدي أمين ، إذ انهم فور معرفتهم بزيارته للقذافي ، عمدوا الى تجميع معداتهم الثقيلة على حدود كينيا ، وحين علم عيدي أمين بالأمر ، كانوا قد نقلوا الجرارات والجرافات والمداحل وكل الأجهزة الثمينة التي دفع الشعب ثمنها غالياً ، ولم يكن بوسع عيدي أمين أن ينتقم منهم إلا باعلان الغاء صفقات السلاح التي كان ميلتون أوبوتي قد أبرمها معهم .

وفي عام ١٩٧٧ قررت الكنيسة أن تحتفل بالذكرى المئوية للكنيسة الأوغندية ، وبدأت بجمع التبرعات ، فانتقدها عيدي أمين قائلاً : « إن هذا نوع من تشغيل الكنيسة بعمل استثماري » ولم تكن الملاحظة إلا لتزيد من التوتر بينه وبين الكنيسة التي أسقطت في عام ١٩٧٦ اسمه من بين رؤساء الدول الذين يدعى لهم في الصلاة . وكان في عام ١٩٧٥ أن تم افتتاح مزار الشهداء الكاثوليك بحضور ممثل بابوي ، فجاء عيدي أمين مرتدياً عباءة عربية ... مما عد تحدياً للموجودين . وفي عيد الميلاد عام ١٩٧٦ أعلن ناطق عسكري من إذاعة كمبالا أن بعض رجال الكنيسة يبشرون بالكره وليس بالحب ... فحاول الأسقف « لودم » بوصفه رئيس أساقفة أوغندا أن يقابل عيدي أمين ، وحين فشل ، أبلغ احتجاجه الشفهي

للقصر . . . وفي ٥ شباط ، هاجمت فئة من الجنود منزل الأسقف « لودم » بحجة البحث عن الأسلحة ، كما هاجموا بيوت أساقفة آخرين ، مما دعا المطران « لودم » الى جمع الأساقفة واعداد مذكرة احتجاج جاء فيها : « إن المسيحيين يتساءلون : إذا كان هذا ما حدث لمطراننا ، فماذا يمكن أن يحدث لنا ؟ » ورفعت المذكرة في ١٠ شباط للرئيس . وفي ١٦ شباط أعلن عن احتفال رسمي في العاشرة صباحاً . . . يحضره الوزراء والدبلوماسيون والأساقفة ، وكانت أجهزة التصوير التلفزيوني مسلطة على ألفي جندي يحيطون بكميات من السلاح ، حيث أعلن ناطق عسكري أن الأسلحة المصادرة هربت من قبل الرئيس السابق ميلتون أوبوتي في تنزانيا ، الى المتآمرين في أوغندا ، وعلى رأسهم رئيس الأساقفة ووزير الزراعة ووزير الداخلية ، وما لبثت المخابرات العسكرية أن اعتقلت هؤلاء الثلاثة في سياراتها ، وبعد ساعات أعلن عن أن السيارة التي كانت تقل المعتقلين قد تعرضت لحادث اصطدام خطير أودى بحياة من كانوا فيها .

تجدر الاشارة الى أن الزعماء الثلاثة كانوا من المسيحيين . . .

من كل هذا ، يتضح أن الصراع في أوغندا هو في جوهره صراع قبلي ديني ، فالمسلمون في أوغندا أقلية لا تصل الى نسبة ٢٠٪ من مجموع السكان ، ونصف هذه النسبة مستوردة من القبائل المسلمة في جنوب السودان وزائير . . . هذه النسبة المتدنية ، جعلت عيدي أمين يلجأ الى الطغيان والإرهاب والى احتكار ثمرات السلطة وامتيازاتها ، فكانت ضراوة الصراع بينه وبين نظامه من جهة ، والمعارضة المسيحية

التي لجأت بقيادة ميلتون أوبوتي الى الرئيس التانزاني جوليوس نيريري[١٩] . ولم ينفع الدعم العسكري الكبير الذي قدمه الرئيس الليبي معمر القذافي ، بارساله الأسلحة والذخائر والقوات العسكرية ، في المحافظة على سيطرة الأقلية المسلمة على المسيحيين في أوغندا ، ومن تابع الحملات الإعلامية التي شهدها الغرب ضد عيدي أمين أبان معركته مع تانزانيا والمعارضة ، بوسعه أن يدرك بسهولة تنبه الغرب الى ظاهرة محاولة المسلمين السيطرة على الحكم[٢٠] .

وكان الرئيس التانزاني جوليوس نيريري قد برر تدخله في أوغندا بقوله أن نسبة المسلمين في تنزانيا تفوق نسبتهم في أوغندا ، وإذا استمر عيدي أمين في إثارتهم ، فان كيان تنزانيا سيتفكك[٢١] .

هذا المنطق لم يمنع المجتمعين في مؤتمر وزراء الخارجية للعالم الإسلامي في فاس خلال أيار عام ١٩٧٩ من ادانة « اجتياح أوغندا . . . عضو منظمة المؤتمر الإسلامي » . وقد تحدث يومها الدكتور عبد السلام التريكي أمين الخارجية في الجماهرية الليبية فقال : « هذا المؤتمر عليه واجب توحيد الأمة الإسلامية ونشر الدعوة الإسلامية كي يدخل الناس في الإسلام لأنه دين البشرية بأسرها » وطالب « بتحالف عسكري بين الدول الإسلامية في المستقبل . . . » وذكر أن « ما حدث في أوغندا هو عمل خطير صارخ من الخارج ، تم

١٩ - راجع « الحوادث » العدد ١١٦٨ تاريخ ٢٣/ ٣/ ١٩٧٩ ص ٦٨ - ٧٠
٢٠ - يروي أحد الرؤساء العرب أن عيدي أمين قد دخل الى مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي كلف خلاله الرئيس اللبناني سليمان فرنجيه بالتحدث باسم العرب في الأمم المتحدة ، وفاجأ الرئيس الأوغندي الحضور بوصوله دون دعوة ، وفاجأهم أكثر عندما عرض عليهم « تلزيمه إبادة المسيحيين في جميع البلدان العربية . . . »
٢١ - راجع : « الحوادث » العدد ١١٧٠ الجمعة ٦/ ٤/ ١٩٧٦ ص ٣٢

على رغم محاولات منظمة الوحدة الافريقية نفسها . وعلى رغم المساعي التي بذلتها الجماهرية لدى تنزانيا وأوغندا فان الغزو قد تم . . . والآلاف من المسلمين هاجروا الى السودان والمناطق المجاورة . . .[22] » .

مثل آخر على الإستراتيجية المسلمة في مجال ما أصبح يعرف بالتعايش ، هو مثل « أريتريا » وهي من مقاطعات الحبشة على البحر الأحمر ، عدد سكانها حوالي ١,٥٢٧,٠٠٠ أكثرهم من المسلمين . احتلها البريطانيون عام ١٩٤٠ وانضمت الى الحبشة عام ١٩٥٢ .

يقول عثمان صالح سبي ، الأمين العام لجبهة التحرير الأريترية ، إن « قضية تحرير أريتريا تهم جميع العرب ، بصرف النظر عن اختلاف الأنظمة » وبعد شكر السعودية على مساعداتها الكبيرة للأريتريين ، يضيف بأن « سوريا وليبيا تمدان الثورة بالسلاح ، ومصر بالمواقف السياسية ، والسودان يأوي النازحين، وهو وسيلة وصول الأسلحة والذخائر الى الأريتريين ، وكذلك عدن ، والعراق ، والجزائر ، والكويت ، واتحاد الامارات ، والمغرب ، وتونس . . . كلها تؤيد الثورة . .[23] » .

وكان المغفور له الملك فيصل ، أقوى العاملين من أجل تحرير أريتريا وفصلها عن الحبشة ، وعندما حاول رئيس إحدى الوفود التي زارت السعودية ، شكر الملك على دعمه في إحدى الزيارات ، أجاب فيصل : « إن ما قدمته المملكة وما تقدمه هو واجب عليها . . .[24] »

٢٢ ـ « النهار » ١١/ ٥/ ١٩٧٩
٢٣ ـ راجع : « الحوادث » العدد ٩٥٥ الجمعة ٢٨/ ٢/ ١٩٧٥ ص ٣٦
٢٤ ـ راجع : « الحوادث » العدد ٩٤٩ الجمعة ١٧/ ١/ ١٩٧٥ ص ٣٦ ـ ٣٧

وعندما زاره وفد أريتري ، وحاول أعضاؤه شرح المسألة قائلين بأن « الأريتريين هم أثيوبيون ، وأريتريا تشكل الحبشة القديمة ، التي انبثقت منها كل شعوب أريتريا ، وتخلينا عن أريتريا يعني تخلينا عن أثيوبيا بذاتها . . . » قاطعهم الملك قائلاً : « نحن لسنا بصدد بحث تاريخي ، كما أننا لا نريد أن نجادل فيما إذا كان الأريتريون حبشيين أم لا ، أنتم تقولون انكم أثيوبيون ، وهم يقولون أنهم أريتريون . إذن أنتم تعترفون بهم ، وهم يعترفون بكم . والحل هو أن يأخذوا استقلالهم بموجب استفتاء تشرف عليه هيئة محايدة . وإذا أردتم مساعينا الحميدة فنحن على أتم الإستعداد لذلك ، وأنا عندما كنت مندوب المملكة في الأمم المتحدة ، وافقت على القرار الفدرالي لعام ١٩٥٠ ، وأنا ملتزم باحترام القرارت الدولية ، وبشكل خاص هذا القرار إذا أرادت ذلك الثورة الأريترية ، وعلى الأقل ابقوا للأريتريين الاتحاد الفدرالي الذي كنت قد نصحت أكثر من مرة الامبراطور هيلاسيلاسي بالعودة اليه وتطبيقه ، وما كان يأخذ بنصيحتي فانتهى الى ما انتهى اليه . . . » وعندما أثار الوفد مسألة القرض الذي وعد به فيصل الامبراطور هيلاسيلاسي والبالغ ١٧ مليون دولار ، كان الملك حاسماً في رده ، إذ رفض تلبية الطلب وقال : « أخاف أن تحولوا هذا المبلغ الى أسلحة لتقتلوا بها إخواننا الأريتريين ، لا قروض قبل استقلال أريتريا . . .[25] » .

ولم يستقبل الوفد بالكويت بأفضل مما استقبل في السعودية ، إذ انتهت المقابلة بشكل عاصف ، أو بما يشبه الطرد ، إذ لم يحضر أحد من المسؤولين الكويتيين لوداع أعضاء الوفد على المطار ،

٢٥ ـ المرجع السابق

إنما حضرت سيارة أجرة عادية ، ركبوها ، وحملوا حقائبهم بأيديهم حتى باب الطائرة . ولم يكمل الوفد مهمته يومذاك في اتحاد الامارات والبحرين وقطر .

وفود أخرى أثيوبية ذهبت الى اليمن الشمالي واليمن الجنوبي وليبيا والجزائر .

في اليمن الشمالي لقي الوفد مجاملات شكلية ، حفاظاً على الجالية اليمنية الكبيرة في أثيوبيا . في اليمن الجنوبي قال الوفد الأثيوبي : « نريد أن نتعلم من تجربتكم الإشتراكية » فزوروهم بضع مزارع . في ليبيا ، كان رئيس الوفد أريتريا ، فقال له أحد المسؤولين الليبيين : « كيف تقبل بمحاربة أبناء بلدك ؟ » فرد : « هم منشقون ! » وعندما طلب الوفد قرضاً كان جواب الليبيين :«إذا أعطيتم أريتريا استقلالها نقدم لكم كل مساعدة ممكنة » فرد رئيس الوفد : « نحن لا نبيع بلدنا ، وأريتريا بلدنا » . وانصرف الوفد الأثيوبي عن الأراضي الليبية بالطريقة نفسها التي انصرف فيها عن الأراضي الكويتية . وفي الجزائر ، قوبل الوفد الأثيوبي بمجاملات لم تنته الى أي أثر مادي أو معنوي ، وفي السودان والصومال كانت النتائج مشابهة[٢٦] .

وقبل إقفال هذا الباب الذي ارتؤي عرض بعض الأمثلة من خلاله عن عدم رضوخ المجتمع المسلم لدولة ينتمي اليها إلا إذا كان دينها الإسلام ، تجدر بنا الاشارة الى أنه في العام ١٩٧٣ ، وعندما كان الملك فيصل يصر على ربط الشيوعية بالصهيونية ، أدلى الأمير فهد

٢٦ - المرجع السابق

بحديث صحافي قال فيه : « علينا الاعتراف بالحقائق ، ونحن على استعداد لتعديل موقفنا من الاتحاد السوفياتي إذا عدل موقفه من المسلمين الذين يعيشون في الجمهوريات السوفياتية ، واعترف لهم بحق ممارسة شعائرهم الدينية[٢٧] » .

استراتيجية السنة في لبنان

هذا العرض السريع للأحداث التي عرفتها مؤخراً بعض بلدان العالم من أقصاه الى أقصاه ، بسبب أن « المسلم . . . إما أن يكون الحاكم مسلماً والحكم إسلامياً ، فيرضى عنه ويؤيده ، وإما أن يكون الحاكم غير مسلم والحكم غير إسلامي ، فيرفضه ويعارضه ويعمل على إلغائه . . . » يقودنا في النهاية الى قضية المسلمين في لبنان .

يرسم الشيخ حسن خالد ، مفتي الجمهورية اللبنانية ، المشكلة على الأساس التالي ، فيقول : « . . . لقد كان لبنان ، قبل الحرب العالمية الأولى ، يعيش كبقية المناطق العربية تحت سيطرة دولة واحدة هي الخلافة العثمانية ، فكان العالم العربي كله يعيش في شبه وحدة ويخضع لشبه نظام واحد ، وقانون ، ولغة ، وعقيدة ، وأماني ، وتاريخ ، وآلام ، كان يعيشها كلها بشكل موحد . حصلت الحرب العالمية الأولى وهزمت الخلافة وتقاسم العالم المنتصر من الدول الحلفاء بلدان الجسم المريض . وكان من نتائج هذه المقاسمة أن دخل لبنان ، أو هذه المنطقة التي سميت فيما بعد لبنان . . . تحت السيطرة

٢٧ - راجع « الحوادث » العدد ١١٧٦ الجمعة ١٦/٣/١٩٧٩ ص ٢٧

الفرنسية . . . فحاولت فرنسا أن تعطي للفئة المسيحية امتيازات على الفئة المسلمة باعتبار أنها قسمت البلد الى قسمين ، مسلمين ومسيحيين . وهكذا بدأ الواقع اللبناني الحالي يتشكل من ذلك الزمان . . . وأذكر ، وكنت صغيراً أن الحكومة الفرنسية أجرت الاحصاء للمرة الأولى ، وشاع في البلد ان الاحصاء لم يكن صحيحاً ، وأن التزوير فيه كان عاماً ، وأن هذا التزوير قد أجري لمصلحة الفئة القليلة حتى تعطى القدرة على أن تكون مساوية للفئة الكثيرة ويتحقق لها ما تتمناه فرنسا . . . هذا الذي حصل . . . عرفه المواطنون . . . ولكن لم يكن بامكانهم أن يغيروا ما حصل ، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم وظرف أحسن من هذا الظرف ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً[28] . . . »

هذه الاستراتيجية ، استراتيجية « أن يأتي يوم آخر يكون أبرك . . وظرف يكون أحسن . . . » هي التي سوف يتتهجها المسلمون السنة فيما بعد ، تبعاً لشعار خذ وطالب ، هادفين من خلال ذلك الى السيطرة في النهاية على الحكم كما يقتضي الدين وكما تحتم الشريعة .

ففي العام ١٩٥٨ ، وجد المسلمون ، إثر الوحدة المصرية السورية ، أن الظرف كان مؤاتياً لنسف الصيغة اللبنانية التي لا تؤاتي معتقدهم ، وذلك عن طريق ثورة هادفة الى الاتحاد مع « الجمهورية العربية المتحدة » . غير أن محاولتهم باءت بالفشل ، وانتهت مع نهاية عهد كميل شمعون وبداية عهد فؤاد شهاب بشعار « لا غالب ولا مغلوب » وعاد المسلمون السنة يتحينون « اليوم الأبرك » من جديد .

٢٨ - الشيخ حسن خالد . ص ١٢٥ - ١٢٦

وعندما بدأت طلائع الثورة الفلسطينية تظهر على أرض لبنان في نهاية الستينات ، توسم المسلمون السنة خيراً بالمقاومة الفلسطينية التي لن يطول الزمن إلا وتصبح بعرف مفتي المسلمين السنة في لبنان ، « جيش المسلمين[29] » .

فمع اشتداد قوة المقاومة الفلسطينية التي نشأ بينها وبين المسلمين تحالف استراتيجي وثيق ، كثرت مطالب المسلمين السنة ، فمن المطالبة بالتعطيل يوم الجمعة ، إلى المطالبة بإلغاء مبدأ الرئاسة للموارنة الى . . . المشاركة . . الى أن باتوا يجاهرون بعدم اعترافهم بالميثاق الوطني ، وفي ٢٨ كانون الأول من العام ١٩٧٤ ، قال الشيخ حسن خالد :

« أروني . . . أين الميثاق الوطني ؟ . . . . إن المواثيق في حال حصولها ، تفقد قيمتها إذا تضمنت تكريس التمايز بين المواطنين في الحقوق والواجبات . . . اليس الميثاق عقداً أجري بين طرفين اختارا بالتفاهم بينهما منهجاً خاصاً للتعايش والتعاون؟! فهل إذا رأى أحد هذين الطرفين ان هذا العقد لم يعد صالحاً ، وانه على العكس ، أصبح ضاراً بمصلحته ، ويسيء الى قضاياه ، بل ويمزق وحدته وتعاونه مع الطرف الآخر ، يجوز أن يستمر هذا العقد قسراً وجبراً ؟ . . .

٢٩ - في لقاء تم بين المفتي حسن خالد والمرحوم كمال جنبلاط قال الأخير للمفتي : « لولا الفلسطينيون لهزمنا ودخل الكتائب البسطة . . رأى المسيحيون والموارنة إنو إذا قويوا الفلسطينيين رح يقوى المسلمون ، ويطالبوا بحقوقهم أكثر وأكثر ، وقالوا في خطر من الفلسطينيين علينا ، يعني على امتيازاتهم ، الفلسطينيون كما كنت تقول سماحتك هم جيش المسلمين . . (ذكر هذا المحضر في كتاب الشيخ حسن خالد . المسلمون في لبنان والحرب الأهلية . دار الكندي - بيروت ١٩٧٨ ص ٢٨٧) .

أفليس من الحكمة والمصلحة العامة وحسن المواطنية استجابة الطرف الآخر لأمنية الآخرين؟![٣٠] » .

يتبين من مجمل المواقف التي اتخذها المسلمون السنة ، قبيل اندلاع الحرب اللبنانية وخلالها ، انهم كانوا يهدفون الى تحقيق مبدأ جعل « الحاكم مسلماً » في لبنان عن طريق إلغاء « الطائفية السياسية » المعتمدة من خلال « الميثاق الوطني » كمرحلة أولى ، على أن يصار فيما بعد الى تثبيت الرئاسة للمسلمين ، بصفتهم « الأكثرية العددية » . وبانتظار أن يتحقق لهم ذلك ، فهم يتبعون مبدأ « خذ وطالب » الذي عبر عنه الرئيس عبد الله اليافي في اجتماع قمة عرمون المنعقد بحضور عبد السلام جلّود ، رئيس وزراء ليبيا ، بتاريخ ١٧ أيار عام ١٩٧٦ ، إذ قال رئيس الوزراء الأسبق : « لا بأس من أن نقبل بالشيء الموجود ثم نطالب بالأكثر . . . الشيء الذي توصلنا اليه بشق النفس ليس كل شيء . . . . ولكني أوافق إخواني . . . نمشي لنأخذ أكثر[٣١] » .

وقال المفتي حسن خالد ضمن المبدأ نفسه وفي المجال نفسه : « الإصلاحات هي القضايا المشتركة التي تفرض لنا نصراً مرحلياً ، بامكاننا متابعته بالطرق السياسية والديموقراطية السلمية ، ومن المسائل التي اتفقنا عليها كالنص على عروبة لبنان وتحقيق المناصفة في البرلمان والجنسية . . . والتعليم . . . الى آخر ما جاء في الوثيقة (الدستورية) هذه كانت مرحلة . . .[٣٢] » .

أما هدف السّنة النهائي ، فقد عبر عنه مفتي الجمهورية اللبنانية

٣٠ - الشيخ حسن خالد - ص ٨٢ - ٨٣
٣١ - المرجع السابق - ص ٢٨١
٣٢ - المرجع السابق - ص ٢٨٣

خلال اجتماع قمة عرمون بالسيد جلّود إذ قال : « اتجاهنا كان أن الأغلبية هي التي ينبغي أن تحكم ، ونحن كمسلمين نشكل الأغلبية . . . إلا أن الالتزام العربي والداخلي غلب عند المسلمين ، فبدأنا نطالب بالغاء الطائفية السياسية ، وهذا أهم مطلب ، بالنسبة للرئاسات ، والمجلس النيابي ، وغيره من مؤسسات الحكم ، ولو خيرتنا لأردنا نحن كمسلمين أن نحكم البلد ، لأننا أغلبية . . .[٣٣] » .

وكان سماحته قد صرح علناً ، قبل ذلك ، بأن في رأس المطالب الإسلامية « إلغاء الطائفية السياسية ، وهذا يقتضي أن لا نكون متطلعين الى أن تكون رئاسة الجمهورية في طائفة مخصوصة من الطوائف اللبنانية ، أما البديل لإلغاء الطائفية السياسية ، وهو ما نصرّ عليه ، فهو أن تكون الرئاسة للأكثرية ، وعلى ذلك ، ان البلد إما أن يكون ديموقراطياً وتلغى الطائفية السياسية ، وإما ، إذا حرصوا على إبقاء الوضع على حاله ، ينبغي أن تعطى الرئاسة للأغلبية من هذه الطوائف » وسئل : وحتى ولو كانت الأغلبية شيعية ؟! فأجاب : « ليكن . . . شرط أن يكون الرئيس متجاوباً مع المطالب الشعبية والوطنية والإسلامية ، وأن يغذي الوجه العربي للبنان ويحقق الإصلاحات المطلوبة لاقامة دولة حديثة تلبي حاجات المواطن[٣٤] » .

واتخذ المسلمون السنة من قضية التفاوت العددي الذي ادعوا بحصوله بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ، قضية رئيسية . . فراحوا

٣٣ - المرجع السابق - ص ٢٨٢
٣٤ - المرجع السابق - ص ٢١٢

يطالبون بالإحصاء . فدعت قمة عرمون السفير البابوي السابق في لبنان المونسينيور الفريدو برونيرا الى اجتماع عقد في دار المفتي بتاريخ ١١ تشرين الثاني عام ١٩٧٥ ، وحضر الاجتماع بالاضافة الى سماحته وغبطة الكاردينال كل من الشيخ محمد أبو شقرا شيخ عقل الطائفة الدرزية ، ومدير عام دار الإفتاء حسين القوتلي ، والدكتور حسن صعب ، أما الإمام موسى الصدر ، فقد حضر لمدة خمس دقائق ثم اعتذر بسبب « شعوره بالارهاق والتعب . . . » ومما قاله سماحته للسفير البابوي يومذاك : « . . . إن من أبرز مساوىء هذا الحكم الطائفي السكوت عن الإحصاء الوطني . آخر إحصاء جرى عام ١٩٣٢ وكان العدد متساوياً بين المسلمين والمسيحيين ، أما الآن ، فيزيد عدد المسلمين بنسبة ١٠ و١٥ بالمئة ، أي أن الكثرة أصبحت محرومة والتغيير لا يعني نزع النعمة بل التساوي بشكل عادل . . .[٣٥] » .

والغريب أن « النسبة » التي تحدث عنها مفتي الجمهورية مع السفير البابوي إذ قال أن المسلمين يزيدون عن المسيحيين بنسبة ١٠ و١٥ بالمئة تغيرت كثيراً عندما تحدث سماحته مع المبعوث الفرنسي موريس كوف دي مورفيل في ٢٢ تشرين الثاني، أي بعد ١١ يوماً إذ قال : « المسيحيون والمسلمون هم بنسبة ثلاثة الى واحد ، ومع ذلك فان المجلس النيابي يتكون من ٥٤ مسيحياً و٤٥ مسلماً ، وبالتالي فان رئيس الجمهورية يستفيد من هذه الكثرة ويحكم البلد . . .[٣٦] » .

ومن أبرز المعضلات التي واجهت الحل العادل بين المسيحيين

٣٥ ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٢
٣٦ ـ المرجع السابق ـ ص ١٩٧

والمسلمين خلال الحرب اللبنانية ، أن المسلمين السنة ، الذين كانوا يطالبون بالغاء « الطائفية السياسية » كانوا في الوقت نفسه ، يرفضون العلمنة ، مما كان يخلق لدى المسيحيين والأقليات الأخرى خوفاً على المصير . . .

ففي الثالث من حزيران عام ١٩٧٣ ، ذكر مفتي المسلمين في لبنان ، أن « الطائفية هي أداة تفرقة لا أداة وحدة . . . وأشد وجوه الطائفية بشاعة هو هذا التقسيم الطائفي والعشائري الحاصل على صعيد مجلس النواب والادارة والمناصب . . . لقد دعونا . . . الى إلغاء الطائفية مرة واحدة ، لأن هذه الآفة لا يقضى عليها بالتجربة والتجزئة أو مرحلياً ، كما حاول البعض في السابق ، فان التجربة والتجزئة والمرحلية تزيد الأمور تعقيداً وتزيد في الحساسيات كما أنها لا تبرهن على حسن النية أبداً . إن القضية في الغاء الطائفية تحتاج الى موقف ثوري . . . . إلا أننا ونحن ندعو الى إلغاء الطائفية ، ينبغي أن يكون هناك أمران واضحان تمام الوضوح : أولهما أن إلغاء الطائفية لا يمكن أن يعني لدينا إلغاء الدين أو المؤسسات الدينية وما يرتبط بها . ثانيهما أن الغاء الطائفية لا يمكن أن يعني لدينا القبول بالعلمنة . . . .[٣٧] » .

ويقول مدير دار الإفتاء في لبنان حسين القوتلي أن « العلمنة في الواقع من حيث تاريخها وتسميتها ، لا شك أنها تشكل حرجاً بالنسبة للمسلمين ، لأنها تدعو الى فصل الدين عن الدولة ، في حين أن الاسلام نظام كامل ، أعني ديناً ودولة . . . هذا هو الإسلام ، والمسلمون لم يأتوا بهذا الدين من بيت أبيهم ليغيروا فيه أو يبدلوا

٣٧ ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥

منه ، وإنما ، هم يعتقدون بأنه أنزل على نبيهم هكذا دينا ودولة ، للفرد وللمجتمع ، فهذه سنّة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) . . .[٣٨] » .

وعندما طرح مبدأ العلمنة كحل للمشكلة اللبنانية ، عقد «مجلس العلماء في لبنان» اجتماعاً مشتركاً مع ممثلين عن الجمعيات والهيئات الإسلامية ، وتداول المجتمعون في مسألة العلمنة وأصدروا في النهاية بياناً جاء فيه : « إن المجلس يعلن استنفاره لكامل أعضائه من أجل مواجهة هذا الخطر المستفحل بكل الوسائل ويقرر . . . العلمانية ليس لها مكان في وجود الانسان المسلم ، فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية ، وإما أن توجد العلمانية ولا إسلام . . .[٣٩] » .

وفي مجال آخر ، وكان الرئيس رشيد كرامي ، رئيساً للوزراء ، وأثناء اجتماع قمة عرمون بالرائد عبد السلام جلّود رئيس وزراء ليبيا ، قال كرامي : « . . . هم يقولون بالعلمنة ونحن نقول لا ، لأن العلمنة تعني الغاء أحكامنا الشرعية والأحوال الشخصية والارث والزواج الشرعي ، أنا ضد ذلك . . . نحن مع إلغاء الطائفية السياسية . . .[٤٠] » .

لقد كان من الطبيعي أن يتخذ المسلمون السنة مثل هذا الموقف الرافض للعلمنة ، وقد تمسكوا ، به تمسكاً حاسماً خلال مناقشات لجنة الحوار ، ذلك لأن العلمنة تتناقض فعلاً مع مبادىء الشرع الإسلامي ، وكان قد عقد في مكة المكرمة من ٦ الى ١١ نيسان ١٩٧٤ مؤتمر

٣٨ ـ جريدة « السفير » البيروتية في ١٥/٨/١٩٧٥
٣٩ ـ جريدة « الأنوار » البيروتية في ٢٥/٢/١٩٧٦
٤٠ ـ الشيخ حسن خالد . ص ٢٨٠

للمنظمات الإسلامية ، بحث في جملة ما بحث فيه ، موضوع العلمنة ، واتخذ بشأنها التوصيات التالية :

١ ـ بما أن الاسلام دين ودولة ، وعمل وعبادة ، فانه يرفض فكرة العلمانية التي تحاول إبعاده عن التأثير في الحياة العامة للأمة الإسلامية .

٢ ـ مطالبة الدول الإسلامية باعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الوحيد لدساتيرها وقوانينها[٤١]

ويتمسك المنظرون المسلمون في هذا المجال بالآية الكريمة : « لن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً » .

ولكن ، رغم هذا التناقض الأساسي بين الدين الإسلامي والعلمانية ، فقد حصل أن اعتنقت دولة مسلمة كبرى ، العلمنة التامة الكاملة في نظامها : تركيا . فكيف حدث ذلك ، وما هو موقف المسلمين من هذه السابقة ؟

لقد فصل مصطفى كمال الملقب بأتاتورك ، الدين عن الدولة في تركيا ، وجاء في مقدمة القانون التركي الحديث :

« إن الحياة في تقدم ، والحاجات في تغير سريع ، لذا ، فقد أصبحت ضرورة حصر الأديان في النطاق الضميري أحد مبادىء المدنية العصرية ، وإحدى المميزات بين المدنيتين القديمة والحديثة ، ففي جميع القوانين الغربية . . . المبدأ هو الفصل الكامل والقطعي بين الدين والدولة ، فبفضل قوانينها المدنية ، تمكنت سويسرا والمانيا وفرنسا من

٤١ ـ مجلة الهلال . أيار ١٩٧٤ . ص ٣١

تأسيس وحـدة كل منهـا ، السياسية والقـومية ، وتطـوير اقتصادياتها . . . وفي الدول الحاوية مواطنين تابعين لأديان مختلفة ، فان واجب فصل الدين يفرض نفسه بقوة أكبر ، وإلا فلا يمكن إصدار قوانين قابلة للتطبيق على المجموعة بكاملها . ومن جهة أخرى ، فان إيجاد قوانـين لكل أقلية طائفية على حدة ، يفصـم الوحـدة الـوطنية والإجتماعية . . .[٤٢] » .

غير أن المسلمـين اللبنـانيين يبـررون عملية أتاتـورك بالتبعية للاستعمار ، ويرفضونها جملة وتفصيلاً ، ففي البيان الـذي صدر إثر الاجتماع المشترك الذي انعقد في شباط ١٩٧٦ بين مجلس العلماء في لبنان وممثلي الجمعيات والهيئات الإسلامية ، جاء أن « السياسيين المعـادين للإسلام ، اقتداء منهـم بالمستشرقـين ، يعمـدون ، بمناسبـة وبـدون مناسبة ، الى الاشادة بأي بلد إسلامي يطبق مبادىء العلمانية ، ومثالهم في ذلك الدولة التركية الإسلامية ، ولا بد لنا هنا من تنبيه المسلمـين الى . . . أن دول الحلفاء أثناء تسوية الصلح مع تركيا في نهاية الحرب العـالمية الأولى أجبـروا تركيا على قبـول العلمانية واعتمادهـا ليتحقـق لهم . . إلغاء الخلافة الإسلامية . . وعـزل الدولـة الإسـلامية . . . ومساعدة الاتحاد السوفياتي في إخضاع الشعوب الإسلامية الواقعة تحت سلطته والمتمردة على الأيديولوجية الماركسية العلمانية باعتبـار أن تلك الشعـوب ذات أصـل تركي ، وعلمنـة تركيا تشـكل تسـهيلاً مهماً لإخضاع تلك الشعوب . . .[٤٣] » .

وهكذا أقفل المسلمون الباب نهائياً أمام إمكانية الحل عن طريق

٤٢ ـ ميشال غريب . ص ٩٩
٤٣ ـ جريدة « الأنوار » البيروتية في ١٩٧٦/٢/٢٥

العلمنة ، وفي خطابه الشهير الذي ألقـاه في ٢٠ تموز ١٩٧٦ ، قال الرئيس السوري حافظ الأسـد : « . . . لقـد طالبني كمال جنبـلاط بالعلمنـة ، يريد دولـة علمانية في لبنـان . . . قلت له أن الكتائب متحمسة للعلمنة، عندما زارنا . . . الشيخ بيار الجميل ، سألته أنا شخصياً عن هذا الموضوع ، وقال لي : أنا لا أقبل للعلمنة بديلاً ، أنا مصر ومتمسك بدولة علمانية في لبنان . وطرحت هذا الأمر على مفتي المسلمين ، وعلى السيد موسى الصدر ، وعلى بعض رؤساء الوزارات ورؤساء مجلس النواب ، ورفضوه لأن الأمر يتعلق بجوهـر الـدين الإسلامي ، . . . هذا يجب أن تعرفوه ، المسلمون في لبنان هم الذين لا يريدون العلمنـة وليس العـكس ، لأن الأمـر يتعلـق بجوهـر الإسلام . الكتائب متمسكون بالعلمنـة ، وكمال جنبـلاط متمسـك بالعلمنة . قلت له (لكمال جنبلاط) رجال الدين المسلمون ، علماء الدين ، هم الذين لا يوافقون على العلمنة ، قال : لا تهتم بهـم ، إنهم لا يمثلون شيئاً . . قلت له : « الأمر ليس أمـر تمثيل . . . إنما يتعلق بالدين الإسلامي ، وعندما يتعلق الأمر بالاسلام ، فيجب عدم الاستهانة به[٤٤] . » .

وبالاضافة الى رفضهم العلمنة ، كحل ، فمن الواضح تماماً أن المسلمين السنة رفضـوا دومـاً التقسيم، واتهمـوا كل من نادى حتـى باللامركزية ، بالخيانة والعمالة والانعزالية ، فان « التقسيم مرفوض ، لأنه كفانا ما نحن فيه اليوم من تشتيت الكيان العربي وتفتت قواه ، فنحن نعلم أن العالم العربي من المحيط الى الخليج كان دولة واحدة ،

٤٤ ـ الكتاب الأبيض اللبناني . وزارة الخارجية والمغتربين (بيروت ١٩٧٦) ص ١٢٨ ـ ١٢٩

وإن هذا الذي نراه اليوم من تعدد الدول فيه ، هو بفعل المستعمر الذي رفع شعار « فرق تسد » وانطلاقاً من هذا كان وجود لبنان الذي يمثل جزءاً من الأجزاء التي تكون الجسم العربي الموحد ، فتقسيمه الذي سيؤدي الى قيام دولة مسيحية عنصرية سيضيف خطراً ثالثاً ، بالإضافة الى خطر التقسيم العام وخطر وجود الصهيونية في قلب العالم العربي ، أضف الى ذلك أنه إذا وجدت هذه الدولة الصغيرة ، فان العالم العربي سينظر اليها نظرته الى اسرائيل ، وسيعاملها المعاملة ذاتها ، ولن يكون من ذلك خير لا عليها وعلى الأمة العربية ، أما إذا أصر المسيحيون على إقامة دولة لهم فان مسلمي لبنان سينضمون الى سورية[٤٥]» .

إن هذا التهديد الاسلامي من قبل الطائفة السنية في لبنان بالانضمام الى سوريا ، والى الدول العربية الاسلامية ، ليس فريداً ، وليس جديداً على اللبنانيين ، غير أن الخطورة في هذا الموضوع قد برزت عندما أصبح ينظر للقومية العربية ، من قبل المسلمين السنة ، على أنها قومية إسلامية ، ولا شيء غير ذلك ، على الرغم من أن أبرز رواد هذه القومية هم في الواقع من المسيحيين اللبنانيين الموارنة . وقد رأى هؤلاء الرواد القدامى في الواقع أن العمل لتغذية روح القومية العربية من شأنه أن يساعد على القضاء على القومية الإسلامية التي كانت الدولة العثمانية تحمل رايتها . إلا أن « التطور » في المفهوم السني للقومية العربية قد أجفل المسيحيين منها ، وأبعدهم كل البعد عن روافدها وضفافها .

فالدكتور عمر فروخ ، وهو أحد كبار المربين الجامعيين السنيين

٤٥ ـ الشيخ حسن خالد . في ١٨/١٢/ ٢٥   الشيخ حسن خالد ص ٢١٠

في لبنان ، يقول بأن « الإسلام في الواقع ديانة القومية العربية ، وأنا أؤمن شخصياً بأن هذين المفهومين ، أي الإسلام والقومية العربية ، هما واحد ، في السياسة يقولون أن الإسلام يمثل شطراً كبيراً من العروبة ، وليس هذا سوى تساهل من قبل الساسة ، في الواقع لا فرق بين الإثنين ، ويجب أن يكون الأمر كذلك . ولا بد للوحدة من أن تأتي يوماً . ونحن دائماً مع الذين يتجهون في هذا الاتجاه . مدارسنا أيضاً تعمل في هذا الإتجاه . بالطبع كل المدارس المسيحية هي ضد هذا الإتجاه . ويوم يقول النصارى أنهم عرب . ويتصرفون كعرب ، يصبحون عندئذ مثلنا . . . ولكن عليهم أن يتصرفوا كأقلية بالمعنى الديموقراطي تماماً كما يتصرف البروتستنت كأقلية في فرنسا . ومثل الأقلية في انكلترا مثلا لا يستطيع أبداً أن يصير ملكاً . فمسألة مكان النصارى لها وجهان : وجه ديني ووجه سياسي . الكل متساوون بالقيمة من حيث الديانة . أما في السياسة فالحكم للأكثرية . وإذا ما وصلت العروبة يوماً الى القمة ، هنا في لبنان ، فان اناساً كريمون اده ، لا يتكلمون العربية ولا يريدون أن يكونوا عرباً ، لن يكون لهم مكان ، لا في الصف الأول ولا في الصف الثاني ولا في الصف الثالث . وإذا كنا نبغض الثقافة الفرنسية ، فالمسيحيون الذين يتكلمون الفرنسية ويتمتعون بثقافة فرنسية جديرون لدينا بالبغض وبنفس المقدار . . . ليس هناك من ثقافة لبنانية ، الثقافة اللبنانية ثقافة فرنسية ـ مسيحية . نحن نعتقد أننا عرب يسكنون لبنان . الذين يدّعون وجود ثقافة لبنانية يقولون أنهم لبنانيون . يظنون أنهم أكثر صلة بالفينيقيين والأشوريين وغيرهم من الإسلام . وأنا أرى بعكس ذلك أن لا شيء يربطني بالفينيقيين ، فكياني يبدأ مع الاسلام ، لبنان اليوم قائم على الاسلام . والسؤال يبقى هو هو : ما الذي يجب أن يكونه

الاسلام في لبنان ؟ هل ينبغي أن يكون ديناً فقط ؟ لا . يجب أن يكون أكثر من ديانة بكثير . إن له دوراً كبيراً يمثله على صعيد ثقافتنا . وما معنى ثقافة متوسطية ؟ ماذا يعني شعار « أصل يوناني ـ لاتيني ؟ » كل هذا لا صلة له إلا بالنصرانية . وهو بالنسبة الينا غريب كل الغربة . فلا علاقة للثقافة اليونانية ـ اللاتينية بالعروبة[٤٦] » .

قد يكون هذا التحديد الصريح من قبل الدكتور عمر فروخ ، لمفهوم المسلم السني ، للقومية العربية ، وللوطن اللبناني ، أصدق تحديد ، وهو لما فيه من صدق وصراحة ، من شأنه أن يوفر الكثير على الباحث .

وفي الواقع ، لا تقتصر النظرة التي يقول بها الدكتور عمر فروخ ، بالنسبة للقومية العربية وارتباطها بالإسلام ، على بعض المنظرين ، ومنهم الدكتور اسماعيل مظهر الذي يقول « إذا قال أحدنا الجامعة الإسلامية ، فانما يعني جامعة روحها الاسلام ، وإذا قال أحدنا الجامعة العربية ، فانما يعني جامعة إسلامية روحها العروبة . وكل قول ينابذ هذا القول خطأ . وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعوبية خسيسة[٤٧] » انما هذه النظرة هي في الواقع المبدأ العام الذي ينتهجه المسلمون العرب ، وخاصة السنة منهم .

---

٤٦ ـ THEODOR HNF, ERZICHIJNGSWESEN In : GESELLSCMAFT UND-POLITIK DES LIBANON - BERTELSMANN UNIVERSITATSVER - LAG, 1970

interview dre docteur umar farrookh.

وورد في : لبنان الكبير، مأساة نصف قرن . سلسلة القضية اللبنانية . الحلقة الأولى. ص : ١٣ ـ ١٤ .

٤٧ ـ الدكتور اسماعيل مظهر. مجلة المقتطف. نيسان ١٩٤٥

فان المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز ، قد أعلن في أول خطاب له لدى منظمة الأمم المتحدة عندما كان وزيراً لخارجية المملكة العربية السعودية « ان الاسلام هو من صلب العروبة وانه لا معنى للقومية العربية ، إلا لأنها نواة الأمة الإسلامية[٤٨] » .

وإن هذه النظرة الإسلامية السنية جعلت الرئيس السوري حافظ الأسد يهاجم بعض القائلين بها دون أن يسميهم إذ قال : « . . . وكأننا نقدم الدليل على أن القومية العربية ليست الرباط الصالح الذي يربط بيننا جميعاً بحيث نستطيع أن نعيش في ظل القومية العربية . عندما لا يستطيع العرب في لبنان أن يعيشوا معاً في دولة واحدة ، رغم مرور السنين الطويلة على هذا العيش المشترك ، فهذا دليل عملي ومادي يريدون تقديمه على بطلان فكرة القومية العربية . . . أكثر من هذا ، أريد أن أقول أن تقسيم لبنان يشكل ضربة كبرى للاسلام باعتباره دين الأكثرية الساحقة من الأمة العربية لأنهم يريدون أن يقدموا الاسلام في هذا العصر على أنه الدين المتزمت الذي يمنع أنصاره من العيش مع الآخرين حتى إذا كانوا من أبناء الأمة الواحدة . إن هذه مؤامرة على الإسلام ومؤامرة على المسلمين . . . ومؤامرة على العروبة ولصالح العدو ، لصالح الصهيونية ، لصالح اسرائيل . . . وطبعاً . . . لن يستطيعوا تحت اسم العروبة وتحت اسم الإسلام أن يضربوا العروبة ولن يضربوا الاسلام لأننا لهم بالمرصاد[٤٩] » .

---

٤٨ ـ سلسلة القضية اللبنانية ـ الحلقة ٢١ ـ ملاحظات حول مشروع ورقة عمل المؤتمر الاسلامي . نيسان ١٩٧٧ ص ١٩ ـ ٢١

٤٩ ـ من خطاب الرئيس السوري حافظ الأسد في ٢٠ تموز ١٩٧٦ تجد نصّه في الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١١٦ ـ ١١٨

غير أن الرئيس السوري ، في نظريته المحققة هذه ، والتي ملؤها المنطق ، يتناقض مع أحد أعمدة حزب البعث العربي الإشتراكي ، السيد ميشال عفلق الذي قال : « . . . ان العرب ينفردون دون سائر الأمم بهذه الخاصة . . . إن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية ، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة . . . وما دام الارتباط وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وما دمنا نرى في العروبة جسماً روحه الإسلام ، فلا مجال اذن للخوف من أن يشتط العرب في قوميتهم[50] » .

وفي مكان آخر ، يظهر الأستاذ عفلق أكثر وضوحاً حين يقول : « . . . إن أوروبا اليوم ، كما كانت في الماضي ، تخاف على نفسها من الإسلام . ولكنها تعلم الآن أن قوة الاسلام التي كانت في الماضي معبرة عن قوة العرب ، قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية . . .[51] » .

وقد تكون هذه الأيديولوجية من الشروط الأساسية التي مكنت حزب البعث من تسلم السلطة في سوريا ، فبطبيعة الحال ، ليس إسلام ميشال عفلق هو الذي دفعه الى دمج القومية العربية بالإسلام ، واتخاذ دور الداعية لـ « بعث قوة المسلمين . . . » .

ارتباط السنة بالخارج

وسواء تبعا لمفهوم القومية العربية أم لمفهوم الروابط الإسلامية ،

٥٠ ـ ميشال عفلق . في سبيل البعث . ص ٥٥
٥١ ـ المرجع السابق . ص ٥٧

فقد كان ارتباط السنة اللبنانيين بالخارج ارتباطاً شبه دائم « فمن زمان ، والزعامات الإسلامية في لبنان تستمد قوتها ، بل شرعيتها ، من مصادر تتخطى لبنان ، لا لمجرد أنها غير لبنانية ، بل لأن الزعامات الإسلامية الكبرى كانت تقع خارج لبنان . وآخر زعيم لبناني مسلم لم يلجأ إلى ذلك ، بل كانت عنده الطاقة على تحدي الزعامات العربية المنافسة ، هو رياض الصلح ، ذلك لأنه كان بدوره ، زعيماً عربياً قبل أن يصبح رئيس وزراء لبنان . بعد رياض الصلح ، وعبد الحميد كرامي ، بدأ الحج إلى دمشق ، فإلى قاهرة فاروق ، فإلى الرياض وبغداد ، فإلى زعامة عبد الناصر غير المنازعة ، تعطي الزعامة اللبنانية لمن تشاء وتأخذها منه ساعة تشاء . . . إلى أن أصبح اليوم الانتساب إلى المقاومة الفلسطينية هر القاعدة وا قياس[52] » وبهذا يصح القول أن « رئاسة الحكومة (في لبنان) ليست فقط مركز « مشاركة » في الحكم من داخل ، بل هي موئل المشاركة العربية[53] . . . » .

ويرى المسلمون السنة أن هذه « المشاركة » العربية الاسلامية في الحكم هي أمر طبيعي ـ انسجاماً مع نظرتهم الوحدوية العربية ـ الاسلامية ، بينما ينكرون على أي كان من غير المسلمين ، الحق بأي تدخل في الشؤون اللبنانية الرسمية أو غير الرسمية ، وهم يرون أن الدعمَ المادي والمعنوي لهم من قبل الدول العربية والاسلامية جائز لا بل واجب ، بينما يعدون نشاط الارساليات المسيحية الدينية والتربوية في لبنان تآمراً وتسلطاً على الاسلام والمسلمين .

٥٢ ـ غسان تويني . مسؤولية المشاركة ـ ٣ ـ جذور دينية وأبعاد نظرية . « النهار » ٧٣/٦/٧
٥٣ ـ غسان تويني . مسؤولية المشاركة ـ ٤ ـ الطائفية وشرعة لبنان الجديد « النهار » ٧٣/٦/٨

فبالنسبة للوجه الأول ، يستشهد سماحة مفتي المسلمين في لبنان بما « قاله الله تعالى في كتابه الكريم : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) جاء استشهاد سماحته خلال حفل استقبال في دار الفتوى بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٧٤ أقامه لسفير ليبيا في لبنان ، بمناسبة الإعلان عن قرض ليبي لدار الفتوى قيمته ثلاثة ملايين جنيه ليبي . . . لتنفيذ خطة التنمية الوقفية الهادفة الى تعزيز الرسالة الإسلامية . . . وأضاف سماحته :

« التعاون هو في النهاية طريق الوحدة لأنه يجمع بين الناس . . . على مبدأ واحد فيه رضى الله ، ألا وهو التقوى . . . إني إذ أحيي باسم مسلمي لبنان جميعاً هذه البادرة الاسلامية الأصيلة التي تجلت عند الأخ معمر القذافي . . أحب أن أشير الى أن مثل هذه البادرة لم تقتصر على مسلمي لبنان ، وإنما أصبحت لدى قيادة الثورة (الليبية) قاعدة مباركة ، يصل خيرها الى المسلمين في بقاع العالم . . .[٥٤] » .

هذا بالنسبة للوجه الأول ، أي أن يتلقى المسلمون الدعم المادي من قبل المسلمين في العالم ، وكان ذكر الواقعة السابقة على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، إذ يتعذر حصر ما يتلقاه المسلمون السنة في لبنان من دعم عربي وإسلامي . . . أما بالنسبة للوجه الثاني ، أي أن يتلقى غير المسلمين الدعم من الخارج ، فللمسلمين السنة موقف مغاير تماماً . ومن شأن بعض ما جاء في مذكرة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد لرابطة العالم الإسلامي ، أن يبرز شيئاً من جوانب هذا الموقف .

---

٥٤ ـ الشيخ حسن خالد . ص ٤٨

جاء في الرسالة : « نحن إذا نظرنا في أسباب قضية المسلمين في لبنان والتي جعلت منها بحق قضية لها خطورتها ، رأينا أن مجموعة من الوقائع الخطيرة تشترك كلها في تكوين مجمل هذه الأسباب التي تضع الإسلام والمسلمين في لبنان موضع التهديد المستمر ، بل موضع الهدف المحكوم بكل القوى المناهضة للإسلام والمسلمين ، عن طريق حروب إعلامية تشن ، أو حملات تبشيرية تنظم ، أو اضطهاد طائفي يستحكم ، أو حتى حملات إبادة عسكرية كانت تتدافع على المناطق الإسلامية خلال حرب السنتين . ونحن إذا نظرنا في مجمل هذه الوقائع الخطيرة ، التي كانت وما تزال تهدد وجود الاسلام والمسلمين ، فاننا نستطيع إرجاعها الى الوقائع التالية :

« الواقع التبشيري . والواقع التبشيري ليس جديداً في لبنان ، فهو واقع تاريخي بدأ مع ضعف الدولة العثمانية مما مهد السبيل أمام النشاط التبشيري الحار الذي أخذ طريقه في أوساط لبنان وسوريا عن طريق بعثات المبشرين الذين تدفق مجيئهم زرافات ووحداناً ، يخلطون بين مهمة الدين والسياسة ، بل كثيراً ما كانوا يظهرون بمظهر الدعاة المبشرين الدينيين ويعملون في الحقيقة لأغراض دولهم السياسية . وقد لحظ دهاقنة المبشرين النقص التعليمي في الشرق العربي ، وبخاصة في سوريا ولبنان ، فرأوا أن بمقدورهم استغلال هذه الظاهرة وذلك عن طريق فتح المدارس ابتداء من العام ١٨٢٥م . ثم بدأ انتشار المدارس في جبل لبنان على يد المبشرين الذين انشأوا فيما بعد الكلية السورية الانجيلية في بيروت وأطلق عليها بعد زمن اسم الجامعة الأميركية . وقد تألفت خلال سنة ١٨٥٥ م في بيروت لجنة خاصة من قنصلي أميركا وبريطانيا ومرسل انجيلي اسكوتلندي وممثل من المرسلين الأميركان مع

بعض من اللبنانيين المسيحيين حيث فتحت هذه اللجنة ست مدارس في بيروت . ومن يومها ازدادت حركة التبشير المسيحي بالتعاون بين لجان مؤلفة من مسيحيي لبنان ، وممثلين للدول الأجنبية المسيحية أهمها فرنسا وأميركا وايطاليا ، انتشرت على يديها ولغايات تبشيرية ، مؤسسات تعليمية واجتماعية وخيرية من كل نوع ، في جميع أنحاء لبنان ، وبذلت من أجلها المبالغ الطائلة التي كانت الدول تغدق بها على الإرساليات التبشيرية بلا حساب[٥٥] » .

ولم يقتصر تحريض المسلمين السنة اللبنانيين للمسلمين العرب وغير العرب على المسيحيين اللبنانيين على مثل هذه الإدعاءات ، بل تعداها الى اتهامات خطيرة ، تتناول الأخلاقيات بشكل تجريح سافر ، يندر أن يصدر عن مقام عال كمقام دار الإفتاء . إذ في الرسالة نفسها يقول سماحته : « . . . يتمسك بعض الساسة المسيحيين في لبنان بالنظام السياسي الحر غير المقيد بأي شرط تحت ستار حماية الحرية الانسانية في الظاهر ، ولكنهم كانوا وما زالوا يرمون من وراء ذلك الى إتاحة فرص التخريب ، أمام كل التيارات المناهضة للإسلام والمسلمين . فتحت ستار الحرية رخصوا للأحزاب الشيوعية واستقبلوا زعماءها القادمين من موسكو في رئاسة الجمهورية ، ورخصوا للماسونية بأنديتها المعروفة بأسماء مختلفة (الروتاري والليونز) وتركوا عملاء الصهيونية يعبثون فساداً في لبنان ويتعاونون معهم ، وأتاحوا لمذهب الوجودية والإباحية فرصاً لا تجدها حتى في بلادها ، فأصبحت دور السينما تعرض أفلام الجنس الداعرة بلا حسيب ولا رقيب ،

---

٥٥ ـ جريدة « اللواء » البيروتية في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٨ . وفي مجلة « الرعية الجديدة » العدد ١٤٥ (كانون الثاني ١٩٧٩)

وانتشرت بيوتات المنكرات والمحرمات في كل مكان ففسدت أخلاق الناشئة ، فانحرفوا وابتعدوا عن الدين ، مما سهل على حركات التنصير التقاطهم عن طريق الخدمات الإجتماعية التي تقدم لهم بشتى الوسائل[٥٦] » .

لقد رأى المسيحيون في هذه الاتهامات افتراء تخوفوا من مقاصده ، فهم يرون أن الواقع يشهد بأن المسيحيين ، السياسيين منهم ورجال الدين والأحزاب وأكثرية العامة الساحقة ، كانوا ضد الترخيص للأحزاب اليسارية التي تمسكت أكثرية المسلمين بالترخيص لها ، وذلك بقيادة كمال جنبلاط الذي ما أن تسلم مهام وزارة الداخلية حتى سارع بالترخيص لتلك الأحزاب ورفض إلغاء الترخيص فيما بعد رغم الضغوطات المسيحية ، متسلحاً بعدم المعارضة الإسلامية . كذلك فان استقبال السوفيات كان يجري في الأوساط الإسلامية ، الرسمية وغير الرسمية ، من قبل المسلمين أكثر منه في أوساط المسيحيين . كذلك الأمر بالنسبة للزيارات المتبادلة بين شخصيات سياسية لبنانية وسوفياتية . ولا يغيب عن المسيحيين أن وقائع الحرب اللبنانية تشهد بأن الشيوعيين والمسلمين السنة والمقاومة الفلسطينية كانوا جميعاً في خندق واحد ضد المسيحيين . أما بشأن نادبي الروتاري واللايونز ، فمن البعيد عن الأسرار أن شخصيات إسلامية سياسية كبرى، ليس الرئيس صائب سلام وحيدها، تنتسب الى أحد هذين الناديين وتعمل لهما ومع أعضائهما باخلاص وأخوة دون الترغيب المسيحي !! ويتساءل المسيحيون هنا عن الغاية من هذه

---

٥٦ ـ من مذكرة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد لرابطة العالم الإسلامي . المرجع السابق

الإتهامات التي تتناول الأخلاقيات بالنسبة لقضايا الجنس والمنكرات والمحرمات والصادرة عن مفتي الجمهورية اللبنانية الذي تتناقض أحاديثه العلنية مع مثل هذه المذكرات السرية تناقضاً كاملاً ، ويأخذ المسيحيون ، على سبيل المثال ، بعض ما جاء في كلمة سماحته عبر خطبة ألقاها في كانون الثاني من العام ١٩٧٥ في مركز السفارة البابوية حيث أقام السفير البابوي المونسينيور الفريدو برونييرا مأدبة على شرف مفتي الجمهورية إذ قال :

« يطرأ في كل بلد ، وفي كل زمن أحداث لا يمكن أن تعتمد معياراً لحكم العلاقات بين أبناء هذا الوطن ، فاذا حاول بعضهم أن يشوّهوا الصلات بين اللبنانيين ، وينسفوا مداميك الأخوة في الوطن الواحد ، فاننا لن نسمح بعد اليوم لأحد أن يزيف علاقاتنا ويشوش حقيقتها ، وأصالتها ، ويدخل فيما بين اللبنانيين للإساءة اليهم ، ولإفساد دعائم الأخوة وأصالتها ، التي لا تتزعزع ، فالأخوة والوحدة الوطنية والمحبة والمواطنية الصحيحة ، كل هذه اعتبارات ، إن لم نعش في ظلالها فلسنا المسلمين ، ولستم المسيحيين ، لذلك يجب أن يكون منطلقنا من هذه القواعد للحفاظ على كياننا كأبناء دين موحد يتطلعون الى عزة وسؤدد ولتجنب الطرق الشائكة . . . ولبنان بلد المحبة لأنه يحتوي المسلمين والمسيحيين الذين ينتمون الى دين موحد يحفزهم على المحبة ويدعوهم لأن يعيشوا في ظلالها متعاونين متحابين . ونحن كنا وسنبقى باذن الله نعمل في هذا الاطار لنعزز دعائم الوحدة الوطنية وهي حجر الزاوية في بناء لبنان[٥٧] » .

---

٥٧ ـ الشيخ حسن خالد . ص ٩٩

هذا الكلام الجميل الذي يبلغه سماحته الى الغرب والعالم المسيحي عبر دار السفارة البابوية ، يقابله كلام مناقض تماماً ، يبلغه الى العالم الإسلامي عبر مذكرته الى رابطة العالم الإسلامي حيث يقول :

« . . . إن القضية الإسلامية في لبنان ليست قضية مسلمي لبنان ، بل هي قضية المسلمين في شتى أنحاء العالم المسيحي والواقع الأيديولوجي التنصيري المعادي ، أيديولوجيا ، للعروبة وللإسلام ، والواقع السياسي الذي يتيح للتيارات الهدامة المناوئة للإسلام كل فرص ضرب الاسلام والمسلمين ، فينبغي أن يكون واضحاً أن المسلمين في لبنان هم في خط الدفاع الأول عن الإسلام والمسلمين العرب جميعاً في أخطر جبهة من جبهات المواجهة الحادة المتعددة القوى المعادية والتي لا تتوفر بأي حال من الأحوال ، والحمد لله ، في أي بلد عربي آخر ، ولقد تعود المسلمون أن يكونوا في دفاعهم وبمساعدات ضئيلة من أخوتهم المسلمين والعرب ، يواجهون هذه القوى المعادية على مختلف الجبهات على مستوى لا بأس به ، إلا أن اختراق هذا الدفاع من القوى التبشيرية والتنصيرية وامتدادها عن طريق إقامة بعض الكنائس في بعض من البلدان العربية ، وتحضير جيوش من الرهبان المعدين في لبنان أعداداً ثقافياً ، وباللغة العربية المناسبة للعمل في البلدان العربية وافريقيا ، إن ذلك كله يقتضي منا إمعان النظر في ضرورة الإنتقال فوراً من موقع الدفاع الى موقع الهجوم عملاً بالنظرية القائلة أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم ، وإننا لا نقصد هنا بالهجوم ، هجوماً نشنه على حركات التبشير في البلدان العربية وافريقيا فحسب ، لأننا بذلك نكون بصدد علاج النتائج من غير التطرق الى الأسباب ، إنما نقصد بالهجوم هنا والتصدي المباشر وفي أرض العدوان على الإسلام

بالذات ، نعني في لبنان ، خط المواجهة لكل التيارات المناوئة للإسلام وللغة والقرآن ، وذلك لن يكون إلا بتقوية أداة الإسلام الحقيقية في لبنان وهي مجموعة المسلمين في مؤسساتهم وتنظيماتهم الفاعلة ...[٥٨] » .

قد يكون في هذا الكلام الصادر عن أعلى سلطة إسلامية في لبنان والموجه الى كافة الدول التي تدين بالإسلام ، ما يبرر أمر تدخل بعض هذه الدول في الشؤون اللبنانية لمساندة المسلمين في « التصدي المباشر وفي أرض العدوان على الاسلام بالذات : لبنان » . ولم يعد من المستغرب أن يسرع رئيس وزراء ليبيا الرائد عبد السلام جلّود الى قمة عرمون ، ليجتمع بقيادة المسلمين في لبنان بتاريخ ١٧ أيار ١٩٧٦ وليقول : « هل أنتم قادرون على القتال ؟ إذا كنتم قادرين نحن معكم ، وإيصال الذخيرة نحن نتدبره ... المهم موقفكم ...[٥٩] » فكان جواب المفتي : « إن قدرتنا مستمدة من قدرة العرب ومن قدرة الفلسطينيين في آن معاً ، فاذا قالوا بأنهم قادرون على استمرار المعركة فنحن قادرون ... نحن أقوياء بكم وبالفلسطينيين ... هذا جوابي[٦٠] » .

وعندما سئل أحمد الخطيب ، قائد جيش لبنان العربي : « إنك متهم بأخذ المال من دول عربية لتتصرف على النحو الذي يزيد المأساة في لبنان اشتعالاً . لقد شاهدك الكثيرون على شاشة التلفزيون خلال

٥٨ـ من مذكرة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد لرابطة العالم الاسلامي . المرجع السابق .

٥٩ ـ الشيخ حسن خالد . ص ٢٨٤

٦٠ ـ المرجع السابق . ص ٢٨٣

١٩٧٦ تخطب في جنود جيش لبنان العربي على أرض الجنوب وتعترف باعانات مالية من بلدين عربيين ... » أجاب : « ... ليست المساعدة المالية كما تظنون . لقد كانت محدودة ، وكنا نحتاجها لنسدد رواتب الجنود ، لا لنزيد الأزمة اشتعالاً » وقال : « من حيث المصدر الذي كان يمدنا بالمال ، فأقول أنه من خلال منطلقي القومي ... الدول العربية بلاد شقيقة وشريكة في المصير القومي الواحد[٦١] » .

ويتساءل المسيحيون : أفليس من الطبيعي أن تساعد الدول العربية والإسلامية أحمد الخطيب العسكري اللبناني الثائر من منطلقات قومية وإسلامية بعد كل ما تلقته تلك الدول من أمثال ما ورد من سماحته وغيره من الزعماء المسلمين ؟ .

خلاصة فصل السنة

من مجمل ما تقدم ، يتضح أن الستراتيجية السنية في لبنان تختصر بأن المسلمين السنة اللبنانيين لا يعتبرون لبنان وطناً نهائياً ، وليس بوسعهم ، تبعاً لمفاهيمهم الدينية ، أن يعتبروه كذلك إلا إذا تحول الحكم فيه الى حكم إسلامي ، حيث يكون دين الدولة الإسلام والحاكم مسلماً ، وهم يعملون لتحقيق هذه الغاية بجميع الوسائل ، مستفيدين من الوجود الفلسطيني المسلح على أرض لبنان ، ومن

٦١ - راجع « الحوادث » العدد ١١٦٩ الجمعة ٣٠/٢/١٩٧٩ ص ٦٩

التعاطف الإسلامي في الدول العربية والإسلامية . وهم يعملون في الوقت نفسه على الإلتحاق بسوريا ، على اعتبار انها دولة عربية ذات أكثرية سنية ، وانسجاماً مع مبدأ القومية العربية التي لا يمكن فصلها ، برأيهم ، عن الإسلام ، والتي تشكل بالنسبة لهم ، قومية إسلامية . وهم ، في الواقع ، يرفضون التقسيم واللامركزية ، وإذا أصرت بقية الطوائف على مثل هذه المطالب ، فهم يهددون بالانضمام الى سوريا . وهم كذلك يرفضون العلمنة كحل ، وجل ما يرضون به ، كحل مرحلي ، إلغاء الطائفية السياسية ، إلا أن هذا الحل ، لا يتصف بغير « المرحلية » إذ سيكملون الصراع بمختلف الوسائل حتى يحققوا أهدافهم الأساسية .

***

الفصل الثاني

المسيحيون

لا مشكلة بين الدين والدولة

المشكلة التي يحدثها الدين الإسلامي بالنسبة لعلاقة الدين بالدولة ، هي في الواقع غير موجودة في المسيحية ، كون « المسيحية دين وحسب ، فالمسيح وضع أساس الفصل بين الدين والدولة : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله »[1] وانفصال الدين عن الدولة ، أدى بالتالي الى انفصال الدين عن السياسة في الأزمنة الحديثة . وقد بلغ استقلال الدين المسيحي عن السياسة درجة أصبح فيها من الممكن ، كما أعلن روجه غاروديه ، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي سابقاً ، أن « يكون المرء مسيحياً وماركسياً أو ماركسياً ومسيحياً في الوقت ذاته » بل لا اعتراض لديه في أن يصل أحد المؤمنين المسيحيين الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . وقد بتنا كثيراً نسمع عن « اليسار الكاثوليكي » أو « اليسار المسيحي » بشكل عام ، وفي السنوات القليلة الماضية لعب اليسار المسيحي دوراً كبيراً في الإطار

---

١ ـ المطران بول باسيم . أسقف اللاتين في بيروت . في مذكرته الى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الإسلامي . تموز ١٩٧٨ .

النظري والإجتماعي في الغرب . . . فصار مألوفاً أن نسمع عن حوار ماركسي ، مسيحي مثلاً ، وصار مألوفاً أن نسمع عن توصيات مشتركة ، وعن مواقف مشتركة تجاه قضايا كثيرة من قضايا العالم[2] ، وقد التزم مسيحيو لبنان ، من موارنة وغير موارنة ، بهذا التطور الطبيعي ، ومن مواقف الشيخ بيار الجميل الشهيرة ما جاء في رسالته التي وجهها الى المسلمين في ٢٤ تموز من العام ١٩٧٦ : « . . . إن حدود الأوطان لم تكتب في الانجيل والقرآن . . . وليس من حق المسيحيين والمسلمين أن يختلفوا بسبب الله ، بل من واجباتهم أن يتحدوا معه ، بوصفه إله البشر جميعاً ، وبوصفه ، قبل أن يزج البشر باسمه في صراعاتهم على الأرض ، الخير المطلق والجمال المطلق ، والمحبة المطلقة[3] » .

والمجمع الفاتيكاني الثاني ، في بيانه عن علاقات الكنيسة بالديانات غير المسيحية قد فتح الطريق لحوار بين المسيحية والديانات الأخرى ، وذلك من منطلق التأكيد على أن جميع الشعوب تشكل مجتمعاً شمولياً واحداً نظراً لأصلها الأساسي الواحد ولنهايتها المشتركة ، ومن منطلق التأكيد على الرابط الوثيق القائم بين صلة الانسان بالله الآب ، وصلته باخوانه في الإنسانية . فالروح المسيحية ، تنبذ كل تمييز في التعامل بين الناس ، بالإستناد الى عرقهم أو لونهم أو دينهم أو مستواهم الإجتماعي .

في رسالة وجهها الى الفاتيكان بمناسبة الحوار الإسلامي المسيحي ، يقول أحد كبار رجال الدين المسيحيين في لبنان : « اليوم

٢ ـ « الحوادث » العدد ٩٥٩ الجمعة ٢٨ آذار ١٩٧٥ ص ٧٦

٣ ـ سلسلة « القضية اللبنانية » الحلقة ١٤ ـ آب ١٩٧٦ ـ صفحة ٢ ـ٣

أكثر من الماضي ، يبدو العالم متجهاً نحو الإتحاد . ففي كل مكان من العالم ، تلاحظ المحاولات التي تبدو جدّية ، في هذا المجال ، والتي قد تتمخض عن نتائج مرضية لكل الأطراف الساعية لهذا الهدف . فالجميع يطرئون على الحوار ، ويرغبون في التلاقي . وان المجاهرة برفض التجزئة ، والحواجز الفاصلة بين البشر لاعتبارات دينية أو اجتماعية ، أو لونية ، أو عرقية ، أصبحت واهية ، فأناس القرن العشرين يرغبون في تقدير وإبراز كل ما هو مشترك بين البشر ، وكل ما من شأنه أن يوحد فيما بينهم ، والتعتيم على كل ما من شأنه أن يفرق وأن يضع الفواصل . والدعوة الى الحوار تتردد بقوة أينما كان ، وتلاقي أصداء مشجعة . والتلاقي يتضاعف في العالم قاطبة بين المسيحيين ، بين المؤمنين ، بين البشر . . . والأدب المسكوني يلاقي خصوبة وازدهاراً كما لم يكن متوقعاً . وبالإستناد الى بيان المونسينيور روشانو ، أمين عام « الأمانة العامة الروحانية لغير المسيحيين » إن البحث جار عن « انسانية مشتركة » . هذه الرغبة في الحوار ترتدي أهمية خاصة في منطقتنا : الشرق الأوسط ، حيث العلاقات بين المجتمعين ، المسيحي والمسلم ، قائمة منذ عصور عدة ، منذ ظهور الإسلام . . . ففي الواقع ، بوسع الجميع إدراك أن المسيحية والإسلام قد ولدا في الشرق الأوسط ، وهكذا ، يكون المجتمعان ، المسيحي والمسلم متساويين في أصالتهما الشرقية . ويكون من مصلحة المسيحية الشرقية ، بل من ضرورياتها ، أن تكون رائدة حوار مع الإسلام[4] » .

هذا الواقع الأيديولوجي المسيحي ، لم يتمكن من الثبات في

٤ ـ المطران بول باسيم

لبنان ، بسبب تعارض الشرع الإسلامي معه ، مما خلق واقعاً خطراً بالنسبة للمسيحيين الذين وجدوا أصلاً في لبنان ، بحكم هروبهم من حكم الأكثرية المسلمة إن في سوريا أو سواها من البلدان الإسلامية ، وخاصة العربية ، التي يشكل فيها المسيحيون أقليات غير قادرة على المطالبة بحقوقها ، تتعرض جماعاتها لمقاييس تمييزية . وإذا كانت قوانين الشرع الإسلامي ، كدفع الجزية والتعرض للإذلال لا تطبق قانونياً بحق تلك الأقليات ، فان العوائد المتبعة من قبل الهيئات الرسمية ، جرت بأن يكلف هؤلاء المسيحيون ، بشكل أو بآخر ، دفع ما يوجبه الدين الإسلامي كلما مكن الظرف السلطات من ذلك .

وضع المسيحيين في البلدان العربية

وفيما يلي لمحة سريعة عن وضع المسيحيين في البلدان العربية .

في مصر ، وهي أكثر البلدان العربية عدداً (٣٦,٤١٧,٠٠٠ نسمة) يبقى عدد المسيحيين من « أسرار الدولة » فمنذ بداية هذا القرن ، تذكر التقارير الرسمية أن عددهم لا يتجاوز المليوني نسمة ، بينما يقول بطريرك الأقباط « شنودة[5] » أن عدد المسيحيين الأقباط وحدهم في مصر ، هو ثمانية ملايين نسمة .

---

٥ ـ شنودة الثالث . بطريرك الأقباط الأرثوذكس ١١٧ . ولد في مركز أنبوب في محافظة أسيوط المصرية سنة ١٩٢٣ . تخرج من الكلية الاكليرية عام ١٩٤٩ ، ثم درّس فيها . ترهب في دير السريان عام ١٩٥٤ . أسقف التعليم الكنسي عام ١٩٦٤ . بطريرك عام ١٩٧١ . له مؤلفات روحية عديدة .

يعامل مسيحيو مصر اجتماعياً ، بمنطق القرآن ، بحيث تطبق عليهم الأعراف الإسلامية ، فتمنع المسلمة من الزواج من مسيحي ، بينما للمسلم الحق بأن يتزوج من مسيحية ، تخضع في أكثر الأحيان مرغمة لاعتناق الدين الإسلامي . بينما في حال إقدام مسلمة على اعتناق المسيحية بهدف الزواج من مسيحي ، يحكم عليها بالإعدام . ثم ان المسيحية المتزوجة من مسلم ، في حال عدم اعتناقها الإسلام ، يكون الأولاد مسلمين حكماً ، وفي حال وفاة الزوج أو في حال الطلاق ، لا يكون للمرأة أي حق لا في الأولاد ولا في الإرث .

وهنالك ، إضافة الى هذه المعاملة الاجتماعية الجائرة وسواها ، المعاملة السياسية التي من شأن الأرقام أن تبين بالدلالة الواضحة الحرمان المجحف الذي يعانيه المسيحيون في مصر .

فمن أصل ٣٦٠ نائباً في « مجلس الشعب » هناك ٨٠ مسيحياً فقط .

وفي الجيش المصري ، ألف جنرال ، بينهم ثلاثة مسيحيين .

ومن أصل مائة سفير ، لا يتجاوز عدد السفراء المسيحيين الثلاثة ، وهم يمارسون مهامهم في عواصم صغرى .

وعلى صعيد الإعلام الرسمي ، فان المسيحيين ، بالقياس الى المسلمين ، محرومون أيضاً ، كون هذا الإعلام لا يعير النشاطات الدينية المسيحية أي اهتمام يذكر .

ومنذ العام ١٩٧٥ تخصص الدولة مبالغ كبيرة من المال لمدارس المسلمين ، المهيأة حصراً لتعليم الأولاد المسلمين دون سواهم ، ولا

يحق للمسيحيين الافادة من هذه المعطيات .

كذلك منذ العام ١٩٧٥ ، أصبح محظراً على المسيحيين أن يمارسوا تعليم اللغة العربية والأدب العربي والفلسفة العربية ، وتبقى هذه القطاعات من حق المسلمين دون سواهم ، علماً بأن هذا القرار لم يتخذ بموجب قانون تشريعي ، إنما عمم على القطاعات التعليمية بمذكرة ، وهو ينفذ بواسطة المفتشين التربويين الرسميين . وفي حال الإبقاء على بعض المدرسين القدامى في هذه المجالات ، فانه بات محظراً قبول الجدد منهم .

ومن الطريف أن مسيحياً في مصر ، لا يمكنه ، قانونياً ، ممارسة الطب النسائي . هذا التحظير يطبق منذ عشر سنوات .

وفيما يحق لأي كان في مصر أن يشيد مسجداً ، يخضع تشييد الكنيسة لإذن خاص من السلطات الرسمية ، وتجتهد مكاتب السلطات من أجل إحباط كل محاولة تشييد كنيسة ، أو تأخيرها في أفضل الأحوال . وكلما شيدت كنيسة ، سرعان ما شيد مسجد بقربها ، يطغي على مظهرها من جهة ، ومن جهة ثانية يجعلها عرضة للإقفال ، بحيث أن القانون يسمح باقفال الكنيسة التي بقرب جامع ، إذ من شأنها أن تمس الشعور الديني للمسلم[٦] . . .

* * *

المملكة العربية السعودية (٨,١٧٥,٠٠٠ نسمة) هي البلد العربي البالغ التمييز . ففي أراضي المملكة تقع الأماكن المقدسة الإسلامية (السنية) .

في السعودية ، تطبق قوانين الزواج المستمدة من الإسلام ، كما في مصر . ثم إن كل من يحمل الجنسية السعودية ، يجب أن يكون مسلماً بالضرورة ، بمعنى أنه ليس بوسع المسيحي أن ينال الجنسية السعودية قبل أن يشهر إسلامه . ثم إن دخول المدينتين المسلمتين المقدستين : مكة والمدينة ، محظر تماماً على غير المسلمين ، تحت طائلة الإعدام بالرجم أو بسواه ، كما أنه محظر دفن غير المسلم في الأراضي السعودية ، وذلك باعتبار أن جثته تدنس الأرض .

أما التبشير فممنوع منعاً باتاً في العربية السعودية ، وإن القداديس والصلوات يجب أن تقام في أماكن لا يرتادها سوى المسيحي ، وبمعزل ، وبعيداً عن الشعب السعودي ، علماً بأن حوالي ٢٥ ألف كاثوليكي يعملون في المملكة ، وأن الخدمات الكنسية لهؤلاء تمارس بمعزل عن الشعب السعودي ، وبعيداً عنه ، من قبل كهنة موظفين في بعض الشركات الأجنبية العاملة هناك ، أو لدى بعض البعثات الدبلوماسية .

وحتى العام ١٩٧٧ كان هناك قانون مطبق من قبل السلطات الرسمية ، يقضي بأن يغرم السائق الذي يصدم مسلماً فيقتله ، بمبلغ ٢٧ ألف ريال ، أما إذا كان المصدوم القتيل « كلباً أو مسيحياً » فيغرم السائق بسبع ريالات . إلا أن هذا القانون قد عدل في العام ١٩٧٧ بسبب أنظمة شركات التأمين .

في القطاع المدرسي ، ليس بوسع الطالب المسيحي أن يرتاد مدرسة سعودية رسمية . وبناء الكنائس محرم تماماً في المملكة .

وخلال رمضان ، يتعرض المسيحي للضرب الفوري في حال

ضبطه وهو يأكل أو يدخن أو يشرب أثناء ساعات الصوم .

وفي أوقات الصلوات الخمس اليومية ، على أي كان ، حتى ولو لم يكن مسلماً ، أن يقفل متجره أو مكتبه تحت طائلة عقوبة الجلد .

أما إذا بدل السعودي انتماءه الديني ، فانه يعدم فوراً[6] . »

* * *

في الكويت (٩٢٩,٠٠٠ نسمة) ينص الدستور على أن « الشعب الكويتي هو جزء من الوطن العربي والإسلام دين الدولة[7] . » قوانين الأحوال الشخصية فيها محصورة بالأحكام القرآنية . أحكام الزواج خاضعة للاعتبارات نفسها المتبعة في مصر والسعودية . أما بالنسبة للحياة المدرسية ، فيلاقي الطالب المسيحي صعوبة كبرى في الدخول الى المدارس الرسمية حيث يكاد يكون تسجيل الطالب المسيحي أمراً مستحيلاً . كما يمنع إعطاء الدروس الدينية المسيحية ، حتى في المدارس المسيحية ، بينما يتوجب إعطاء الدروس الدينية الإسلامية للطلاب المسلمين . وفي حين تساعد المدارس الإسلامية الخاصة بكرم فائق من قبل الدولة ، فان المدارس المسيحية لا تلاقي أية مساعدات ، وذلك في هدف إحراجها من أجل إنهاء خدماتها . والتمييز بين المدارس المسلمة والمدارس المسيحية تمييز واضح ...

---

٦ ـ المطران بول باسيم .

H. et P. WILLEMART.

٧ ـ Dossier de Moyen-Orient Arabe. Ed' MARABOUT. (Belgique 1969) P.149

ومؤخراً ، عيّنت وزارة التربية مدراء ومديرات مسلمين للمدارس المسيحية ، في هدف مراقبة نشاطاتها ، خاصة بالنسبة للمواد الدينية . تجدر الإشارة الى أنه في حال توصل المفتشين الى مصادفة كتاب ديني (إنجيل أو تعليم مسيحي) بيد طالب مسيحي ، تحدث فضيحة ، وتهدد المدرسة بالإقفال ، وتوجه للمدرسة المسيحية تهمة « نية التبشير » .

أما في الحقل الاجتماعي وفي الحقل الإعلامي ، فالتمييز ليس أقل شأناً من الحقل التربوي . إذ هنا أيضاً يحظّر على المسيحي تحظيراً مشدداً أن يأكل أو أن يشرب أو يدخن خلال ساعات الصوم .

وبينما تظهر في الصحافة تهجمات على المسيحية تتناول معتقداتها وأسسها ، تمنع النشرات المسيحية ، ويمنع نشر أي انتقاد للإسلام .

عدد المسيحيين العاملين في الكويت لا بأس به ، مما يجعل الحاجة ماسة الى كنيسة بغية الإعتناء بأمورهم الروحية ، إلاّ أن رفض الحكومة السماح ببناء كنيسة في الكويت أصبح أمراً مفروغاً منه ، وذلك بحجة واحدة : الكويت بلد إسلامي[6] .

* * *

العراق (١٠,٧٦٥,٠٠٠ نسمة) مبدئياً بلد اشتراكي علماني ، يحكمه حزب البعث ، إنما عملياً ، وعلى الصعيد الواقعي ، فهو بلد إسلامي كسائر البلدان الإسلامية الشرق أوسطية . فقوانين الأحوال الشخصية تكاد تكون مطابقة للأحكام القرآنية .

بالنسبة للزواج ، إذا كان الفريقان ، أو أحدهما ، من المسلمين ، تحتم إجراء الزواج أمام المحاكم الروحية الإسلامية . بينما

زواج المسيحيين ، يتم أمام المحاكم المدنية . هنا تقتصر العلمنة على المسيحيين . أما في حالة الطلاق أو الإنفصال ، فتطبق القوانين الإسلامية .

بالنسبة للأولاد ، فان المولودين من زواج مشترك (مسيحي إسلامي) هم حكماً مسلمون .

هنا أيضاً ، ليس بوسع المرأة المسلمة أن تتزوج من رجل مسيحي ، بينما يحق للمسلم أن يتزوج من مسيحية ، في هذه الحالة ، لا يحق للمرأة أن تطالب بميراث أو بأية حقوق في الأولاد في حال الطلاق أو الترمل .

وفي العام ١٩٦٠ ، صدر في العراق قانون رسمي يمنع المسلم من التحول الى الدين المسيحي .

إلا أن وضع التعليم هنا ، يتبع وضعية أكثرية الطلاب حسب انتمائهم الديني في كل مدرسة على حدة ، ونظراً لكون الطلاب المسيحيين يشكلون أقلية في جميع المدارس ، فان التعليم الديني ، على الصعيد العملي ، يقتصر على التعليم الإسلامي ، ويحرم الطلاب المسيحيون من التعليم المسيحي . ليس هذا وحسب ، إنما القانون يقضي بألاّ يقصد الطالب سوى مدرسة الحي الذي يقطنه ، والمقصود من ذلك ، عدم السماح بأن يشكل الطلاب المسيحيون أكثرية في أي من المدارس ، كما كان يحصل أحياناً قبل إصدار القانون المشار اليه .

وهكذا ، فبالرغم من « تقدمية » الحكم العراقي واشتراكيته ، فان المسيحيين في العراق محرومون من حقوقهم البديهية[٧] . وقد كان

يبلغ عددهم حسب إحصاء ١٩٦٥ حوالي ٢٠٠ ألف نسمة[٨] .

* * *

أما وضع المسيحيين في سوريا ، فانه يتميز بعض الشيء عن سائر البلدان العربية الأخرى . رغم أن الدستور ينص على أن دين الدولة الإسلام . وحسب إحصاء ١٩٦٠ ، كان يبلغ عدد المسيحيين في سوريا حوالي ٦٢٧ ألف نسمة ، حسب التقسيم التالي :

أرمن ١٢٠ ألفاً ، سريان ٢٠ ألفاً ، روم أورثوذوكس ١٨٠ ألفاً ، أرمن غريغوريون ١٢٠ ألفاً . سريان أرثوذوكس ٥٣ ألفاً ، نساطرة ١٢ ألفاً ، بروتستنت ١٤ ألفاً ، روم كاثوليك ٥٨ ألفاً ، سريان كاثوليك ٢٠ ألفاً ، موارنة ١٧ ألفاً ، كلدان ٦ آلاف ، لاتين ٧ آلاف .

ويفيد الإحصاء نفسه عن أن العدد الإجمالي للسكان كان ٤,٥٢٦,٥٠٠ نسمة ، منهم ٢,٨٠٠٠,٠٠٠ سني ، إضافة الى ٢١٠ آلاف كردي سنّي ، وهنالك ٣٠٠ ألف بدوي ، و٤٠ ألف إسماعيلي ، و١٥٠ ألف شيعي و١٢٠ ألف درزي . وعدد العلويين في سوريا بموجب هذا الإحصاء بلغ ٤١٠ آلاف نسمة[٩] .

وقبل الإنتهاء من التحدث عن أوضاع المسيحيين في الشرق الإسلامي عامة ، لا بد من وضع إطار عام لأصول هذا الوضع الشاذ ، بالنسبة لبداهة حقوق الإنسان .

---

٨ ـ المرجع السابق ص ٧٧

٩ ـ المرجع السابق ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ .

المسيحيون ، يعتبرون في الشرع الإسلامي ، من « أهل الذمة » وفي أحكام أهل الذمة : « إقفال باب الوظائف في وجههم عملاً بالحديث النبوي القائل : « إنّا لا نستعين بمشرك » - أحكام ٢٠٨ - ٢٠٩ - وعدم مصادقتهم عملاً بالآية التي تقول : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فانه منهم » - القرآن ٥/ ٥٦ - وعدم مشاركتهم في تجارة لأن « مشاركتهم سبب لمخالطتهم وذلك يجر الى مودتهم » - أحكام ٢٧٣ - « وإن فعلوا فالبيع والشراء يليهما مسلم » - أحكام ٤٠٥ - ح١ - كما أنه لا يحق له أن يستأجر مسلماً لخدمته - أحكام ٢٩٦ - ٢٩٧ - أو أن يرسل لحيته - الشروط - ٨٨ - أو أن ينتعل نعلاً شبيهاً بنعال المسلمين - الشروط ٩٠ - ٩١ - أو أن يفرق شعره - الشروط - ٩١ -

وليس للنصارى أن يأتوا الى الكنيسة مجتمعين ، بل عليهم أن يتسللوا اليها لوذا ، أي مستترين - الشروط ٦٥ - كما أن المسلم لا يبدأهم بالسلام عملاً بالحديث النبوي القائل « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم الى أضيقه » أحكام ٢٩٢ - ذلك أن « عقد الذمة اقتضى أن يكونوا تحت الذلة والقهر ، وأن يكون المسلمون هم الغالبين عليهم » - أحكام - ٧٨٩ -

وقد اعتبر حكام المسلمين في كل زمن وصقع أن من واجبهم معاملة النصارى القاطنين في ديارهم على أساس هذه الشروط . . . وفي العام ١٨٥٦ ثار المسلمون في سوريا على الدولة العثمانية لأنها أصدرت قانوناً يساوي بين المسيحيين والمسلمين في الإمبراطورية ، فاعتبروه باطلاً لأنه يتناقض مع الدين ، واصلوا بسبب ذلك دم

النصارى وباشروا إبادتهم[١٠] .

في أي حال ، فان المسيحية والإسلام دينان ولدا في الشرق الأوسط ، مما يجعل المجتمعين المسيحي والمسلم متساويين في أصالتهما الشرقية . إلا أن المسيحيين في هذا الجزء من العالم ، يلاحظون بكل مرارة أن انتشار الدين الإسلامي قد جاء على حساب مسيحية كانت قائمة من قبل . ومن شأن إحدى الظواهر أن يكون لها الدلالة الكافية على هذا الموضوع ، ألا وهي أن المساجد الكبرى في مدن الشرق الرئيسية ، لم تكن في الماضي سوى كنائس حوّلها الإسلام الى جوامع ، كما في تركيا ونيقوسيا وبيروت ودمشق وسواها . . .

هذه الأوضاع الخاصة التي يعيشها المسيحيون في الشرق الأوسط عبر تاريخ مديد تلا الفتح الاسلامي وتوسعه ، جعلت المسيحيين في لبنان يتمسكون باستقلال بلدهم عن العروبة ، وببعض الإمتيازات التي من شأنها المساعدة في درء الخطر المتربص .

إنه خطر فقدان الكيان ، وفقدان الحقوق الانسانية البديهية . ولقد عانى المسيحيون اللبنانيون منذ ظهور الإسلام ، الأمرّين في سبيل المحافظة على ذلك الكيان وتلك الحقوق . . . وتمكنوا ، بالبذل والصلابة والقتال وتفتيت الصخر واقتناص العيش القاسي ومعاناة شتى الصعاب ، عبر عصور قاسية طويلة ، من حفظ كيانهم وحقوقهم ، عندما كانت حقوق الانسان لا تزال متأرجحة بين مفاهيم الحق ومفاهيم القوة . . . فكيف بهم اليوم وقد أضحى من الشرع

١٠ - سلسلة « القضية اللبنانية » . الحلقة الأولى . « لبنان الكبير ، مأساة قرن » - ١٩٧٦ - ص ١٢

العالمي أن يكون للانسان حقوقه؟

إلاّ أن الشرائع . . . حتى وإن كانت عالمية ، ويكاد المراقب يقول : خاصة متى كانت منبثقة عن الأمم المتحدة . . . ما زالت تبدو وكأنها ذات وجهين : وجه نظري ووجه عملي . . . مما يجعل في الواقع حقوق الإنسان مبنية على موقع ذلك الإنسان بالنسبة لاعتبارات عدة . . . وكثيراً ما يدفع انسان ثمن حقوق انسان آخر ، موقعاً استراتيجياً أو موقفاً سياسياً ، أو أي شيء آخر ، حتى وإن كان ذلك الشيء مستقبل شعب وحاضره وماضيه وأمانيه ودم أبرياء . . .

ذلك ما دفع منه ، في نهاية القرن العشرين ، الانسان المسيحي في لبنان .

المسيحية في لبنان

كانت صور أول مدينة فينيقية قامت فيها جالية مسيحية . يقول لنا بولس الرسول أنه عندما رجع من بلاد اليونان لزيارة أورشليم ، وكانت آخر زيارة له ، عرج على صور ، فوجد فيها كنيسة تضم أعضاء من رجال ونساء وأولاد . وقد أقام بينهم سبعة أيام ، وقد حذره مسيحيو صور من الذهاب الى أورشليم لأنهم كانوا يوجسون خيفة عليه ، فتضرعوا اليه أن يظل عندهم ، وعندما شيعوه الى الشاطىء ليستقل السفينة ركعوا على الرمال وصلوا من أجله[11] . ثم إن بولس الرسول عرّج ، وهو في طريقه جنوباً ، على مدينة عكا حيث

١١ ـ سفر الأعمال ٢١ : ٤ ـ٦ .

استقبلته الجالية المسيحية [12] . وعندما قفل راجعاً الى رومة عرّج على صيدا حيث كان هنالك كنيسة وجالية مسيحية « ليحصل على عناية منهم[13] » . كان ذلك عند منتصف القرن الأول الميلادي . وعند منصرم القرن الثاني أصبحت الجالية المسيحية في صور من الكثرة والقوّة بحيث أنه أنشىء في المدينة كرسي لمطران ، وأصبح لهذه المطرانية بعد قليل من الزمن أربع عشرة أسقفية . وفي كنيستها (كنيسة صور) دفن أحد آباء الكنيسة المشهورين (أوريغونس)[14] الذي كان يرأس مدرسة الإسكندرية التي كانت تعني بتعليم العقيدة المسيحية قبل أن تنتقل الى قيسارية . . . . وفي مدينة صور ، التي كانت كنيستها أكبر وأجمل كنيسة في جميع فينيقية ، عقد مجمع كنسي عام ٣٣٥ ، حكم بالهرطقة على اثناسيوس مطران الاسكندرية[15] .

وكان المسيح ذاته قد زار « نواحي صور وصيدا »[16] اللتين ورد اسمهما معاً عشر مرات في العهد الجديد . وعلى كتف صيدا في بلدة مغدوشة ، كنيسة « سيدة المنطرة » القائمة بقرب كهف قديم . وقد سميت « المنطرة »[17] استمراراً مع التقليد القائل بأن السيدة مريم العذراء قد انتطرت هناك ولدها يسوع عندما زار صيدا .

١٢ ـ سفر الأعمال ٢١ : ٧ .

١٣ ـ سفر الأعمال ٢٧ : ٣ .

١٤ ـ أوريغون أو أوريجينس ORIGENES (١٨٥ ـ ٢٥٣) ولد في الاسكندرية وأصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتية ومن نوابغ الفكر البشري . ترك آثاراً واسعة في اللاهوت وشرح الأسفار المقدسة ، تطرّف في بعض تعليماته .

١٥ ـ الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ . فرنكلين للطباعة والنشر . (بيروت ١٩٥٩) ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

١٦ ـ متى ١٥ : ٢١ ـ ٢٨ مرقس ٧ : ٢٤ ـ ٣١ .

١٧ ـ « المنطرة » كلمة سريانية تعني « مكان الانتظار » ولا تزال محكية في لبنان .

وفي أوائل القرن الرابع أصبحت صيدا مقراً أسقفياً[18] بعد صور ، يثبّت ذلك ذكر لـ « مطران صيدا » في لائحة الأساقفة الذين حضروا المجمع الكنسي المسكوني الذي عقد في نيقيا[19] عام ٣٢٥م .

أما بيروت فأصبحت مسيحية في منتصف القرن الرابع ، وفي عام ٣٤٩ ، حدث فيها زلزال عظيم أنزل بها الخراب ، فشعر بعض السكان من الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد ، انها غضبة من السماء حلت بهم ، فرجعوا عن وثنيتهم واعتنقوا الدين المسيحي . . . وعند مستهل القرن الخامس . . . كان لبنان قد تنصّر[20] .

واستمر لبنان بجميع مدنه القديمة ، مسيحياً الى أن جاء الزحف الإسلامي ، ففتح أبو عبيدة عام ٦٣٥ أول مدينة لبنانية كبرى : بعلبك ، وكتب الى أهلها عهداً فيما يلي نصه : « باسم الله الرحمن الرحيم . هذا الكتاب أمان لفلان ابن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرجائهم . وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة ، فاذا مضى شهر ربيع وجمادي الأول ساروا الى حيث شاؤوا ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا

١٨ ـ الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ . ص ٢٥٦

١٩ ـ نيقيا NIKAIA : مدينة قديمة في آسيا الصغرى . عقد فيها مجمعان مسكونيان . الأول عام ٣٢٥ وأعلن « قانون الايمان » والثاني سنة ٧٨٧ حرم محاربي صور . وأصبحت عاصمة الامبراطورية البيزنطية ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ . واسمها اليوم أزنيق .

٢٠ ـ راجع : الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ . ص ٢٦١

عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . وشهد الله وكفى بالله شهيداً »[21] .

وبعد بعلبك ، توالى سقوط سائر المدن اللبنانية ، فتم للمسلمين فتح بيروت عام ٦٣٥ ، وصور وصيدا وجبيل عام ٦٣٦[22] ، ومن ثم سقطت طرابلس بعد حصار شديد .

منذ ذلك الحين ، هجر المسيحيون المدن الساحلية قاصدين الجبل ، وراح المسلمون يستقدمون جالياتهم من مختلف المناطق ، فيحتل هؤلاء مساكن من أرغموا على الفرار ، وفي العام ٦٦٣ جاء معاوية بجاليات من الفرس وأسكنها صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس[23] .

بحكم هذا الواقع ، راحت تتكون في جبال لبنان القوة المسيحية . ومنذ تلك الحقبة ، تحولت تلك الجبال الى « معقل آمن للأقليات وللطوائف المذهبية . . . وقامت الطائفة المارونية التي لا تزال الطائفة القوية السائدة في شمال لبنان ، والتي تؤلف أكبر وحدة مسيحية موحدة متراصة . ومنذ ذلك الوقت يبدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم »[24] .

بين الفتح الإسلامي في العام ٦٣٥ ونهاية عهد الإمبراطورية العثمانية بنهاية الحرب العالمية الأولى ، توالت على لبنان ألوان من

٢١ ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، (ليون ١٨٦٦) ص ٥٩ .

٢٢ ـ البلادري . ص : ١٢٦ .

٢٣ ـ اليعقوبي : كتاب البلدان (ليون ١٨٩٢) ص ٣٢٧ .

٢٤ ـ الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ . ص ٣٠٠

العهود الإسلامية . وكانت أحوال المسيحيين في صراع دائم من أجل البقاء . واستمرت جباله عبر مختلف تلك العهود ، تستقبل المسيحيين النازحين من بلدان الجوار حتى غدا لبنان الجبل تلك « الجزيرة المسيحية في بحر الإسلام » وكان من الطبيعي على أهله أن يتسلحوا بالبأس والشدة والعزيمة في صراعهم المستمر . وبذلك تمكنوا من فرض ضريبة على الخليفة عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥م) وفي ما بين ٧٥٩ - ٧٦٠ ثار نصارى جبل لبنان « ضد تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب عليهم ، واستولوا على قرى عدة في البقاع وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقراً لعامل العباسيين . وكانت ردة الفعل عند العباسيين عنيفة ، إذ هاجم العامل العباسي القرى الثائرة . . . وشتت سكانها في طول البلاد وعرضها »[٢٥] .

أمّا الفترة التي وجد فيها مسيحيو لبنان بعض الدعم أبان غزوات الصليبيين (١٠٩٦ - ١٢٩١) فقد دفعوا ثمنها غالياً جداً على يد المماليك الذين كادوا بحملاتهم العسكرية أن يبيدوا ، ليس المسيحيين وحسب ، بل وسائر الأقليات التي لا تدين بالمذهب الإسلامي السنّي . ويقول أحد المؤرخين الكبار مختصراً مختلف ما ذكر عن هجمات المماليك أن « الحملات العسكرية التي وجهها الملك ناصر في ١٣٠٢ و١٣٠٦ و١٣٠٧ ضد كسروان ، كانت من أعنف الحملات التي تعرض لها لبنان ومن أشدها فتكاً وخراباً . وكانت كسروان آنذاك تمتد جنوباً الى نهر بيروت والى جبل صنين وجبل الكنيسة (شرقاً) وكانت تشمل أيضاً منطقه المتن الشمالي والجنوبي وكان سكانها من المسيحيين (موارنة ويعاقبة) والدروز والنصيرية . . . وكانت المعركة

٢٥ - الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ ص ٣٢٧ .

الفاصلة في عين صوفر سنة ١٣٠٧ . فقد أباد جيش المماليك البالغ عدده خمسين ألف مقاتل قرابة عشرة آلاف كسرواني ، معظمهم من الدروز وخربوا بلادهم ، وقطعوا أشجارهم وذبحوا نساءهم وأطفالهم ، وتقاسمت ثلاثمائة عائلة تركمانية المنطقة الساحلية الواقعة شمالي بيروت الى جنوبي طرابلس كاقطاعات بينها[٢٦] » . . . .

وإذا كان المسيحيون قد عرفوا شيئاً من الإستقرار الحذر في بداية العهد العثماني الذي بدأ في العام ١٥١٦ ، فلن يطول الزمان حتى يعودوا ليدفعوا ثمن ذلك غالياً قبل حلول منتصف القرن التاسع عشر ، إذ بين العام ١٨٤٠ والعام ١٨٦٠ . تعرضوا لمذابح مدبرة من قبل الدولة العثمانية ومنفذة من قبل الدروز وحلفائهم ، ذهب ضحيتها أكثر من ١٥ ألف قتيل من أصلهم ١٢ ألفاً قضوا في مذبحة عام ١٨٦٠ خلال ثلاثة أشهر فقط . . . مما جعل الضمير العالمي يتحرك ، فدعت فرنسا لمؤتمر ضم كلا من بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا بالاضافة الى فرنسا ، تقرر فيه التدخل لإيقاف المذابح . غيرأن فرنسا وحدها نفذت القرار فأرسلت سبعة آلاف جندي ، عملوا على إعادة النظام ، ثم انسحبوا في الرابع من حزيران عام ١٨٦١ . وكانت الدول الأوروبية المجتمعة قد أقرت نظاماً جديداً للبنان ، ساوى اللبنانيين في الحقوق ، وبدأ معه حكم المتصرفية في جبل لبنان الذي سلخ عن سائر المناطق اللبنانية الأخرى ، ووضع على رأس الحكم فيه متصرف مسيحي غير لبناني . واستمر حكم المتصرفية

٢٦ - الدكتور فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ . مستشهداً بكل من : الدويهي . وصالح بن يحيى وابراهيم عواد .
وراجع المشرق المجلدين ٤٠ - و٤٤ -

حتى بداية الحرب العالمية الأولى في تشرين الأول من سنة ١٩١٤ ، إذ سارع جمال باشا الى احتلال لبنان وإلغاء استقلاله وإقامة حكم عسكري عنيف . . . تضاءل إزاءه كل حكم ظالم سابق عرفه مسيحيو لبنان من قبل . فانتهكت الكنائس والأديار ، ونفي بعض الأساقفة الى بر الأناضول . وهدد البطريرك الماروني بالنفي أيضاً . وأخيراً فرض الحصار التمويني على المسيحيين الذين تعرضوا لأقصى مجاعة عرفها شعب ، وانتشرت الأمراض والأوبئة بشكل فظيع ، حتى بلغ عدد ضحايا هذا الظلم اللاإنساني في لبنان أكثر من مائة ألف ضحية .

في الجمهورية اللبنانية

مرّة ثانية ، شاءت الأقدار أن تكون فرنسا المنقذ للمسيحيين اللبنانيين . فعندما تمكن الحلفاء من النصر النهائي في العام ١٩١٨ ، وانكسرت تركيا تماماً ، أصبح الوضع التحالفي في المنطقة ذا شكل جديد : القوميون العرب ، وجلهم الأعظم من المسلمين ، تساندهم بريطانيا ، وهم يهدفون الى إنشاء وحدة عربية ، يذوب معها لبنان بسوريا تماماً ، يقابلهم الإستقلاليون اللبنانيون تساندهم فرنسا ، وهم يهدفون الى إعادة توحيد جميع الأراضي اللبنانية التي كانت موحدة قبل عهد المتصرفية والقائمقاميتين ، في دولة واحدة مستقلة عن سوريا والبلاد العربية

واستمر الصراع الى أن أقر مجلس الحلفاء الأعلى ، المجتمع في سان ريمو في ٢٨ نيسان ١٩٢٠ الانتداب الفرنسي على « سوريا

ولبنان » فصعق القوميون العرب للنبأ فيما استقبلته أغلبية المسيحيين في لبنان بارتياح .[٢٧]

في هذه الأثناء، برز تيار عنيد عند المسلمين يطالب بضم المناطق ذات الأكثرية المسلمة ، وهي الواقعة خارج جبل لبنان المسيحي ، الى سوريا . ونظراً لكون المسيحيين يرفضون هذا الانضمام ، فأنهم يبقون في دولة مستقلة ذات قومية مسيحية . إلا أن المسيحيين رفضوا هذا المشروع رفضاً قاطعاً ، وكان على رأسهم البطريرك الماروني الياس الحويك .

ويقول أحد النواب المسلمين السنة الحاليين انه « لو تم للمطالبين بالإنفصال عن لبنان والإلتحاق بسوريا ما أرادوا لكان استمر الوطن القومي المسيحي ولازدوجت الكارثة فيما بعد بقيام الوطن الإسرائيلي في العام ١٩٤٧[٢٨] » .

وبنتيجة كل ذلك أعلن المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو في الأول من أيلول ١٩٢٠ في بيروت « دولة لبنان الكبير » . . . ومنذ عودة لبنان الكبير ، فان « الأكثرية المسيحية لم تظل تلك الأكثرية الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل[٢٩] » . . . قبل العودة الى « لبنان الكبير » . إلا أن هؤلاء المسيحيين ستكون لهم بعض الإمتيازات في السياسة والإدارة في هدف طمأنتهم الى مصيرهم بعد كل ما عانوه عبر

---

٢٧ ـ راجع : كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . دار النهار للنشر . (بيروت ١٩٦٧) ص ٢٠٦

٢٨ ـ عبده عويدات (نائب الشوف) الحكم في لبنان . منشورات عويدات . (بيروت باريس ١٩٧٧) ص ١٨٤ .

٢٩ ـ الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ . ص ٥٩٨

السنين .

ففي الثالث عشر من أيار ١٩٢٦ أعلنت دولة لبنان الكبير جمهورية ، ووضع دستور جديد ينص على إقامة نظام برلماني وحكومة ديموقراطية . فكانت جمهورية لبنان الديموقراطية أول جمهورية من نوعها في العالم العربي ، ودستورها الجديد . . . مستمد بروحه من الدساتير . . . العصرية ، وينص على انتخاب رئيس للجمهورية وعلى إقامة وزارة مسؤولة (سلطة تنفيذية) ومجلسين : مجلس نواب ومجلس شيوخ . (ألغي مجلس الشيوخ فيما بعد ، وبقي مجلس النواب كسلطة تشريعية) وبالرغم من أن هذا الدستور عدل مرات عديدة ، وعلقه المفوضون السامون أكثر من مرة ، فانه لا يزال في أساسه الدستور المعمول به حتى الآن . « والدستور اللبناني لا ينص على أن للدولة ديناً معيناً ، كما هو الحال في دساتير البلدان العربية . . . بل ان حرية العبادة في لبنان حقيقة ثابتة »[٣٠] .

إن كل ما جاء الدستور على ذكره بالنسبة للطائفية السياسية ، هو ما نصت عليه المادة ٩٥ منه التي تقول « بصورة مؤقتة والتماساً للعدل والوفاق ، تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك الى الأضرار بمصلحة الدولة » .

فالدستور اللبناني . . . « تجنب تحديد مبادىء إلزامية للتعاون بين مختلف الطوائف ، بل آثر أن يترك المجال مفتوحاً للأخذ والعطاء ، وهكذا قضى الدستور بأن توزع مناصب الدولة بين مختلف الطوائف

٣٠ ـ الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ . ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩

على نحو عادل . لكنه لم يحدد كيفية ، ولم يعين نسبة ما لهذا التوزيع ، بل ترك ذلك للتفاهم والتسوية بين الفرقاء ، وفقاً للظروف[٣١] » . والتقليد الذي نشأ فيما بعد بالإستناد الى روح هذه المادة ، كان يقضي بأن يصبح رئيس الجمهورية مارونياً (باعتبار الموارنة أكبر طائفة مسيحية في لبنان) ورئيس الوزراء مسلماً سنياً ، ورئيس مجلس النواب شيعياً ، ووزير الدفاع درزياً .

وبعد توقيع المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية في العام ١٩٣٦ وموافقة مجلس النواب اللبناني عليها في الثالث عشر من تشرين الثاني ، وبموجبها اعترفت فرنسا بلبنان دولة مستقلة ، ألحقت بتلك المعاهدة رسائل متبادلة بين الرئيس أميل أده والمفوض السامي الكونت دي مارتيل ، توضح بعض النقاط الهامة ، منها الرسالتان رقم (٦ و٦ مكررة) اللتان أكدتا على ضرورة تمثيل مختلف الطوائف والمناطق اللبنانية تمثيلاً عادلاً في الحكومة والمناصب الإدارية العليا : وقد بقي مضمون هاتين الرسالتين « قاعدة من قواعد الحياة السياسية في لبنان[٣٢] » .

مشكلة الميثاق الوطني

وقبل أن يتم للبنان استقلاله التام في ٢٢ تشرين الثاني من العام ١٩٤٣ ، كانت قد جرت انتخابات نيابية في أواخر صيف ذلك العام . فعقد مجلس النواب الجديد اجتماعاً في ٢١ أيلول وانتخب بشارة

٣١ ـ كمال الصليبي . ص ٢١٠ .
٣٢ ـ كمال الصليبي ص ٢٢٧ .

الخوري رئيساً للجمهورية ، فكلف الرئيس الجديد حليفه رياض الصلح ، الزعيم السني ، تشكيل حكومة تتمثل فيها الطوائف الرئيسية الست في البلاد : الموارنة والسنة والشيعة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والدروز . . . وهكذا برز الى الوجود لبنان جديد تشترك الطوائف المسيحية والاسلامية اشتراكاً تاماً في تقرير مصيره . وكانت الطائفتان الرئيسيتان : المارونية والسنية ، ممثلتين آنذاك ببشارة الخوري ورياض الصلح ، واضعي « الميثاق الوطني » .

بالرغم من أن ما اتفق على تسميته بـ « الميثاق الوطني » هو في الواقع « اتفاق غير مكتوب » فالتقليد يقر بأن مضامين البيان الوزاري لحكومة رياض الصلح الأولى ، هي في الواقع « نص » للميثاق الوطني . وقد حدد ذلك البيان علاقة لبنان بالدول العربية بأن تكون على « . . . أسس متينة تكفل احترام الدول العربية لاستقلال لبنان وسيادته التامة وسلامة حدوده الحاضرة . فلبنان وطن ذو وجه عربي يستسيغ الخير النافع من حضارة الغرب . وإن اخواننا في الأقطار العربية لا يريدون للبنان إلا ما يريده أبناؤه الاباة الوطنيون ، نحن لا نريده للاستعمار اليهم ممراً ، فنحن وهم اذن نريده وطناً عزيزاً مستقلاً سيداً حراً[٣٣] » .

إلا أنه لم يكن قد مضى أكثر من ١١ شهراً على عمر « الميثاق الوطني » حتى كان أول خروج عليه من قبل واضعيه . . . أنفسهم . ففي تشرين الأول من العام ١٩٤٤ وافق وفد الحكومة اللبنانية على بروتوكول الاسكندرية ووقعه مع سائر الوفود العربية .ونظراً لما كان في

٣٣ ـ جان ملحة . مجموعة البيانات الوزارية . مكتبة خياط . بيروت . ص ٢٣ ـ ٢٤

نصوص ذلك البروتوكول من بنود من شأنها أن تتعارض تماماً مع استقلالية لبنان عن الشرق وعن الغرب ، كون تلك النصوص تخضع السياسة الخارجية للدولة ، لجامعة الدول العربية ، وتحد من حرية الدولة في عقد المعاهدات الدولية . فقد بدا أن البلد المقصود من تلك النصوص الوحدوية . . . كان « لبنان » من بين الدول العربية الأخرى « باعتبار أن تلك الدول مرتبطة كلها مع بريطانيا بمعاهدات تحرم عليها إتباع سياسة خارجية وعقد معاهدات دولية تتعارض مع طبيعة العلاقات القائمة فيما بين فرقائها[٣٤] » .

طالب الفريق المسيحي بالغاء ذلك الاتفاق متهماً حكومة رياض الصلح بنقض الميثاق ، فيما قام الفريق المسلم يدافع عن البروتوكول والعلاقات العربية الوحدوية التي أقرها . وتحول الانقسام الى تبادل الحملات العنيفة اللهجة في الصحف ، والى عقد الإجتماعات الصاخبة ، والشديدة الخطورة ، وقد اتسع الانقسام حتى استقالت حكومة رياض الصلح التي شارك رئيسها ووزير خارجيتها في وضع البروتوكول .

وهكذا بدا للمسيحيين أن « الميثاق الوطني » سيتعرض لانتكاسات قد تكون خطيرة، مما جعلهم يتعلقون بسائر الضمانات الأخرى التي من شأنها أن تحافظ على كيانهم ، إلى أن يتأكد لهم زوال الخطر . . .

بقي « الفريق المسيحي ملتزماً بالميثاق التزاماً صريحاً واتهم الفريق المسلم بأنه لم يقبل قط بالتخلي عن انتسابه العضوي الى العالم

٣٤ ـ عبده عويدات . ص ـ ١٨ ـ ٢٠ .

العربي ، وبأنه ما انفك يثبت أن انتسابه الى لبنان كدولة ذات كيان نهائي ليس من درجة انتمائه الى القومية العربية ولا من طبيعة هذا الانتماء . في حين أن الميثاق الوطني يعترف بأن لبنان « ذو وجه عربي » وما فتىء الفريق المسلم يبدي في هذا المجال ، تصلباً يهدد بانفجار الوضع الراهن بمجمله[35] » .

ممارسات . . . تؤكد صحة المخاوف

جاءت الممارسات السياسية من قبل المسلمين السنة في لبنان لتؤكد اعتبار المسيحيين بأن في لبنان « فئة ثانية من المواطنين تعتبر لبنان جزءاً من كل أوسع ، وانه مرحلة مؤقتة لا بد من تجاوزها عند أول سانحة ، وان أي تعارض مع مصلحة « لبنان الجزء » ومصلحة « الكل الأوسع » أو حتى مصلحة جزء آخر من هذا « الكل الأوسع » يجب أن ينتهي بتضحية المصلحة اللبنانية[36] » . بينما اللبنانيون المسيحيون ، عامة يؤمنون « بلبنان مستقلاً قائماً بذاته . . ولا ينظرون الى شأن أو قضية أو مشكلة في العالم البعيد أو القريب إلا من خلال مصالحه ، وكل مرة تتعارض فيها مصلحة لبنان مع أية مصلحة أخرى . يغلّبون ، دونما تردد ، مصلحة لبنان وحدها . . . ثم انهم يرون في

٣٥ ـ مذكرة صادرة عن « لجنة البحوث اللبنانية » حول الموقف المسيحي من الأوضاع اللبنانية القائمة ، رفعها « مؤتمر الرؤساء العامين الدائم للرهبانيات اللبنانية » و« الرابطة المارونية » الى السادة نواب الأمة اللبنانية . (بيروت في ٣/٣/ ١٩٧٥) ص ٦

٣٦ ـ ن . ط. سلسلة القضية اللبنانية ـ الحلقة ١٤ ـ (آب ١٩٧٦) ص ٢٣ .

لبنان وطناً لا يحتاج للوصف ولا للتعريف ، لأنه بنظرهم وطن نهائي ، تنتهي عند حدوده مصالحهم وأحلامهم . . . وأن هوية لبنان لا يمكن أن تكون موضوع نقاش أو جدل أو خلاف . وأن السؤال عن هوية لبنان ، سؤال لا يطرح ، كما لا يطرح السؤال عن هوية فرنسا أو المانيا أو الإتحاد السوفياتي أو غيرها . . . ما لم يكن المقصود من السؤال : هل أن لبنان كل أم جزء ؟ . . . . هل هو مرحلة أم محطة ؟[37] . . . » .

لذلك فعندما يطالب المسلمون بالإحصاء العام ـ اعتقاداً منهم بأن الطوائف المسلمة أصبحت تشكل الأكثرية وبالتالي ، بحكم « الأكثرية » يتخوف المسيحيون من خطر ذوبان كيانهم ، ومن تسلط المسلمين عليهم ، كما تسلطوا قبلاً ، ولسان حالهم يردد أن « الديموقراطية العددية ، أي حكم الأكثرية للأقلية ، لا تصلح نظاماً للحكم إلا في المجتمعات المتجانسة حيث لا تخشى الأقلية على كيانها ومصيرها من حكم أكثرية لا تختلف عنها في النظرة الى الكيان والمصير.[38] »

وقد عبر الشيخ بيار الجميل صراحة عن هذا التخوف بشكل مباشر ، عندما وجه الى المسلمين اللبنانيين رسالة في ٢٤ تموز سنة ١٩٧٦ قال فيها « . . . يكفي أن تعترفوا بالشكل الذي يؤكد بأن لبنان لن يصبح دولة إسلامية ، حتى تنتهي القضية من الأساس ، ويستمر

٣٧ ـ ن . ط. ص ٢٣ . جاءَت هذه الملاحظات إثر موجة المطالبة الإسلامية بتحديد « الهوية اللبنانية! » وقد تكون هذه المطالبة ـ الظاهرة فريدة في تاريخ الأوطان ـ المؤلف .

٣٨ ـ مذكرة صادرة عن اللجنة السياسية المنبثقة عن مؤتمر البحوث اللبنانية ـ الكسليك ـ حول أربع صيغ جديدة ممكنة لبناء لبنان الجديد . ص ١٠

المسيحيون أوفى الناس للعرب وللقضايا العربية . . . فليس للمسيحيين أي مصلحة في أن يكونوا اسرائيل ثانية[39] » .

ومع أن الدستور لا ينص على طائفة رئيس الجمهورية ، فان المسيحيين يدركون أن غاية المسلمين من المطالبة بتعديله « إنما يقصد منها في الواقع ، الحد من صلاحيات رئيس الجمهورية لمصلحة رئيس الحكومة ، تحقيقاً للمشاركة ، ولكن الدستور والاعراف الدستورية التي ما زالت متبعة منذ فترة ما قبل الإستقلال ، تحقق هذه المشاركة على أكمل وجه ، إذ توجب توقيع جميع المراسيم من قبل رئيسي الجمهورية والوزارة ، بالإضافة الى توقيع الوزير المختص . والقرار الوحيد الذي ينفرد رئيس الجمهورية بتوقيعه هو مرسوم تعيين رئيس الحكومة . . . ولمجلس النواب حق حجب الثقة عن رئيس الوزارة المختار . . .[40] » .

وتأتي أيضاً مطالبة المسلمين بـ « إلغاء الطائفية السياسية » دون القبول بمبدأ « العلمنة » أي مع المحافظة على الكيانات الطائفية « لتلاقي الرفض من قبل المسيحيين ، كونهم يتنبهون الى الفرق بين « العلمنة » وإلغاء « الطائفية السياسية » . فان الطائفية السياسية تعني مشاركة الطوائف كمجموعات حضارية في تكوين أجهزة الحكم المركزي . إنها شكل من الأشكال المركبة للدولة Etat Complexe أي نوع من الفدرالية القائمة على أساس التقدمية الإثنية . وهي

٣٩ ـ سلسلة القضية اللبنانية ـ الحلقة ١٤ ـ ص ١٠ .

٤٠ ـ مذكرة صادرة عن « لجنة البحوث » حول « إصلاح الأوضاع العامة ضمن اطار الصيغة اللبنانية القائمة » رفعها « مؤتمر الرؤساء العامين الدائم للرهبانيات اللبنانية » و« الرابطة المارونية » الى السادة نواب الأمة . (بيروت في ١١/١٢/١٩٧٥) ص ٦ .

فدرالية ألْصَق بالواقع الاجتماعي اللبناني ، وأدق تعبيراً عن تنوعه الحضاري من أية فدرالية تقوم على أساس التعددية الاقليمية . . والاكتفاء بالغاء الطائفية السياسية يعني الغاء هذه المشاركة مع الابقاء على الكيانات الطائفية وحقوقها ومصالحها وقوانينها الخاصة وأنظمتها . أي على كل ما يبرز تمايزها واختلافها . . . ومن البديهي أن مثل هذا التدبير الفوقي سيؤدي في الواقع الى حمل أبناء كل طائفة على السعي للاستئثار بالهيمنة على مقدرات الدولة والى تمكين المجموعة الطائفية الأكثر عدداً والأكثر تماسكاً من السيطرة والتسلط ، فينشأ عند أبناء المجموعات الأخرى شعور بالغبن والظلم ، بل شعُور بخطر الزوال الحضاري ، يعمق الانقسام ويفجر الصراعات ويؤدي الى التصادم الدموي . . . أما العلمنة التي يمكن طرحها كحل ، فهي تلك التي تذهب الى أعمق وأبعد من تغيير شكل الدولة ، إنها تستهدف تغيير بنية المجتمع الأساسية بالانتقال من « مجتمع تعددي » الى « مجتمع منصهر » وموحد ، في حضارته وثقافته وأهدافه القومية ، وذلك عن طريق : إلغاء الإعتراف بالطوائف ككيانات ذات حقوق ومصالح وقوانين ومحاكم خاصة ، وتوحيد قوانين الأحوال الشخصية بغية رفع الحواجز والعوائق التي تحول دون التزاوج والتوارث بين أبناء الطوائف المختلفة[41] » .

ومثلما يرفض المسلمون العلمنة ، ويصرون على إلغاء الطائفية السياسية ، فان المسيحيين يصرون على ربط إلغاء الطائفية السياسية باقرار العلمنة ، شرط أن « يعلن جميع الفرقاء ولاءهم الكامل للبنان

٤١ ـ مذكرة صادرة عن اللجنة السياسية المنبثقة عن مؤتمر البحوث اللبنانية ـ الكسليك ـ حول أربع صيغ جديدة ممكنة لبناء لبنان الجديد . ص ١٧ ـ ١٩ .

الوطن النهائي وللأمة اللبنانية الواحدة . وأن يضمن دستور الدولة العلمانية حقوق جميع المواطنين بالحرية والمساواة ، وأن يعتمد لبنان نظام الحياد الدولي الدائم الذي تضمنه الأمم المتحدة والدول الكبرى[٤٢] » .

وبعكس المسلمين السنة الحالمين بالانصهار في الكل العربي المسلم ، وعدم رغبة هؤلاء بالإستمرار في التركيب الإتني اللبناني ، فان المسيحيين في لبنان يرون أن « الخصائص الذاتية المرتبطة بشخصية لبنان الفريدة وتاريخه وحضارته ، تعود . . . الى التعددية الإتنية لهذا البلد الذي لم تلتق مجموعاته الحضارية المتنوعة صدفة ، بل جمعها خلال تاريخ طويل ، عامل واحد وموحد ، هو توقها الى الحرية وتمردها على ظلم حكم الأكثرية الجائر ، وتمسكها بتميز شخصيتها . . . هذه التعددية الإتنية ـ الحضارية ، صمدت وحداتها خلال أجيال أمام كل محاولات الدمج والصهر ، رافضة أن تذوب في شخصية إحداها أو في شخصية وهمية واحدة . . . وهذه التعددية الملازمة لتكوين لبنان هي ذات قيمة حضارية وتقدمية تفوق العروبة ، وتفوق كل القيم ذات البعد الواحد . . . ومن الحيف والغبن عدم الاستفادة من غناها بإيجاد الأطر السياسية والثقافية التي تحفظها وتصونها وتبرز ما في تعايشها وتفاعلها من ثروة حضارية ضخمة »[٤٣] .

هذه النظرة المسيحية للصيغة اللبنانية الحضارية والرائدة في تعايش الأديان وحرية المعتقد ، عبر عنها رئيس حزب الكتائب اللبنانية في رسالته الى المسلمين إذ قال :

٤٢ ـ المرجع السابق ص ٢١ .
٤٣ ـ ن . ط . ص ٢٥ .

« لبنان . . . قد وجد لكي تلتقي الأديان فيه وتتفاعل وتثري الانسان بالتقائها فيه وتفاعلها . . . ان دور اللبنانيين ، مسلمين ومسيحيين ، في هذه الحال ، هو أعظم الأدوار ، فلم تعط هذه الرسالة لغيرهم . وإذا صح بأن لكل شعب مهمة أو دوراً في هذا العالم يؤدي ، من خلاله ، قسطه في خدمة البشر والإنسانية جمعاء ، فليس أمام اللبنانيين أفضل من هذه المهمة ، يخدمون بها أنفسهم وأديانهم ويخدمون الانسان أيضاً والحرية وسائر القيم الإنسانية[٤٤] » .

إلاّ أن هذه النظرة ، كانت تقابل بنظرة مناقضة في الجانب الآخر ، كون « المسلم المسلم . . إما أن يكون الحاكم مسلماً والحكم إسلامياً ، فيرضى عنه ويؤيده ، وإما أن يكون الحاكم غير مسلم والحكم غير إسلامي ، فيرفضه ، ويعارضه ، ويعمل على إلغائه »[٤٥] حتى ولو كان ذلك إلغاء لنقطة لقاء الأديان !

* * *

المسيحيون اللبنانيون حاملو أوزار مسيحيي الشرق

بينما كانت الأحداث تعزز مواقع المسلمين في لبنان ، وقد تمادوا في خروجهم على الميثاق ، فراحوا يستقوون بالمقاومة الفلسطينية وبالأموال العربية عاملين ، علانية وسراً ، من أجل القضاء على

٤٤ ـ سلسلة القضية اللبنانية ـ الحلقة ـ ١٤ ـ ص ٣ ـ ٤ .
٤٥ ـ حسين القوتلي مدير دار الافتاء في لبنان . جريدة « السفير » البيروتية في ١٨/٨/١٩٧٥ .

الصيغة اللبنانية بشكلها الذي كان متفقاً عليه في الميثاق الوطني ، كان المسيحيون قد فقدوا ذلك الدعم التقليدي الذي عهدوه في الغرب ، حتى أنهم في وقت من الأوقات قد شعروا بأن الكرسي الرسولي ينطلق في اعتباراته من منطلقات قد تكون خطرة على كيانهم .

فلقد بدا أن الفاتيكان يحمل المسيحيين اللبنانيين وزر مسيحي الشرق الأوسط والبلدان الإسلامية الأخرى . وقد كان في ذلك سبب أساسي في تعارض وجهات النظر بين الفاتيكان وبعض القوى الممثلة في الجبهة اللبنانية ، وعندما أرسل قداسة البابا بولس السادس الكاردينال برتولي الى لبنان لتدارس الوضع والبحث « عن صيغة مقبولة للتعايش من قبل جميع الفئات » قال برتولي لمن اجتمع بهم من قادة الجبهة أن « الفاتيكان يهتم بمجموع المسيحيين المتواجدين في المنطقة . . . ويعارض فكرة التقسيم ، لأن ذلك سيحمل أسوأ النتائج على ملايين المسيحيين في الشرق العربي[٤٦] » .

وكان قداسته قد استقبل خلال الحرب أحد مطارنة الموارنة ، فحياه بقوله : « إني أحيي من خلالك كل الشعوب التي تعيش عندكم هناك . . . » .

لقد كانت تلك التحية من قبل رأس الكنيسة الكاثوليكية للمطران الماروني ، خروجاً على المألوف . . . إذ كان التقليد المتبع يقضي بأن يحيي البابا « الشعب اللبناني » ويدعو له بالتوفيق .

ولما وصل خبر تحية قداسة البابا « الجديدة » الى بيروت ،

٤٦ ـ « الحوادث » العدد ١١٦٦ تاريخ ٩ آذار ١٩٧٩ ـ ص ١٤ .

والحرب كانت في أوجها ، توجس الكثيرون من قادة القوى المسيحية خيفة ، معتبرين أن الفاتيكان يقصد من تحيته الجديدة شمل الفلسطينيين ، وعندما قدم الكاردينال برتولي الى لبنان ، سمع من أكثر من مسؤول حزبي وديني مسيحي ما يعبر عن خيبة الأمل المسيحية من موقف الكرسي الرسولي « غير المتفهم تماماً لحقيقة الأوضاع اللبنانية » وقد تبعت ذلك سلسلة لقاءات بين وفود مسيحية لبنانية ووفود من الفاتيكان ، فتبين أخيراً أن الموقف النهائي للكرسي الرسولي هو :

- معارضة الفاتيكان لتقسيم لبنان .
- معارضة الفاتيكان « لضم لبنان » .

وضمن هذا الاطار ، عمل الفاتيكان لجمع الطوائف بغية التفاهم للخروج بحل مرض للجميع . وكانت الحلول التي يعمل الفاتيكان من أجلها منبثقة من جوهر الصيغة اللبنانية القائمة .

وأوضح مواقف روما من الحرب اللبنانية، هي تلك التي كان يعبر عنها البطريرك الماروني عبر مواقفه المعلنة .

ففي بداية الأحداث ، وإثر حادثة عين الرمانة ، سارعت البطريركية المارونية الى إصدار بيان دعت فيه الى التهدئة ، وناشد بيان بكركي « أولياء الأمر أن يقبضوا بيد من حديد على زمام الأمور ويطبقوا القوانين والمساواة على الجميع أياً كانوا » ودعا الى « إمعان الرؤية وتغليب العقل على النزوات[٤٧] » .

٤٧ ـ فاضل سعيد عقل وأنطوان جرجي الجبيلي . وقائع الحرب في لبنان . المجلد الأول ص ٨ .

وعندما انعقد المؤتمر الماروني في مكسيكو خلال آذار ۱۹۷۹ ، عملت البطريركية المارونية عبر مندوبها الى المؤتمر المطران رولان أبو جودة ، على إبعاد الصيغة الطائفية عن هذا المؤتمر ، وقد تم اتصال هاتفي بين بكركي ورئيس الوزراء الدكتور سليم الحص ، أطلعت البطريركية خلاله رئيس الوزراء على أهداف المؤتمر الرئيسية ، مؤكدة أن بكركي هي لكل اللبنانيين ، ولا تسمح بأن يعطل هذا المؤتمر مسيرة الوفاق . وقد قام رئيس الرابطة المارونية المحامي شاكر أبو سليمان بدور هادف لعدم تطييف المؤتمر .

وهكذا فان اعتبارات الفاتيكان جعلت مسيحيي لبنان يتحملون ، في أصعب ظروفهم ، أوزار ومسؤوليات سلامة مسيحيي الشرق الأوسط وسائر البلدان الإسلامية ، فان مواقف الفاتيكان النابعة من تلك الإعتبارات الانسانية ، قد حرمت مسيحيي لبنان ، في بداية صراعهم المرير ، من الدعم المعنوي الذي من شأنه أن يساعد على إيجاد التوازن المفقود بعد خروج المسلمين اللبنانيين على الميثاق الوطني ، وبروز الفلسطينيين كقوة ثقيلة تقاتل الى جانب المسلمين ، وشيوع إرسال الأسلحة والعتاد والمال والرجال اليهم من بعض الدول العربية في هدف مقاتلة المسيحيين .

أما الدعم التقليدي الآخر ، الذي اعتاد المسيحيون اللبنانيون أن يأملوا به ، وهو دعم الغرب عامة ، وفرنسا خاصة ، فكان في هذه الظروف مستحيل المنال ، كون فرنسا وغيرها من بلاد الغرب المسيحي كانت في وضع سياسي ضعيف من جهة ، ومن جهة ثانية كانت مهتمة بشؤون الطاقة ، وليس بوسعها أن تعادي المسلمين العرب من أجل صداقة بضعة مئة ألف مسيحي ، ليس لديهم مال ولا بترول . أما

أميركا فكانت بعيدة كل البعد عن المفاهيم الإنسانية المجردة ، وخاضعة ، من جهة ، للأهداف المنبثقة عن أجهزة الاستخبارات ، وتلك المنبثقة ، من جهة أخرى ، عن المصالح الصهيونية بقيادة اليهودي الدولي هنري كيسنجر .

أربعة حلول

إلا أن المسيحيين اللبنانيين المتمسكين بمرجعهم الشرق أوسطي الوحيد ، وهم سلالة أجيال طالما كافحت من أجل صون هذا المرجع ، قرروا أن يكافحوا بشتى الوسائل ، آملين بأن يتحرك الرأي العام المسيحي في العالم ، فتطغي إرادته على إرادة الحكام الناظرين من زوايا المصالح المجردة من المفاهيم الإنسانية التي ينادون بها . وراح المسيحيون يقاتلون بما لديهم من إمكانيات ، كانوا قد بدأوا يتسلحون بها مذ ظهرت لهم بوادر الخطر ، ومدوا الجسور الخفية بينهم وبين الأقليات الأخرى التي تجمعهم معها استراتيجية . . . الصراع من أجل البقاء ، وطرحوا للاختيار في سبيل الخروج من الأزمة أربعة مخارج :

١ ـ العودة الى صيغة الميثاق الوطني ، ولكن بموجب نص دستوري غير قابل للنكران وللتفسيرات الخاطئة بحيث يتأمن منع تسلط أية فئة من فئتي الشعب الكبيرين على الأخرى .

٢ ـ شكل الدولة الوحدوي العلماني . . . تتكون فيه المجموعات الطائفية من إتنيات حضارية عميقة الجذور في التاريخ ، وشديدة الحرص على شخصيتها وسماتها الخاصة ، ومرهفة الحذر حيال كل ما يعرض كياناتها للذوبان أو الإنسحاق .

٣ ـ شكل الدولة الإتحادية المؤلفة من مقاطعات ذات استقلال داخلي واسع يتأمن داخل كل منها أكبر قدر ممكن من التجانس السكاني ، وتلتقي في اتحاد تمارس داخله مشاركة متساوية في الحكم وتتمتع كل منها بحق النقض DROIT DE VETO

٤ ـ دولة فدرالية ذات مقاطعات تتمتع باستقلالية داخلية ، تشارك في الحكم المركزي دون أن يكون لها حق النقض . وتكون هنالك مناصفة في التمثيل والتصويت[48] .

من بين هذه الطروحات وجد رئيس الجبهة اللبنانية كميل شمعون أن « اللامركزية السياسية والادارية » هي أفضل الحلول . وقد برر « وجهة نظره الشخصية » هذه بقوله أنه « يجب علينا إيجاد الطرق والوسائل للحؤول دون الخلافات والنزاعات الطائفية بين جناحين رئيسيين من الشعب اللبناني ، وقد أدت الخلافات التي وقعت بينهما حتى الآن الى بؤس حقيقي للبلد في ظروف مختلفة . لهذا فمن الضروري بالنسبة لنا ، من أجل السلام والتفاهم ، أن نحاول إيجاد الوسائل للحؤول دون الخلاف في المستقبل . وإذا ما وجدنا أن اللامركزية السياسية والإدارية هي الحل ، فلا أرى سبباً لعدم موافقتنا عليها بروح من الصداقة والتفهم . . . ولن تخلق هذه اللامركزية أي تأثير سلبي على وحدة لبنان ، فثمة درجة كبيرة من اللامركزية في المانيا الغربية ، وسويسرا ، والولايات المتحدة ، مع ذلك لا يستطيع أحد القول بأن هذه البلدان تفتقر إلى الوحدة أو بأن اللامركزية تشكل عقبة أمام وحدتها[49]» .

٤٨ ـ راجع : المذكرة الصادرة عن اللجنة السياسية المنبثقة عن مؤتمر البحوث اللبنانية ـ الكسليك ـ حول أربع صيغ جديدة ممكنة لبناء لبنان جديد (تشرين الأول ١٩٧٦) .

٤٩ ـ « النهار » ٢٨/٣/١٩٧٧ .

وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٧٨ أعلن الرئيس شمعون أنه « لا يمكن أن نرضى بالعودة الى نظام ١٩٤٣ ، والنظام الذي يمكن أن يؤمن وحدة البلاد هو النظام الفدرالي ، ولا بديل عنه إلا بالتقسيم » وكان شمعون واضحاً في تبريره الذي أرفقه باعلانه هذا ، إذ قال بكل بساطة :

« . . . لا يمكن أن نرضى بالعودة الى نظام ١٩٤٣ ، فالنظام الذي يمكن أن يؤمن وحدة البلاد هو النظام الفدرالي كما وحدت سويسرا عندما تكونت ، وإلا لكانت تجزأت إلى أربعة أجزاء ، كان النظام الفدرالي النظام الوحيد الذي أمن وحدتها ، والبديل لهذا النظام هو التقسيم . . . أما النظام الفدرالي فيؤمن وحدة البلاد ويمنع الاحتكاك بين العناصر التي يتألف منها الشعب اللبناني حتى لا نعود كل سنتين الى المشكلة ذاتها ، ولكي لا نقع في ورطة المسيحي والمسلم والشيعي والماروني والدرزي . . . . كلما وصلنا الى وظيفة . والنظام الفدرالي يوفر كل هذه الإحتكاكات التي أوصلت البلاد الى حالة يمكن أن توصلنا اليها في أي وقت ، ولا بديل عن النظام الفدرالي إلا التقسيم[50] » .

وفي الرابع والعشرين من شباط ١٩٧٩ عقد المكتب السياسي لحزب الكتائب جلسة استثنائية استعرض بخلالها أحوال البلاد « في محاولة منه للخروج بها مما هي عليه من ترد وجمود . . . » وقد جاء في البيان الذي صدر عن الحزب إثر هذا الاجتماع ، التأكيد على « الإصرار على وحدة لبنان القائمة على التنوع الإيجابي المبدع والموحد (بكسر

٥٠ ـ مواقف الرئيس شمعون في مرحلة اللاحرب واللاسلم . (بيروت ١٩٧٩) ص ١٨ ـ ٢١ .

الحاء) وذلك بموجب نظام سياسي ملائم . . . وهذا يتضمن « رفضاً تاريخياً قاطعاً لشتى طروحات التوطين والتقسيم[٥١] » .

أما النظام الملائم ، فمع أن الحزب لم يشرحه ، إنما هو التقى عبر البيان مع الرئيس كميل شمعون ، إذ جاء فيه : « . . . ليس كلما خطر لأحدنا أن يبدل ويغير طبيعة الوطن يجب أن نختلف ، لكي نفتش من جديد عن لبنان الذي يجمعنا » .

ويقول الشيخ بيار الجميل اليوم ، أن « التقسيم في لبنان ، أصبح أمراً واقعاً ، وإذا كان علينا أن نبحث بعد اليوم ، ففي كيفية التوحيد . . . » .

* * *

مجمل هذه المواقف ، من البطريركية المارونية الحريصة على التعايش المسيحي الإسلامي ، الى الكسليك المنادي بالفدرالية ، الى الرئيس شمعون الذي لا يرى بديلاً عن الفدرالية إلا بالتقسيم ، الى الشيخ بيار الجميل الباحث عن التوحيد عبر نظام سياسي ملائم ، نقول أن مجمل هذه المواقف من شأنها أن توحد الرؤية المسيحية للحل المنشود في كلمة واحدة : الفدرالية .

---

٥١ - « العمل » في ٢٥/٢/١٩٧٩ .

الفصل الثالث

الشيعة

قضية الدين والدولة

تختلف مشكلة الدولة ودينها بين السنة والشيعة نسبة للإختلاف الأساسي بين معتقدات الطائفتين .

فالسنة يحملون معتقدهم في اسمهم . إذ كلمة السنة « تعني العادة والتقليد ، وهي اصطلاحاً مبدأ المحافظين من جماعة المسلمين[١] » .

فالخلاف الذي وقع بين المسلمين في عهد الاسلام الأول ، كان « بسبب اختلاف على صاحب الحق الشرعي في الخلافة . . . وكان الفارق الأساسي بين الشيعة - أنصار علي - والسنة - جماعة المحافظين - مسألة الامامة ، وهي خلافة محمد ورئاسة المسلمين ، فالشيعة تتشبث بأن امامة علي وأبنائه هي الامامة الحق الوحيدة ، وهي في ذلك نظير الكثلكة التي تتمسك بخلافة الباباوات للقديس بطرس : فالنبي قد

---

١ - الدكتور فيليب حتي . تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - دار الثقافة . (بيروت ، ١٩٥٩) الجزء الثاني ص ١١٩ .

اعتبر القرآن ـ وهو كلام الله المنزل ـ الواسطة بين الله والبشر ـ أما الشيعة فقد جعلت ذلك الوسيط انساناً هو الامام . وعلى ذلك فالسني يعبر عن عقيدته بأنه يؤمن بالله الواحد الصمد ، ويؤمن بنزول القرآن المحفوظ في السماء منذ الأزل ، أما الشيعي فيزيد فقرة أخرى لاستكمال التعبير عن الايمان إذ يقول أنه يؤمن بأن الامام الذي اختاره الله ، وبث فيه شيئاً من روحه القدسي ، هو الهادي الى الحق والمرشد الى سبيل الخلاص . فالخليفة في نظر السنة هو الرئيس الزمني لجماعة المسلمين ، وهو أمير المؤمنين وحامي الشريعة ، فهي لا تخصه بسلطة روحية . والشيعة بخلاف ذلك ، تحصر الامامة بأسرة علي ، ولا تكتفي باعتبار الامام الرئيس الأوحد للمجتمع الإسلامي ، بل تجعله الى ذلك الرئيس الروحي والزعيم الديني ، وتذهب الى أنه يستمد سلطانه من النص المقدس . وهكذا يصبح لسليل محمد ، من ذرية علي وفاطمة ، قوة خارقة تصل اليه عن طريق الوراثة ، بل يغدو فوق البشر ، وعن طريقها يتميز بالعصمة ، على أن بعض نصوص السنة المتأخرة قد نسبت العصمة من الأثم والخطأ الى الأنبياء دون سواهم ، وأخصهم محمد . . .[2] » .

٢ ـ المرجع السابق. ص ١١٩ ـ ١٢٠
وراجع أيضاً كلا من :
الأيجي. كتاب المواقف . نشرسورنسن (ليبزغ ١٨٤٨) ص ٢٩٦ وما يليها .
الماوردي . الأحكام السلطانية . نشرانجر (بون ١٨٥٣) ص ٢٣ ـ ٢٤
النسفي . عمدة عقيدة أهل السنة . نشركورتن (لندن ١٨٤٣) ص ٢٨ ـ ٢٩ وص ٢١٨ وما يليها .
ابن حزم . الفصل في الملل والأهواء والنحل . الجزء الرابع . (القاهرة) ص ٢ وما يليها .
الشهرستاني . الملل والنحل . نشركورتن (لندن ١٨٤٦) ص ١٠٨ ـ ١٠٩
المسعودي . مروج الذهب . نشر وترجمة
C.B de MEYNARD et P. de COURTEILLE (PARIS, 1864) T.I P. 70

هذا الفارق الجوهري في المعتقد بين السنة والشيعة ، يعنينا مباشرة في بحث المشكلة اللبنانية . إذ عندما صرح مدير دار الافتاء في لبنان بما صرّح به حول استحالة قبول المسلم بحكم غير إسلامي ، وبرئيس غير مسلم ، إنما هو اعتمد على المفاهيم السنية التي «لا تقبل المساومة[3] » إذ لا اجتهاد عند السنة في أحكام الدين . بينما بوسع العلماء الشيعة أن يجتهدوا ، فيجدوا الافتاء الذي من شأنه حلحلة العقد ، وفتح الطرق المسدودة ، فعندما كان آية الله الخميني يدير ثورته من باريس ، قال أحد كبار مساعديه في معرض رده على سؤال صحافي أن « الجمهورية الإسلامية سوف تكون جمهورية ديموقراطية ، يطبق فيها النظام الديموقراطي بشكل صحيح ويخلق لها دستور جديد مستمد من الشريعة الإسلامية في ضوء حضارة العصر[4] » .

مثل هذا الإجتهاد ، ليس بوسع السني أن يجتهده ، كما ليس بوسعه أن يقول برأي الدكتور ابراهيم يازدي كبير مساعدي الخميني ، بأن « القوانين الجنائية في الاسلام هي قوانين ظرفية . . .[5] » .

ومن أحدث الاجتهادات التي صدرت عن الإئمة الشيعة ، تحريم أكل اللحم المجلد (من قبل الخميني) ، كما كان أئمة ايران قد أفتوا في وقت من الأوقات بتحريم تعاطي التدخين ، فأطاعهم الشعب صاغراً .

٣ ـ حسين القوتلي في جريدة « السفير » ١٨/ ٨/ ١٩٧٥ . راجع فصل السنة من هذا المؤلف .
٤ ـ الدكتور ابراهيم يازدي . أحد كبار مساعدي الخميني ، ومن كبار وجوه الانتلجنسيا في الثورة الخمينية. راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٠ الجمعة ٢٦/ ١/ ١٩٧٩
٥ ـ المرجع السابق .

وقد أجاز أحد الكتاب المسلمين المعاصرين اعتبار « مفهوم السنة عن الإسلام انه دين بلا كنيسة ولا كهنوت ولا رجال دين . بل كل مسلم عاقل وصي على نفسه ، يقيم علاقته مباشرة مع خالقه ، هذا المفهوم تام في التطبيق على إنكار الحاجة الى نظام ديني ، ولا تسلسل في المراتب ، يحكم حياة الناس ويوجههم ، والتنظيمات الإسلامية التي قامت في بلدان السنة ، قامت على أسس سياسية ، لذلك اصطدمت بالنظم وخربت ، وحلت . . . بينما لا يستطيع أحد أن يلغي « كنيسة » أو يلغي نظام الأئمة وآيات الله ، من هنا بقي للشيعة تنظيمهم القادر على تحريكهم ، فلما تبنت قيادة هذا التنظيم مطالب الجماهير ، أمكن تفجير الثورة في ايران . . .[٦] » ومكسيم رودنسون صاحب كتاب « الإسلام والماركسية » وكتاب « الإسلام والرأسمالية » وهو من كبار الاختصاصيين في التاريخ الإسلامي يعتبر أن « العلماء الشيعة هم نوع من الكنيسة ، مثل الكاثوليك[٧] . . . »

وإذا كانت الفرق الشيعية تختلف في اعتبار « من هو الامام » فانها لا تختلف في أن للامام حق الاجتهاد ويجب أن يطاع . فالشرع « لدى الشيعة يعتبر مبدئياً عملية مستمرة ما دام الامام على قيد الحياة ، والامام لدى الإسماعيلية لا يزال حياً يعيش من جيل الى جيل ، بينما تعتبر الاثنا عشرية أن الامام في « الغيبة » على الرغم من أنه حي يحكم العالم . . . وأن العلماء الذي يحرزون مرتبة عالية في علم الشرع لدى الاثني عشرية ، والذين اتقنوا العلوم الدينية الأخرى التي تؤهلهم للنظر في الشرع ، يصبحون مجتهدين ، أي يحق لهم الاجتهاد ، وهو

٦ ـ جلال كشك . « الحوادث » العدد ١١٦١ الجمعة ٢/٢/١٩٧٩ ص ٢٢

٧ ـ « النهار العربي والدولي » ١٩ شباط ١٩٧٩ ص ٢٠ .

إبداء الرأي في قضايا الشرع . فهم من هذه الناحية مفسرو الشرع في أثناء غيبة الامام ، باسم الامام . وعلى كل شيعي تقي أن يتبع مجتهداً عمله تفسير الشرع ، من جيل الى جيل . أما باب الاجتهاد لدى السنة ، فقد أغلق بعد نشوء المذاهب السنية الأربعة . بينما باب الاجتهاد عند الشيعة يتحتم أن يبقى مفتوحاً . . . وهذا . . . يعني أن الشريعة ينبغي أن تطبق في كل جيل جديد وفق الظروف والأحوال الجديدة التي يجابهها ذلك الجيل . . .[٨] » .

ويتفق الباحثون على أن الشيعة ترى أنه يستحيل وجود حكومة مثالية في غياب الامام المهدي الذي هو الامام الثاني عشر ، وإن أحسن ما يمكن التوصل اليه في مثل هذه الحال هو إقامة حكم بموافقة جمهور العلماء ، برغم أن مثل هذه الحكومة ليست حكومة مثالية قط[٩] » .

بتعبير آخر يعتبر الشيعة (الاثنا عشرية) أن السلطة الشرعية الوحيدة هي سلطة الامام غير الموجود منذ سنة ٨٧٤م ، وتعتبر عودته بداية عهد العدالة ، فإن كل سلطة انسانية مشكوك بأمرها ، إما لأن كل سلطة سياسية تعتبر غير شرعية ، وبالتالي فكل حل مقبول ، وحتى الديكتاتورية يمكن قبولها ، أو لأن الشرعية القائمة على العنف مرفوضة ، ومن ثم يبذل الجهد لإيجاد صلة عادلة قدر الإمكان بين البشر في انتظار نهاية الزمان . . . . هذا مع اعتبارهم لتفسيرات القانون باسم الامام ، من قبل العلماء الأكثر تقدماً في العلوم الدينية ، على أساس إقامة مجتمع (بشكل برلمان مثلا) تشرف عليه مجموعة من

٨ ـ الدكتور سيد حسين نصر . الإسلام أهدافه وحقائقه . الدار المتحدة للنشر . (بيروت) ص ٩٩ .

٩ ـ الدكتور سيد حسين نصر . ص ٩٩

العلماء ، بحيث يحل هؤلاء العلماء الى حد (مؤقت) محل الامام[10] . . . » .

لمحة تاريخية

ولكن ، ماذا قبل ٨٧٤ ، قبل غياب الامام ؟

يضطرنا البحث للعودة الى جذور الخلاف بين السنة والشيعة ، لنصل الى ظروف توطن قسم من أتباع علي بن أبي طالب في لبنان . وعلى ما في هذه العودة من رجوع الى الماضي ، فانها لا بد مفيدة ، برغم السرعة والإقتضاب .

إثر انتقال النبي من هذه الفانية ، نودي بأبي بكر خليفة على المسلمين (٦٣٢ - ٦٣٤ م) وخلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤م) ثم عثمان (٦٤٤ - ٦٥٦ م) .

وكان الناس ينصبون الخليفة بالمبايعة ، دون اعتماد أية اعتبارات سلالتية . إلا أن أنصار ابن عم النبي ، علي بن أبي طالب ،قالواأن عليا هو أولى الناس بالخلافة نسبة لصلة القربى التي تربطه بنبي الإسلام ، خاصة وأنه كان متزوجا من ابنة النبي الوحيدة ، فاطمة . وقال هؤلاء بأن الولاية بعد علي ، لا بد من أن تؤول الى ذريته بحكم الإرث والسلالة . وكان لعلي ولدان : الحسن والحسين .

نظم مشايعو علي حزباً في الكوفة ، شعاره الثورة على عثمان .

١٠ - أيان ريشار . نائب رئيس قسم الدراسات الايرانية في « المؤسسة الفرنسية » في طهران . راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٣ الجمعة ١٦/٢/١٩٧٩ ص ٦١

وسرعان أن امتدت دعوة هؤلاء حتى وصلت مصر ، وفي نيسان ٦٥٥م . قام بعض الثوار من مشايعي علي بمجابهة الخليفة في المدينة ، حيث صرع إبن أبي بكر عثمانا فيما كان يقرأ المصحف ، وعلى الأثر بويع علي بالخلافة .

ما أن أصبح علي بن أبي طالب خليفة المسلمين ، حتى وقعت الحرب الأهلية الأولى بين السنة والشيعة . وكان يقود خصوم علي كل من طلحة والزبير . وانضمت زوجة النبي ، عائشة ، الى المعارضين ، وكانت المعركة الفاصلة في ٩ كانون الأول عام ٦٥٦م في ظاهر البصرة ، إذ انتهت بمقتل طلحة والزبير وبأسر عائشة[11] . إلا أنه بقي معارض عنيد لعلي ، أحجم عن مبايعته ،هو نسيب عثمان ، ووالي سوريا : معاوية ، فراح يحرض القوم على الخليفة الجديد ، داعياً الى الثأر لعثمان . فكانت الحرب الأهلية الثانية التي انتهت بمعركة سهل صفين الواقع جنوب الرقة على ضفة الفرات الغربية ، حيث التحم الجيش العراقي بأمرة علي ، مع الجيش السوري بأمرة معاوية في السادس والعشرين من تموز عام ٦٥٧م . وعندما بات النصر قريباً من علي ، لجأ قائد جند معاوية عمرو بن العاص الى الحيلة ، فأمر جيشه برفع المصاحف على أسنة الرماح ، فما كان من علي وهو المعروف بطيبته وتقواه ، إلا أن أمر بوقف القتال والموافقة على تحكيم القرآن حقنا لدماء المسلمين . جرى التحكيم على يد أبي موسى الأشعري ، ممثلا لعلي ، وعمرو بن العاص ، ممثلا لمعاوية ، في كانون الثاني عام ٦٥٩م ، وقضى بخلع معاوية ، وعدم خلافة علي . وبعد سنتين (٢٤

١١ - الطبري . اختلاف الفقهاء . نشرجوزيف شاخت (ليدن ١٩٣٣) الجزء الأول ص ٣٢١٨ وما يليها .

كانون الثاني ٦٦١م) سدد أحد الخوارج طعنة بخنجر مسموم الى جبهة علي بينما كان في طريقه الى المسجد في مدينة الكوفة ، فقتله

بعد أيام من مقتل علي ، نودي بمعاوية خليفة ، إلا أن مشايعي علي ازدادوا تمسكاً بقائدهم بعد مماته ، إذ رفعوا اعتباره من خليفة الى حكيم يقتدون بتعاليمه ، والى عماد ومنال أعلى ، لا بل غدا « في نظر الغلاة منهم تجسيداً للعزة الالهية[12] » وبينما جعل معاوية دمشق عاصمة لخلافته ، وكان مساعده عمرو بن العاص قد انتزع مصر من سلطة مشايعي علي فور وفاة الأخير عام ٦٥٨م عمد أهل العراق الى الوقوف بجانب الحسن ، الابن البكر لعلي من فاطمة بنت النبي . فشن معاوية حملة هائلة على العراق عام ٦٦١ وانتزع من الحسن تخلياً عن الخلافة .

بسيطرة معاوية همدت الحرب الأهلية ، مما مكن الخليفة الجديد من التوسع وإرساء أركان الامبراطورية الإسلامية بصلابة ، وفي العام ٦٧٩م عين معاوية ولده يزيداً خلفاً له . وبهذا التعيين عرف الإسلام سابقة خطيرة بشأن الخلافة التي أصبحت المبايعة فيها تجري للخليفة الجديد ، ولي العهد ، قبل وفاة الخليفة المورث ، كما فعل معاوية إذ استقدم الوفود من الأمصار وأخذ منهم البيعة لابنه[13] .

بوفاة معاوية (نيسان ٦٨٠) وتولي يزيد ، سارع العلويون[14] الى الانتفاضة التي طالما أرجؤوها طيلة الحكم الحازم لمعاوية،وإذ كان

---

١٢ ـ الدكتور فيليب حتي . تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني . ص ٣٤

١٣ ـ المرجع السابق . ص ٤٢

١٤ ـ المقصود بهذا التعبير : اتباع علي .

الحسن قد توفي في حوالي العام ٦٦٩م[15] ، فقد عمد أخوه الأصغر ، الحسين ، مدفوعاً بنداءات العراقيين الملحة والمتكررة إلى المجاهرة بأنه الخليفة الشرعي بعد أخيه ، ووالده علي . . . إلا أنه في العاشر من شهر محرم سنة ٦١ هـ (١٠ تشرين الأول ٦٨٠م) قام جند عبيد الله بن زياد والي العراق بالإطباق على الحسين في كربلاء ، وأنذروه بالاستسلام ، فأبى ، عندها هاجمه عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فاتح العراق الشهير ، بأربعة آلاف مقاتل ، وكان مع الحسين حوالي مائتين ، فدارت الدائرة على ابن علي حفيد النبي ، وقطع رأسه وأرسل الى يزيد في دمشق ، فأعيد الى أخت الحسين وابنه ، فأخذاه ودفناه في كربلاء ، ومنذ ذلك الحين غدا يوم العاشر من محرم ، ذكرى (العاشوراء) عند الشيعة ، يعتبرونه يوم حداد على الامام الشهيد[16] . وغدت كربلاء عندهم ، أقدس مكان في العالم ، وفي هذه المدينة ولد المذهب الشيعي الذي اتخذ منذ ذلك الحين مفاهيمه المختلفة عن أهل السنة ، إذ صار لديهم الإعتقاد بامامة علي وخلافة ذريته من بعده ، كاعتقاد السنة بنبوة محمد .

لم ينه القضاء على الحسين مشكلة الخلافة ، إذ سرعان ما التف أهل الحجاز حول عبد الله بن الزبير ، ونادوا به أميراً للمؤمنين ، فأرسل يزيد مسلماً بن عقبة على رأس حملة عسكرية مهمتها القضاء

---

١٥ ـ وقيل أنه قتل بالسم ، وقد ألقى أتباعه المسؤولية على معاوية ، واعتبروا الحسن شهيداً بل سيد الشهداء .

راجع : اليعقوبي . كتاب البلدان . طبعة غويج De Goeje (ليدن ١٨٩٢) الجزء الثاني . ص ٢٦٦

١٦ ـ الدكتور فيليب حتي . تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني . ص ٥٦
وراجع للمزيد : اليعقوبي . الجزء الثاني . ص ٢٨٩

على ثورة المدينة ، وفي سبيل القضاء على الشيعة ، لم يوفر جنود يزيد حرمة المدينة المقدسة ، فعندما اشتدت الحملة على ابن الزبير ، لجأ الى مكة باعتبارها « ذات حرمة » لكن مسلمة لحق به ، فمات على الطريق ، رغم ذلك تابع السوريون الحملة بقيادة الحصين بن نمير السكوني ، الذي ضرب الحرم بالمنجنيق ، فاحترقت الكعبة برمتها ، وكذلك الحجر الأسود ، أقدس الآثار الإسلامية[17].

استمر هذا القتال من السادس والعشرين من آب حتى الرابع والعشرين من أيلول ٦٨٣م ، وانتهى بانسحاب السوريين بسبب وصول الأخبار عن موت يزيد ، وبمناداة أهل الحجاز والعراق وجنوبي الجزيرة العربية وبعض أنحاء سوريا بابن الزبير خليفة .

وكانت المعركة الأخيرة في الحرب الأهلية الثالثة بين المسلمين ، تلك التي وقعت في حرج راهط شمال شرقي دمشق ، إثر موت يزيد ، ومبايعة ابنُ الزبير . إذ ثار عرب الجنوب منادين بنصرة مروان بن الحكيم خليفة . وقد تم في تلك المعركة النصر للأمويين الذين شتتوا الشيعة في بلاد الشام ، وبعد وفاة مروان ، تولى خلافة الأمويين ابنه عبد الملك الذي أرسل الحجاج بن يوسف على رأس جيش من ٢٠ ألف مقاتل لحصار ابن الزبير في مكة بدءاً من ٢٥ آذار عام ٦٩٢م ،

١٧ ـ راجع : الدينوري . الأخبار الطوال Ed. VLADMIR GUIRGASS (ليدن ١٨٨٨) ص ٢٦٩ وما يليها .
وأيضاً : كتاب أنساب الاشراف Ed. S.D.F GOITEIN (القدس ١٩٣٦) الجزء ٤ ب ص ٤٠ وما يليها .
وأيضاً: الطبري . الجزء الأول . ص ٤٢٧ وص ٢٢٢٠
واليعقوبي . الجزء الثاني . ص ٢٩٩ وص ٣٠٩ وما يليها .

وقد انتهى الحصار الذي دام مائتي يوم بقتال مرير لم يوفر خلاله السوريون ، مرة أخرى ، المدينة المقدسة من الإحراق . وقد انتهى القتال بذبح ابن الزبير الذي ناضل بيأس طوال مدة الحصار ، وكان رأسه الثاني بعد الحسين الذي يقطع ويرسل الى دمشق . أما جثمانه فقد صلب مقلوباً في مكة[18].

بانتصار الحجاج ، وتوليته على الحجاز ، تمت السيطرة للأمويين على الحجاز واليمن واليمامة . إلاّ أن الشيعة في العراق ، بقوا في حالة ثورية . وكان العلويون هناك بعد مقتل الحسين قد نادوا بأخيه من أبيه محمد بن الحنفية ، إماماً عليهم ، ولقبوه بالمهدي . وبقي العراق خارجاً عن الرضوخ للأمويين حتى العام ٦٩٤م عندما أناط الخليفة ولايته الى الحجاج .

دخل الحجاج الكوفة شخصياً ، ومعه كوكبة من الفرسان ، وقد وصلها فجراً في وقت الصلاة ، فدخل المسجد وفي صحبته اثنا عشر من راكبي الهجن ، وقد جعل قوسه في كتفه وسيفه الى جانبه . ووقف بالمصلين معلناً عن نفسه بسحنته العابسة ، ثم قال : « يا أهل الكوفة ، إني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها . . . » ثم أمر غلامه بأن يقرأ على الجمع كتاباً من أمير المؤمنين ، فقرأ : « باسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عبد الملك ، أمير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم » . ولكن أحداً لم يرد السلام . فصاح الحجاج بالقارىء غاضباً : « أسكت يا غلام » ثم قال :

١٨ ـ راجع : اليعقوبي . الجزء الثاني . ص ٣١٨ وما يليها .
الدينوري . ص ٣٢١
الانساب . الجزء الخامس . ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩

« يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام ؟ أما والله لأؤدبنّكم أدباً سوى هذا الأدب ، اقرأ يا غلام الكتاب » فأعاد الغلام القراءة ، ولما بلغ السلام ، لم يبق أحد في المسجد إلا وقال : « وعلى أمير المؤمنين السلام[19] » .

منذ ذلك الحين ، سطا الحجاج على أهل العراق بجبروته ، وتمكن بصلابته من فرض هيبة الدولة على العراق ، إلا أن الشيعة قد دفعوا ثمن ذلك غالياً . ففي سبيل تحقيق مهمته « بلغ ما أزهقه الحجاج بن يوسف من أرواح ١٢٠ ألفاً ، وقيل أنه وجد من أهل العراق في السجون على أثر وفاة الحجاج ، خمسون ألفاً من الرجال ، وثلاثون ألفاً من النساء. . .[20] » .

وبذلك توقف الصراع بين السنة والشيعة ولو الى حين ، بينما راح المسلمون يفتتحون البلد تلو الآخر حتى غدت امبراطوريتهم ممتدة من خليج بسكي الى حدود الصين ، ومن بحر آرال الى شلالات النيل ، وكانت دمشق عاصمة هذه الامبراطورية الرحبة التي فاقت بمساحتها امبراطورية روما في أوج اتساعها[21].

لم يتمكن الشيعة من الانتقام لأنفسهم من الأمويين قبل العام ٧٤٧م عندما شن العباسيون حربهم الضروس على الأمويين ، فوالى

١٩ ـ المبرد . الكامل . Ed.WILLIAM WRIGHT (لندن ١٨٦٤) ص ٢١٦

٢٠ ـ ابن العبري . تاريخ مختصر الدول . نشر أنطون صالحاني . (بيروت ١٨٩٠) ص ١٩٥
وراجع : الدكتور فيليب حتي . تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني ص ٦١

٢١ ـ راجع الدكتور فيليب حتي . تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني ص ٨٠ وما يليها .

الشيعة أبا العباس الذي سيطر على كافة الأمصار الاسلامية حتى كاد أن يسحق الأمويين ، فبويع له بالخلافة في الثلاثين من تشرين الثاني عام ٧٤٩م . وفي السادس والعشرين من نيسان ٧٥٠م أخضع العاصمة دمشق ، وإذ فر مروان ، آخر الخلفاء الأمويين الى مصر ، أرسل أبو العباس فصيلة في أثر الخليفة الفار ، أدركته في مصر العليا وقتلته خارج كنيسة في بوصير في الخامس من آب ، وأرسل رأسه مع شارات الخلافة الى أبي العباس[22].

ما أن سيطر العباسيون على دمشق وكان الشيعة أشد مناصريهم ، حتى عمل هؤلاء على إبادة رجال الحكم البائد ، فنبشوا قبورهم وصلبوا جثثهم ، وفي ٢٥ حزيران ٧٥٠م أدب القائد العباسي عبد الله مأربة لثمانين من أمراء الأمويين في أبي فطرس على نهر العوجا قرب يافا ، وما أن بدأ الاحتفال حتى انقض الجلادون على المدعوين ، وأخذوا يحصدون رؤوسهم واحداً تلو الآخر ، حتى إذا بسطت نطح الجلد على الجثث وهي ما زالت دافئة ، وعلى القتلى وهم بعد يعالجون سكرات الموت ، تحول القائد وأعوانه الى الموائد ليستأنفوا الإستمتاع بالطعام الشهي على إيقاع وحشرجة المنازعين[23] . ثم أرسل العملاء والجواسيس يجوسون بلاد الإسلام لاصطياد الفارين الذين لم ينج منهم سوى عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة هشام[24] .

٢٢ ـ المسعودي . مروج الذهب . الجزء الخامس . ص ٤٧١

٢٣ ـ اليعقوبي . الجزء الثاني ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦
المسعودي . الجزء السادس ص ٧٦
المبرد ص ٧٠٧ وسواهم . . .

٢٤ ـ الدكتور فيليب حتي . تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني . ص ١٥٥

بهذا انتقم الشيعة لأنفسهم ، إلا أن فرحتهم لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما تبين لهم أن ما عناه أبو العباس وجماعته « بأهل البيت » الذين لا بد من عودة الخلافة اليهم ، إنما هم آل العباس ، وليس بيت علي وفاطمة ، فعاد الصراع من جديد بين الشيعة من جهة ، والسنة ، بقيادة العباسيين هذه المرة . وإذ تزعم اثنان من أحفاد الحسين (محمد وابراهيم) حركة ثورية جديدة ، بادر العباسيون الى سحقها بلا رحمة ، وصلبوا محمداً في المدينة في كانون الأول من عام ٧٦٢م وقطعوا رأس ابراهيم في شباط ٧٦٣م قرب الكوفة ، وأرسلوه الى الخليفة .

مع اضطهاد العباسيين للشيعة وتشددهم في حكم الشعب بقساوة ، راح السوريون يبدون استعداداً لقبول المبادىء الشيعية المتطرفة ، وظهر القرامطة ، الشيعة المتطرفون ، وقد أسس زعيمهم حمدان قرمط العراقي قاعدة له قرب الكوفة عام ٨٩٠م وبعد تسع سنوات ، صار أتباعه أسياد دولة مستقلة قائمة على الضفة الغربية من الخليج الفارسي . ومن هذين المركزين امتدت يد القرامطة الشيعة لتنشر الويل في كل صوب ، فوجدوا لهم الأنصار في سوريا ، وفي العام ٩٠١م ، زحف القرامطة الى دمشق بقيادة « زكرويه »فحاصروها ثم احتلوا حمص ، وقضوا على عدد كبير من سكان حماة ومعرة النعمان ، وكادوا أن يبيدوا سكان بعلبك . إلا أن ذلك لم يطل ، إذ في العام ٩٠٢ أرسل الخليفة جيشاً لمقاتلة القرامطة الشيعة ، فقهرهم وأخذ عهد الولاء للخليفة من حكامهم .

بقي الصراع بين الشيعة ـ العلويين والسنة على هذا النمط من الإستمرار عبر مئات السنين ، حتى خلف المماليك الأيوبيين في السيطرة على الديار الإسلامية (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) الى أن تغلب العثمانيون عليهم .

رأى المماليك في الشيعة (والنصيرية والاسماعيلية) خطراً على حكمهم نظراً لما كان هؤلاء عليه من الشدة والقوة وكثرة العدد في جميع أنحاء سوريا[٢٥] . وبحجة أن هذه الفرق قد « أعانت العدو وهادنته » عندما قام الصليبيون بمحاربة المسلمين وتحت شعار « إعادة توحيد الفرق الإسلامية المنشقة وضمها الى السنة » قتل المماليك من الشيعة (والإسماعيلية والنصيرية) عدداً كبيراً ، ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها هؤلاء ، فقد اضطرت في آخر الأمر جماعات منهم إلى الهرب والتجأت الى جبال لبنان والبقاع[٢٦] . كان ذلك في أوائل القرن الثالث عشر .

قبل ذلك التاريخ ، كان بعض القبائل العربية قد أوغل في لبنان ، لا سيما في الجنوب ، حيث توطن بنو عاملة[٢٧] الذين بات واحد من جبال لبنان الجنوبي يعرف باسمهم : جبل عامل .

أرسل المماليك الى جبل عامل بني سودون واقطعوهم المنطقة ، وكانت هذه الأسرة من أصل غير عربي تنتمي الى المماليك المصريين الجراكسة .

عامل آل سودون الشيعة بقساوة بالغة تبعاً لما درج عليه المماليك في معاملتهم لغير السنة عامة ، ومن الأخبار التي ما زال يتناقلها الجنوبيون أن جماعة من أعيان آل سودون ، خرجت يوماً للصيد في

٢٥ ـ رحلة ابن جبير . ص ٣٠٤

٢٦ ـ الدكتور فيليب حتي . لبنان في التاريخ ص ٣٩٧

٢٧ ـ فؤاد حمزة . قلب جزيرة العرب . (القاهرة ١٩٣٣) ص ٤١١

أرجاء قطاع تلك الأسرة ، وإذ لم يوفق القناصون في اصطياد الطرائد ، اجتمعوا عصراً بالقرب من نبع الحجير ، وكانت كلابهم لم تطعم منذ الصباح ، فشاهدوا امرأة تغسل ثياباً على النبع ، ومعها طفل يلعب بقربها ، فأمر بنو سودون أتباعهم بذبح الغلام لا طعام الكلاب الجائعة ، ولم تنفع توسلات الأم المسكينة في منع هؤلاء عن ارتكاب جريمتهم أمام ناظري تلك الأم الملتاعة[28] .

بعد الفتح العثماني ، استمر بنو سودون في حكم جبل عامل لبعض الوقت ، الى أن نازعهم السلطة بنو وائل ، الذين تحدر منهم بنو علي الصغير ، وبنو الأسعد . وكان الوائليون قد سيطروا على الجبل في بدء هجرة الشيعة الى جنوب لبنان ، الى أن جردهم المماليك من سلطتهم وأعطوا جنوب لبنان للسودونيين الذين انقرضوا بمقتل آخر حاكم منهم على يد الشيخ حسين الصغير عند العين التي لا تزال تعرف بـ « عين سودون » بالقرب من نبع الحجير ، على بعد ثلاثة أميال شمالي نهر الليطاني . كان ذلك في منتصف القرن السادس عشر .

في المرحلة اللاحقة نازع الوائليين الاقطاع والسيادة على جبل عامل بنو شكر ، المتحدرون من سلالة الامام الحسين ابن علي ابن أبي طالب ، وتمكن الشكريون من السيطرة حتى العام ١٦٤٩ عندما أطاح بهم علي الصغير الوائلي وقضى على زعامتهم نهائياً .

مع بداية الحكم العثماني ، راح الشيعة في جنوب لبنان يتعرضون لأبشع المجازر على أيدي العثمانيين وأعوانهم من رجال الإقطاع في لبنان وفلسطين ، فقد عرف الشيعة في عهد السلطان سليم

٢٨ ـ محمد جابر آل صفا . تاريخ جبل عامل . دار متن اللغة . (بيروت) ص ٤٢ .

اضطهاداً قلما عرفه شعب بسبب انتمائه الديني ، ومما فعله الأتراك بحق الشيعة أنهم نكلوا بعلمائهم ، واستحلوا دماءهم ، وشتتوا شملهم ، وصادروا مكتباتهم ، وجعلوا مؤلفاتهم طعماً للنيران ، وفتك السلطان سليم فتكاً ذريعاً بالشيعيين المقيمين على الحدود الإيرانية ، فذبح منهم ٤٤ ألف نسمة ، كذلك قتل ٤٠ آلفاً منهم في حلب ، فشهد جبل عامل موجة نزوح شيعية جديدة ، غير أن الإضطهاد قد امتد الى الشيعة المقيمين في سوريا الجنوبية ، وكان السلطان سليم قد استصدر من علماء دمشق السنة الفتاوى باستحلال قتال الشيعة ، وهدر دمائهم ومحو آثارهم واستعباد ذراريهم ، وبأن لا تقبل لهم توبة[29] . فتعرضت إذ ذاك قرى جبل عامل لأبشع المجازر ، منها أثنتان حصلتا في قرية أنصار الواقعة شمالي جل عامل : الأولى على يد الأمير ملحم المعني سنة ١٦٣٨ ، وقد ذهب ضحيتها حوالي ١٦٠٠ قتيل ، والثانية سنة ١٧٤٣ على يد الأمير ملحم الشهابي ، وقتل فيها ما يتراوح بين ١٠٠٠ و ١٤٠٠ قتيل[30] .

هذا الإضطهاد المرير لم يثن شيعة جبل عامل عن المثابرة في كفاحهم من أجل التخلص من النير الغريب ، في سبيل التمتع بالإستقلال ، ولم يخمد كفاحهم طوال العهد العثماني . فقد أعلنوا ثورتهم على الحكم العثماني ، وعلى حلفائه من المعنيين ، في العام ١٦٦٦ ، واستمروا في قتالهم حتى العام ١٦٩٧ ، يوم انقرضت الأسرة المعنية بوفاة آخر أمرائها أحمد المعني ، وانتقلت الامارة الى الشهابيين .

٢٩ ـ للاستزادة والإطلاع على هذه الفتاوى التي صدرت عن الشيخ نوح حكيم الحنفي ، راجع : كتاب العقود الدرية في الفتاوى الحامدية . طبع (مصر ١٣٠٠ هـ) الجزء الأول ص ١٠٢ .

٣٠ ـ محمد جابر آل صفا . ص ٧١ وما يليها .

فسارع الزعيم الوائلي الشيخ مشرف الى رفع راية الاستقلال في جبل عامل . إلا أن العثمانيين وحلفاءهم من اقطاعيي جبل لبنان ، لم يعترفوا ، بهذا الاستقلال ، فعادت الحرب بين الشيعة ورجال الدولة لتشتعل من جديد ، ولم تتوقف إلا في العام ١٧٠٥ عندما تولّى مقاطعة صيدا بشير باشا الذي هادن الشيعة ورفع سلطة الأمراء اللبنانيين عنهم ، وأعطاهم نوعا من الحكم الذاتي ، فتولّى شرف الصغير الزعامة التي راحت تنتقل بالوراثة فيما بعد .

في هذه الأثناء ، قام زعيم شيعي في فلسطين ، يدعى ظاهر العمر ١٦٩٥ - ١٧٨٢ م وهو من سلالة الامام علي عبر ولده الامام الثاني الحسين ، كانت عشيرته قد هاجرت من المدينة المنورة الى بادية حماة ، فنزلت في بني أسد ، وفي هجرتها الثانية حلت في فلسطين . وكان أبوه الشيخ عمر بن أبي زيدان متولّياً على صفد وطبريا ، فخلفه في العام ١٧٠٦م ، وراح يعمل لإنشاء دولة شيعية كبرى . فاستولى على عكا في ١٧٤١م واتخذها مقراً لحكومته وراح يعززها بالأبراج والحصون . ولّما قوي شأنه ، أحالت الدولة العلية له ولاية صيدا . وعندما حاول أن يضم جبل عامل الى دولته الفتية ، اصطدم برفض الإقطاعيين الشيعة الذين تمسكوا باستقلال الجبل ، إلاّ أن هؤلاء عادوا ووافقوا على نوع من الاتحاد الفدرالي ، بموجب محالفة بين ظاهر العمر من جهة ، وناصيف نصار حاكم جبل عامل من جهة ثانية ، وقعت في عكا بتاريخ الجمعة ٨ رجب ١١٨١هـ (١٧٦٧م) .

ما أن تم هذا الاتفاق ، حتى بادر الشيعة في هذه المناطق الى خلع نير السلطة التركية ، وأبوا أن يدفعوا الضرائب، فبادرت الدولة العثمانية الى تجريد حملة عسكرية قوامها ثلاثون ألف رجل، مهمتها إخضاع

الشيعة في جبل عامل وبلاد فلسطين ، وهدم سلطتي جبل عامل وظاهر العمر . وفي الثلاثين من آب ١٧٧١م تصادم الجند العثماني مع الشيعة على ضفاف بحيرة الحولة ، حيث أباد الشيعة الفرقة العثمانية إبادة تامة[٣١] .

وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٧٧١ تعرض جبل عامل لهجوم آخر ، جاء هذه المرة من جبل لبنان ، على يد حاكمه الأمير يوسف الشهابي ، وكان خط الدفاع في النبطية - كفررمان ، هنا أيضاً كان النصر للشيعة الذين قهروا أنصار العثمانيين وردوهم على أعقابهم بعد أن أوقعوا في جيشهم الخسائر الفادحة[٣٢] .

وفي ١٠ حزيران من السنة التالية (١٧٧٢م) تآزر عثمان باشا والي الشام الذي كسره الشيعة عند الحولة ، مع الأمير يوسف الشهابي بعد هزيمته في معركة النبطية - كفررمان ، وشنا هجوماً على جبل عامل وهما على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وقد وقعت المعركة بجوار صيدا ، فانهزم المهاجمون شر هزيمة .

هذه المناعة التي اكتسبها جبل عامل بتحالف زعمائه مع الزعيم الشيعي ظاهر العمر ، الذي كان يحكم المناطق الشمالية من فلسطين ، بدأت تضعف بعد أن دالت دولة العمر ، الذي جردت عليه الدولة التركية حملة هائلة عام ١٧٧٦ ، اغتيل خلالها على يد أحد الجنود المغاربة ، وبموت العمر ، عين والياً على صيدا أحمد باشا الجزار .

---

٣١ - راجع : ادوار لاكروا . تاريخ سوريا ومصر .
تاريخ المير حيدر الشهابي . طبعة مطبعة السلام (مصر ١٩٠٠) الجزء الأول ص ٨٠٨ .

٣٢ - راجع : تاريخ المير حيدر الشهابي . الجزء الأول ص ٨٠٩ - ٨١٠ .

منذ توليه صيدا ، راح الجزار يحاول إخضاع جبل عامل للأمبراطورية العثمانية ، مجرداً عليه الحملة تلو الحملة ، وكان لا يزال الشيخ ناصيف نصار يتزعم الجبل ، واستمر يقود المدافعين عنه ببسالة حتى العام ١٧٨٠م حين تمكن الجزار من التغلب على نصار في قرية يارون ، حيث أصيب الأخير خلال إحدى المعارك وخرّ قتيلا ، فسارع جنود الجزار الى اكتساح البلاد واحرقوا القرى ودمروا المنازل ، وسلبوا المؤلفات النفيسة التي كان يملكها الشيعة ، وأرسلوها الى عكا حيث أتلفت . وأسرف رجال الجزار في الشعب الشيعي قتلاً وذبحاً ، وقبضوا على وجهائه ، وأرسلوهم الى سجون عكا حيث ماتوا خنقاً ، وشرد من بقي منهم في البلاد المجاورة ، وهاجر بعضهم الآخر الى البلاد النائية ، كالهند والعراق وايران والأفغان ، حيث التحقوا بالفرق الشيعية هناك . كما قصد البعض الآخر جبال حلب والأنضول ، ونزح آخرون الى عكار . ومن بقي في البلاد أصبح خاضعاً مرغماً للسلطة العثمانية ، وبذلك طويت صفحة استقلال جبل عامل[٣٣].

احتل الجزار الجبل ، وطبق عليه حكماً عسكرياً صارماً ، وبعد مرور ثلاث سنوات ، بدأ الشيعة يعملون سرّاً لاستعادة استقلالهم ، فقرروا أن يبدؤوا بمحاربة الأتراك عن طريق حرب العصابات التي تزعم أولاها الشيخ حمزه بن محمد النصار من آل علي الصغير ، وتقرر أن يدير شؤون الثورة الشيخ علي الزين . وكانت أولى عمليات تلك العصابات أن هاجم رجالها معتمد الجزار في قلعة تبنين ، وذبحوه ذبح النعاج ، وقتلوا جنده وأعوانه .

سارع الجزار للانتقام ، فأرسل فرقة من جنوده تتعقب الثوار ،

٣٣ ـ محمد جابر آل صفا . ص ١٣٧

الى أن داهمتهم في قرية شحور ، حيث نشبت معركة قتل بخلالها قائد الثوار الشيخ حمزة . إلا أن العصابات استمرت في أعمال التخريب في عهد الجزار ، وخلفه سليم باشا ، أما الخلف الثالث ، سليمان باشا ، فرأى أن تلك الأعمال قد اتخذت حجماً من الخطورة لا يمكن الإستمرار معه ، فعمل على عقد اتفاق مع الثوار قضى بأن « لا يكون دخل في حكم البلاد ولا سلطة لموظفي الدولة عليهم ، وإنما يرجعون في أمورهم وفصل الخلاف الذي يقع بينهم الى شيخ المشايخ فارس الناصيف . فهو يمثل والي صيدا تجاه الحكومة ، وبه تحصر المخابرات ، وعليه تعود المسؤولية ، وقد وافقت الاستانة على هذه المعاهدة التي أعطت الشيعة نوعاً من الاستقلال الذاتي الرمزي . وقد عدلت هذه المعاهدة في العام ١٨٢١م في عهد ولاية عبد الله باشا على صيدا ، وبموجب التعديل ، أعيد لحكام جبل عامل حكم بلادهم كما كانوا سابقاً ، وضمت اليها مقاطعة مرجعيون على أن يمدوه بألفي مقاتل عند الطلب[٣٤] » .

إلا أن الاستقلال المقيد ، سقط مع احتلال الجيش المصري عام ١٨٣٢ .

* * *

ضم المصريون جبل عامل الى إمارة جبل لبنان ، وكان أمير لبنان آنذاك بشير الثاني الذي ولّى ولده مجيداً إدارة مقاطعات جبل عامل ، فتذمر الشيعة من حكم مجيد الذي « صب غضبه على الشيعيين وأرهقهم ظلماً وساق مئات منهم الى السجون . . . وحقر علماءهم ،

٣٤ ـ محمد جابر آل صفا . ص ١٤٠ ـ ١٤٣

فكان نتيجة هذا ، بالاضافة الى الضغط والشدة التي اتخذهـا بعض العمال المصريين في جبل عامل وبعلبك ، ومن جراء اتخاذهم سياسة العنف والازدراء بزعماء الشيعـة وعلمائهـم ، وبسقـوط الحكومـة الإقطاعية التي كانت قد نشأت نتيجة المعاهدة المعدلة بين العثمانيين وأبناء الجبل ، ثار الشيعة في جبل عامل وبعلبك ، وكان قائدا الثورة ، في الجبـل ، حسين بك الشبيب ، وفي بعلبك ، الأمير جواد الحرفوش[35] » .

قوبلت الثورة بالقمع العنيف من قبل الدولة المصرية ، فسارعت الى القبض على حسين الشبيب وإعدامه ، إلاّ أن الثورة قد استمرت رغم ذلك ، وتبعتها ثورة جديدة نشبت في جبل عامل بقيادة حمد بك المحمود ، من آل علي الصغير ، في العام ١٨٤٠ ، وتمكن بعد قتال ضار مع الأمير الشهابي مجيد ، من صده ، ومن ثم من فرض نفسه على الإدارة العثمانية التي انتزعت سوريا من المصريين ، فانضم الشيخ الوائلي حمد مع فرقة كان يقودها الى الجيش العثماني ، وأظهر ضروباً من البسالة ، لفتت نظر عزت باشا قائد الجيش التركي ، الذي عيّن حمداً حاكماً على جبل عامل ، وعهد اليه بمطاردة الجيش المصري في الجنوب .

« عاد حمد البك الى جبل عامل وانقضّ على الجيش المصري ، فاشتبك معه في معارك عدة ، فكان النصر حليفه ، واستولى على صفد وعين الشيخ ، وجعل حمدا الغزي . . . حاكماً لها ، واستولى على طبريا ، والناصرة ، وأجلى عمال المصريين منها . وتولى إخراج الأسرى

٣٥ ـ محمد جابر آل صفا . ص ١٤٧

والسجناء الذين حشرهم المصريون في سجون عكا[36] » .

وبذلك عاد جبل عامل الى الاستقلال الذاتي ، وترأس الحكم فيه حمد البك الذي بلغ مرتبة رفيعة في الدولة العثمانية . ومنذ ذلك الحين ، نشأ نوع من التحالف بين جبل عامل ، والعثمانيين .

بوفاة حمد البك سنة ١٨٥٢ ، خلفه علي بك الأسعد ، بمعاونة أخيه محمد بك الأسعد ، إلاّ أن شهر العسل بين العثمانيين وشيعة جبل عامل لم يدم طويلاً . إذ بعد وقت قصير استدعي علي ومحمد الأسعد الى دمشق من قبل واليها ، بحجة إعطائهما بعض الأوامر المقتضبة ، فوافياها ، وقد داهمهما الهواء الأصفر ، فلم يلبث الأول أن قضى نحبه في العام ١٨٦٥ ، وتوفي الثاني بعده بأربعة أيام ، وقيل انهما ماتا مسمومين[37] » فسارع الباب العالي إلى الغاء أيالة صيدا وضم مقاطعاتها الى أيالة الشام ، تحت اسم ولاية سوريا . . وسقطت الحكومة الاقطاعية الشيعية الأخيرة في جبل عامل ، وزال الحكم الشيعي الذاتي في جنوب لبنان .

مرة أخرى ، حاول الشيعة نيل الحكم الذاتي لجبل عامل ، على طريقة اللامركزية ، وتكونت في النبطية جمعية على رأسها الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ، ومحمد جابر آل صفا ، راحت تبث « بين الشعب العاملي فكرة الانتفاض على الحكومة ومناوأتها ، والمطالبة . . . بالحكم الذاتي على طريقة اللامركزية[38] » إلا أن ذلك لم يتحقق .

٣٦ ـ محمد جابر آل صفا . ص ١٥٠ ـ ١٥١
٣٧ ـ محمد جابر آل صفا . ص ١٥٨
٣٨ ـ محمد جابر آل صفا . ص ٢١٠ .

وقبل أن يعود جبل عامل الى الوطن اللبناني ، شهد بعض الأحداث المعبرة عن استمرارية رغبة أهله في الحكم الذاتي . فعندما قام الأمير فيصل بحركته العربية في نهاية الحرب العالمية الأولى ، نشأت الاتصالات بينه وبين زعماء الجبل ، وأوفد فيصل برسالة لكامل بك الأسعد يستحثه فيها على مهاجمة السّواحل وطرد الأتراك منها ، ورفع الراية العربية في أنحاء جبل عامل ، فآثر كامل بك الحذر ، وتريث الى أن تأكد له انكسار الأتراك ، فأرسل في ٣ تشرين الأول ١٩١٨ نصّاً عن رسالة فيصل الى كل من محمود وفضل الفضل وتقرر أن يجتمع أعيان جبل عامل في النبطية حيث تمت إذاعة الرسالة ، وفي ٥ تشرين الأول ١٩١٨ قدم كامل الأسعد النبطية برفقة مبعوث الملك فيصل ايليا الخوري ، والراية العربية تخفق أمامهما ، ورفعت في أعلى دار آل الفضل .

إثر ذلك تم انتخاب رياض الصلح « رئيساً لحكومة صيدا » التي كان يديرها رئيس البلدية منذ انسحاب الأتراك ، واختير لصور حكومة برئاسة الحاج عبد الله يحيى الخليل . إلا أن الوائليين رفضوا حكومة رياض الصلح فناوأه كامل بك الأسعد ، وتصاعدت في جبل عامل المطالبة برفع سلطة حكومة رياض الصلح عن الجبل ، باعتبار أن كامل الأسعد هو حاكم المقاطعة كلها ، والمندوب لإدارة شؤونها بأمر من فيصل .

وبينما بدأ زعماء الشيعة وعلماؤها في جبل عامل تحركهم لإسقاط حكومة رياض الصلح وشنوا « الحملة على مناصريه من العامليين الشيعيين » وصلت حملة عسكرية فرنسية الى صور وصيدا في طريقها الى بيروت ، فعين الضابط الفرنسي (فيجل) لإدارة حكومة صيدا

وملحقاتها ، وأرسلت قوة الى النبطية ، نشرت في الساحة العمومية الإعلان التالي نصه :

« باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة ، انكلترا وفرنسا والشرفاء ، يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من أي نوع كان . ومن خالف ذلك ، عدّ مسؤولاً ومستهدفاً للجزاء » وحمل الاعلان توقيع « حاكم صيدا العسكري . فيجل » باسم « الحلفاء الثلاثة » وتاريخ ١١ تشرين الأول ١٩١٨ .

مع نشر هذا الإعلان الذي وضع مثله في صيدا وصور ومرجعيون وصفد ، انفرط عقد المؤتمرين الشيعة ، وفي ٢٤ تشرين الأول ، نشر إعلان آخر في النبطية والطيبة جاء فيه : « يمنع الاجتماع والمداولة في صيرورة البلاد العائد حل قضيتها للحلفاء الثلاثة » ولم يمض أسبوع على ذلك ، حتى استقال رياض الصلح من حاكمية صيدا بتاريخ ٢٩ تشرين الأول بايعاز من الحاكم العسكري الذي انفرد بالحكم .

قابل كامل الأسعد الاجراءات الفرنسية بالرفض ، ودعا الى اجتماع في الرابع والعشرين من نيسان ١٩٢٠ ، حضره أعيان الشيعة ، تقرر بنتيجته « الانضمام الى الوحدة السورية ، والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكاً على سوريا ، ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب الفرنسيين » .

في الوقت ذاته ، بدأ الشيعة يشكلون الفرق للقيام بحرب العصابات ضد الافرنسيين ، ثم راحوا يقومون بأعمال تخريبية ، منها ما ألحقت بالجنود الفرنسيين أضراراً مباشرة ، مما جعل الفرنسيين

يجردون حملة على جبل عامل ، احتلوا خلالها دار الأسعد في الطيبة ، وكان كامل بك قد غادر الى دمشق عن طريق فلسطين ـ الجولان . وفرض الفرنسيون الأمن بقوة السلاح .

قبل الانتقال الى تاريخ الشيعة الحديث في لبنان الكبير ، لا بد من ذكر لمحة عن الشيعة اللبنانيين القاطنين في غير مناطق عن جبل عامل ، وخاصة في بعلبك والهرمل ، ومنهم نفر قليل في بلاد جبيل ، أما الذين يقطنون في ضواحي العاصمة فهم نازحون حديثاً من الجنوب والبقاع .

يعود نسب بني حمادة الى بلاد العجم ، وقد هاجر جدهم حمادة من « بخارا » في ايران ، ومعه أخوه أحمد وأهله وعشيرته ، ونزلوا « الحصين » من جبل لبنان . ثم انتقلوا الى قهمز ، ومن هناك تفرقت عشيرتهم في جبة المنيطرة ووادي علمات ، كما سار أولاد أحمد الى بعلبك ، وتولوا بلدة الهرمل . كان ذلك في منتصف القرن الخامس عشر . ولم يمض وقت طويل حتى تولّى الحماديون على بلاد جبيل بعد أن تقربوا من بني عساف ، الذين كلفوهم ببعض المهمات القتالية ، ومن ثم اتسع التزامهم الاقطاعي حتى شمل بلاد البترون . وتوطن بعضهم في لاسا ، وتملكوا مزارع في الكورة والزاوية ، كما استولوا على أراض في شمسطار وبعلبك[39] .

بقي الحماديون يتولون على بعض مناطق جبل لبنان والشمال حتى أواخر القرن الثامن عشر ، إذ انحسروا في المناطق البقاعية التي ما

٣٩ ـ الشيخ طنوس الشدياق . أخبار الأعيان في جبل لبنان . إصدار بطرس البستاني (بيروت ١٨٥٩) الجزء الأول . ص ٢٠٦ وما يليها .

زالوا يستوطنون فيها حتى اليوم . وقد التحقت بهم في ظروف مختلفة جماعات أخرى من الشيعة ، حتى أصبحت مناطق بعلبك ـ الهرمل على الكثافة الشيعية التي هي عليها اليوم ، إلا أن هذه المنطقة ظلت بعيدة عن مفاهيم القومية والحكم الذاتي ، وبقي الجنوب اللبناني (جبل عامل) مركز الشيعة شبه القومي في لبنان .

* * *

إن الرفض الذي أبداه الشيعة عندما أعلنت دولة لبنان الكبير التي ضمت المناطق الشيعية ، لم يدم طويلاً ، فلقد « أقلع جانب كبير من الشيعة عن مقاومة الدولة الجديدة ، إذ أدركوا ، تدريجياً ، أن وضعهم كأقلية كبرى في لبنان ، خير لهم من وضعهم كأقلية صغيرة في دولة سورية شاملة[40] » . إلا أن مأخذهم الكبير بالنسبة لميثاق لبنان الجديد ، كان مبنياً على اعتبار أن ذلك الميثاق قد جاء نتيجة تفاهم بين الطائفتين المارونية والسنية ، دون أن يشترك الشيعة في رسم خطوطه . وقد أعطى التقليد الجديد للشيعة رئاسة السلطة التشريعية ، مع حفظ حقوقهم في الوظائف والمناصب .

في الوقت الذي كانت فيه المناطق اللبنانية الأخرى تشهد نمواً سريعاً لأسباب متعددة ، أهمها قرب تلك المناطق من العاصمة بيروت ، وكون أكثريتها صالحة للإصطياف ، وقد شهد بعضها ازدهاراً بسبب قدوم أغنياء النفط اليها لتمضية فصل الصيف ، وبعضها الآخر كان مقصد الأسر البيروتية الميسورة للحاجة نفسها ، كما كانت أموال المغتربين الذين غادروا جبل لبنان بدءاً من أواخر القرن

٤٠ ـ كمال الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . ص ٢١٣ .

التاسع عشر قد ساهمت الى حد كبير في عمران تلك المناطق التي تحررت من نير الاقطاع ، السياسي والاجتماعي ، منذ زمن بعيد . . . في هذا الوقت ، كانت المناطق الشيعية الواقعة على أطراف لبنان تعاني شيئاً من الجمود ، ولم تبدأ الهجرة الشيعية إلا في الأوقات المتأخرة ، عندما فتحت دروب الاغتراب الى افريقيا ، مما جعل تلك المناطق في تخلف واضح بالنسبة للازدهار الذي وصلت اليه مناطق جبل لبنان . كما أن الاقطاع بقي مسيطراً في الجنوب والبقاع ، مما ساهم في التأثير السلبي على تطور القوم في مختلف المجالات

وبينما تأسست في دولة الاستقلال أحزاب مختلفة النزعات والأهداف ، ضمت أبناء الطبقات المختلفة ، وقد عمّت تلك الأحزاب المناطق المسيحية والدرزية والسنية على السواء ، بقيت المناطق الشيعية مفتقرة الى مثل هذا التطور السياسي الاجتماعي ، وظل الإقطاع يمثل الحزب بالنسبة لابن الجنوب ولابن البقاع ، واستمر الانتساب الى الزعيم الاقطاعي يقترن بنوع من الإعتبار الحزبي فيقال : فلان من حزب فلان (الزعيم الاقطاعي) .

اغتنمت الأحزاب اليسارية ذات الانتماءات المختلفة هذا الوضع ، فراحت تعمل في أوساط المثقفين الشيعة ، وقد استهوت هؤلاء المبادىء التي تنادي بها الأحزاب اليسارية عادة ، مما أدى الى بروز تيار جديد ، متعدد الانتماءات ، إلاّ أنه موحد المنطق ، وهو منطق المعاناة من عدم التقدم . وهكذا وجدت أكثر الأحزاب العقائدية تربة خصبة لها ، خاصة في المناطق المحيطة ببيروت ، وهي تلك التي عرفت بحزام البؤس ، وقد تكون ذلك الحزام من البؤساء والكادحين الذين هجروا الجنوب والبقاع قاصدين المدينة للعمل والإرتزاق .

وصادف أن أقام هؤلاء في المناطق المتاخمة لتلك التي أقيمت عليها مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، الذين جمعهم بالشيعة نوع من وحدة الشعور بالغبن والبؤس والحرمان . ومثلما كانت التربة الشيعية صالحة لتقبل الأفكار العقائدية اليسارية ذات الشعارات التي تعد بمستقبل أفضل للكادح وللمحروم ، فقد كانت التربة الفلسطينية ، في المخيمات ، مرتعاً أخصب لمثل هذه الدعوات ، لا بل سرعان ما حمل الفلسطينيون لواء تلك الدعوات ، وأشركوا ، جيرانهم وشركاءهم في الأوضاع المعيشية السيئة : الشيعة ، في العمل المتحمس للأحزاب ذات الميول اليسارية المتعددة .

لم يمض وقت طويل ، حتى أصبح الشيعة عموماً ، مقسومين الى تيارين اجتماعيين : المحافظ ، وهو الذي ما زال يرضخ للمفاهيم والاعتبارات الإقطاعية ، والثوري ، وهو الناقم على الأوضاع الاجتماعية السيئة ، الباحث عن وسيلة من شأنها أن تبدل في شروط معيشته ، دون اعارة الكثير من الاعتبار لباقي أهداف الحزب الأيديولوجية . ونظراً لكون الشيعي ، يختلف عن السني في المفهوم الديني ، إذ هذا الأخير لا تسمح له سنيته بأن يكون شيوعياً ، أو اشتراكياً ، أو قومياً سورياً ينادي بفصل الدين عن الدولة ، فقد انخرط عدد لا بأس به من الشيعة في مثل هذه الأحزاب ، وبدا وكأن أكثرية الشيعة تنجرف لتصب ، مع التيار ، في بحر اليسار . ولم تنجح المحاولات الخجولة والبطيئة لزعماء الاقطاع في كبح جماح هذا التيار ، وبقي لدى بعضهم اعتقاد بأن أزلامهم الموروثين ، لا بد وأنهم عائدون في النهاية .

ففي المعركة الانتخابية النيابية قبل الأخيرة ، وكان المؤلف يحاول

بواسطة مهنته الصحافية ، المساهمة في رفع مستوى الاختيار النيابي ، عن طريق تشجيع المرشحين على إصدار بيانات انتخابية ، قصد أحد كبار الاقطاعيين السياسيين في الجنوب الشيعي ، وسأله عن بيانه الانتخابي ، فأجاب بكل برودة ، وهو يضحك : « بيان انتخابي ؟ . . ولماذا البيان الانتخابي ؟ أنا لدي عشرة آلاف حمار ، ينتخبونني ، ببيان وبلا بيان ، وليس من شأن البيان أن يزيدهم أو أن ينقصهم صوتاً واحداً . . . »

وعندما لفته المؤلف الى أنه من واجبه نشر هذا الكلام ، أجاب بالهدوء والخفة نفسيهما : « . . . ألم تفهم ؟ قلت لك انهم حمير ، فما الفرق إن نشرت أقوالي أو لم تنشرها ؟ » .

إلا أن هذا الاعتبار الاقطاعي الجامد ، كان خاطئاً ، إذ سرعان ما دلت الأحداث على أن الشعب الشيعي ، الذي اعتاد على « التقية » يعرف أن يصبر ، ولكنه يعرف أيضاً متى وكيف يثور .

الشيعة في الحرب اللبنانية

وعندما بدأت حياكة المؤامرات لنسج المخططات المتعددة الهويات ، كان قسم كبير من الشيعة قد أصبح خارج دائرة الاقطاع ، وقد التحم عدد من هؤلاء بالمقاومة الفلسطينية . بينما أعطى القسم الباقي ولاءه للأحزاب العقائدية التي ، هي الأخرى ، وضعتها اللعبة الدولية في خندق المقاومة ، أو وضعت المقاومة في خندقها لا فرق .

هنا جاءت الظاهرة اللغز .

والظاهرة التي أصبحت لغزاً فيما بعد ، هي : الامام موسى الصدر .

علامات استفهام كثيرة رسمت حول دور الامام السيد موسى الصدر في الأحداث اللبنانية الأخيرة ، وحول الظروف التي سببت إختفاءه في أواخر آب ١٩٧٨خلال زيارته لليبيا . ولكن الثابت ، بعيداً عن الاجتهادات ، أن الامام الصدر ، سليل الأئمة ، اللبناني الأصل الذي ترعرع وتعلم في ايران ، قد تفهم أوضاع الشيعة اللبنانيين على حقيقتها . فراح في البدء يعمل على تأسيس المرجع الحي لطائفته ، فأعاد الاعتبار الأساسي الى مجلس العلماء ، وأعطى المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى زخماً واعتباراً هامين ، مما أعاد وضع الطائفة الشيعية على القواعد الاجتماعية التقليدية ، فيما يختص بارتباط الفرد سياسياً وحياتياً . وكان التحرك المنتج للإمام ، الذي راح يستقطب الشيعة ، ليزعج الزعماء التقليديين : الاقطاعيين . ولم يمض وقت طويل حتى التف حول الامام عدد كبير من التيارين الشيعيين : المحافظين السائرين في أحزاب الاقطاع ، والثوريين الملتحقين بأحزاب اليسار والمقاومة الفلسطينية ، وعندما بدأت بوادر الحرب اللبنانية ، كان الامام موسى الصدر قد أضحى المحاور الأول باسم الشيعة ، وبدا وكأن نجوم سائر زعماء تلك الطائفة ، غير المنضوين تحت راية الامام ، سائرة نحو الأفول . وما كادت الحرب أن تستشري ، حتى أدت حادثة انفجار في مخيم للتدريب في البقاع الى انكشاف أمر منظمة مسلحة تابعة للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ، وللإمام مباشرة ، وقد برر الزعيم الديني الشيعي إقدامه على إنشاء هذه المنظمة بأنها ستعمل على المحافظة على الطائفة من الأخطار التي تحدق بها في الجنوب ، وقال أن « اسرائيل لو احتلت جنوب لبنان لزادت قوتها ثلاثين بالمئة . . . وهنالك المأساة مع الاعتداءات المتكررة ، ومع النزوح والدمار وقرب شبح الاحتلال . . . إن الحل

الوحيد هو في حمل السلاح . إن على المواطن العادي أن يحمل السلاح ويقوم بالمسؤولية العفوية التي لا تنفصل عن كيانه وعن شرفه وعن تاريخه . . . وبذلك يضع نفسه ودولته والعرب والعالم أمام أمر واقع »[41] .

إلاّ أن هذا التبرير لإنشاء منظمة « أمل » المسلحة ، قد ناقضته الأحداث ، إذ تبين ، بعد سنة ونيف على اندلاع الحرب اللبنانية ، ان رجال الامام قد اشتركوا في الحرب اللبنانية ـ الفلسطينية ـ الأهلية . وعندما تحدث الامام عن الحرب في كانون الأول ١٩٧٦ قال : « إن الشيعة كانوا في طليعة من تصدوا لإحباط المؤامرة الدولية الرامية الى التقسيم في شكل دويلات طائفية تكون بمثابة ٣ قواعد : واحدة للغرب ، والثانية للشرق ، والأخرى لاسرائيل ، بمعنى آخر تحطيم صيغة التعايش اللبناني الذي كان مثالاً حضارياً للعالم كله . وبكل فخر أقول أن الشيعة قاتلوا لإحباط هذه المؤامرة وقدموا ضحايا كبرى لعلها أكثر من ضحايا الآخرين ، ولكنهم أحبطوا المؤامرة بالدفاع عن أحيائهم أينما كانت ، وبحماية المقاومة ومحاربة التقسيم . . . إن الشيعة دفعوا ١٥ ألف قتيل وحوالي ألف معاق وقريباً من ٥٠ ألف جريح . إن الشيعة قدموا هذه الخسائر بارادة قيادية[42] » .

هذه « الإرادة القيادية » تعرضت للتشكيك قبيل اختفاء الامام ، إذ كثر اللغط حول الموقف الحقيقي للامام ، فقيل انه كان أحد رواد التقسيم ، والعاملين على تنفيذ مخططه ، وانه قد سهل سقوط النبعة وأمر رجاله بالاستسلام . إلا أن نائب الامام في رئاسة المجلس

---

٤١ ـ « الحوادث » العدد ٩٥٠ الجمعة ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٥ ص ٨

٤٢ ـ « الحوادث » العدد ١٠٥٠ الجمعة ٢٤ كانون الأول ١٩٧٦

الإسلامي الشيعي الأعلى ، الشيخ محمد شمس الدين ، يرد هذه التهمة الى مطلقيها من أحزاب اليسار ، وبرده يصبح اليسار هو المتهم بعملية تسهيل سقوط النبعة ، واستطراداً بالعمل على التقسيم ، إذ يقول : « . . . أنا أشهد أمام الله أن سماحة الإمام الغائب سواء في نطاق المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى ، أو على صعيد جهده الشخصي ، لم يدخر وسيلة إلاّ ووظفها في سبيل ضمان سلامة النبعة ، عن طريق تحييدها ، أو عن طريق آخر يضمن لها الأمن والأمان ، ويوفر لسكانها الغطاء النفسي الذي يشجعهم على البقاء فيها وعدم مغادرتها ، لكن مساعينا ، بكل أسف ، لم تكلل بالنجاح ، رغم أنها مساع انطلقت من كل الاتجاهات ، لقد اتصلنا بكل الوسطاء والفرقاء : من المقاومة الفلسطينية والجيش ولجان الارتباط ، ولكن الرياح لم تجر كما نشتهي ، ووقع المحظور ، ونفذت الجبهة اللبنانية خطتها في اقتحام النبعة بالشكل الذي حدث . وبالقتل والتهجير ، وذلك بالرغم من وجود ما يفوق عن عشرين تنظيماً مسلحاً ، يسارياً وفلسطينياً ، داخل البلدة . . . نحن أكثر الأطراف براءة ، والأكثر صدقاً في مواجهة مصير النبعة والحرص على سلامتها . . . مع ذلك كانت الضحيّة البريئة هي سماحة الإمام الصدر.[43] » .

الثابت أن الامام كان من أقطاب القوى التي صنعت الحرب في لبنان . ولقد كان سماحته مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بآية الله الخميني وعلماء ايران ، وإذا كانت ظاهرة خلاف الامام الصدر مع اليساريين بعد المرحلة الأولى من الحرب اللبنانية قد بدت غريبة عند حصولها ، فهي أصبحت مفهومة بعد الصدام الذي حصل في إيران بين الشيعة

---

٤٣ ـ « الحوادث » العدد ١١٦٠ الجمعة ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٩ ص ١٣ .

الخمينيين من جهة ، واليسار من جهة أخرى ، على أثر تحقيق الهدف الأول من الثورة الإيرانية باسقاط نظام الشاه ، فالاستراتيجية هناك كانت تقضي ، أولا ، باسقاط نظام الشاه ، وهي كانت مشتركة بين العلماء واليساريين ، أما الأهداف فهي على طرفي نقيض ، إذ بينما كان المسلمون الشيعة يعملون لإنشاء جمهورية إسلامية ، كان اليساريون يعملون لإنشاء جمهورية علمانية ، وهكذا كان لا بد من المواجهة بين حلفاء الإستراتيجية الأولى بعد تحقيق مرحلتها .

أما في لبنان فقد كانت الاستراتيجية المشتركة الأولى تقضي بالقضاء على الصيغة والنظام ، أما المرحلة الثانية ، فكانت مختلفة بين الشيعة واليسار ، كما هي الحال في ايران . إذ بينما كان الشيعة ، بقيادة الامام الصدر ، يعملون ، إما للوصول الى انتزاع الرئاسة الأولى ، بصفتهم الطائفة الأكثر عدداً في البلاد وإلاّ ، وفي حال نجاح مخطط التقسيم ، إنشاء وطن قومي شيعي يعيد لجبل عامل استقلاله الذاتي ، كان اليسار يعمل للعلمنة ، وللإستيلاء على السلطة عن طريق الغاء الطائفية .

إن كثرة التناقضات في مواقف الامام الصدر ، قد ساعدت المجتهدين في التأويل والتشكيك . وكان أول المشككين بمواقف الامام الغائب الزعيم الوائلي ، الرئيس كامل الأسعد الذي حمل على الامام الصدر في بداية الأحداث ، عندما قام الأخير بحملة ضد الحكم ، فقال الأسعد أن « أصحاب الحملة يمزجون بين النقمة على الدولة وبين النقمة على لبنان كوطن . فاذا كفر المواطن بالمصير من جراء الحملة بوطنه ، كفر بكل القضايا ، وكفر بقضية فلسطين وارتباطة بالمصير العربي ، وهنا سيقع فريسة سهلة لاحتلال اسرائيل النفسي له ،

هذا الاحتلال النفسي الذي إذا تم ، يسهل على اسرائيل تحقيق كل أطماعها ، من هنا يلتقي أصحاب الحملة مع الصهيونية العالمية . . . ولو أردت تعداد القرائن لقلت أن بعض أصحاب الحملة على علاقة مباشرة مع اسرائيل . . . ولكنني قلت فقط انهم يلتقون مع مخططات اسرائيل ، لأنني لا أملك المعلومات الكافية . . إن أكثر من علامة استفهام تطرح حول المخطط الذي ينفذه موسى الصدر ، ومن يقف وراءه داخلياً وخارجياً ، وإبعاد هذا المخطط لبنانياً وعربياً . . . [٤٤] » .

إن ما عناه الرئيس كامل الأسعد بعلاقات الامام الخارجية ، كان قبل كل شيء ، علاقته بآيات الله . . . فان العلاقة « بين الامام الخميني والامام الصدر ترقى الى مستوى القرابة بين الرجلين من حيث أنهما ينتسبان الى الأسياد الذين يتحدرون في تاريخ الطائفة الشيعية من آل بيت النبي محمد . ثم إن هناك وجوهاً أخرى للقرابة ، فابن الامام الخميني السيد أحمد متزوج من ابنة أخت الامام الصدر ، وابن أخت الامام الصدر السيد مرتضى الطبطبائي متزوج من حفيدة الامام الخميني . والامام الصدر تتلمذ على يدي الامام الخميني في اكتساب العلوم الدينية عندما كان تلميذاً في جامعة قم الإيرانية . . . وبداية التعاون بين الإمامين في مجال التحضير للثورة الإيرانية ترجع الى عام ١٩٦٣ ، فمنذ ١٥ سنة ، انفجر الخلاف بين شاه ايران وبين رجال الدين الشيعة عندما رأى هؤلاء في نظام الشاه نسخة طبق الأصل عن النزعة الآتاتوركية في تركيا ، وتغييراً عملياً للقواعد الإسلامية باتجاه إعادة ربط ايران بالنزعة الآرية ، وقد استمر التعاون بين الصدر والخميني حتى يوم اختطاف الأول ، وكان ذلك التعاون قائماً في مختلف

٤٤ - « الحوادث » العدد ٩٤٧ الجمعة ٣ كانون الثاني ١٩٧٥ ص ١٠ - ١١

المجالات[٤٥] . . . »

ولقد جاء اختفاء الامام الصدر قبل أيام من ثورة الخميني الظافرة ليزيد في طرح علامات الإستفهام إلحاحاً ، خاصة بعد ما جاء على لسان الخميني من « أننا نفكر بلبنان منذ سنوات طويلة ، لأننا نعرف أنه جزء من البلدان الإسلامية » ليس هذا كل ما ذكره الامام الخميني عن لبنان ، بل انه « اعتبر جبل عامل في جنوب لبنان منطقة مقدسة للإسلام والشيعة ، ودعا أهل الجنوب للتحالف مع المقاومة الفلسطينية لضمان حصولها على الحقوق الفلسطينية ومنع توطين الفلسطينيين في الجنوب[٤٦] » .

إن في قول الخميني كثير من الشرح للموقف الحقيقي للإمام الصدر من قضية الجنوب . فالامام الصدر ، وهو تلميذ الخميني وحليفه وقريبه ، كان يسعى للحفاظ على الهوية التاريخية لمنطقة الجنوب ، تلك الهوية التي جاء تفنيدها في بداية هذا البحث : الهوية الشيعية . وإن العمل على المحافظة على هوية طائفية ضمن وطن معين ، لا يعني في حال من الأحوال العمل ضد التقسيم ، إنما بوسع ذلك أن يعني العمل ضد التوطين : توطين الفلسطينيين في جنوب لبنان . وتجدر هنا الإشارة الى أن توطين الفلسطينيين في جنوب لبنان ، وإن بدا ، حتى الآن ، مرفوضاً من قبل الفلسطينيين في العلن ، فكل الدلائل تشير الى انجراف المقاومة الفلسطينية في مؤامرة توطين الفلسطينيين في جنوب لبنان ، فهل ذهب الامام الصدر ضحية مؤامرة التوطين هذه ؟ .

٤٥ ـ « الحوادث » العدد ١١٦٤ الجمعة ٢٣ شباط ١٩٧٩ ص ١١ ـ ١٢ .

٤٦ ـ « راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٧ الجمعة ١٦ آذار ١٩٧٩ ص ١٧ .

قد يكون في موقف نائب الإمام الغائب من قضية التوطين ومن تصرفات المقاومة الفلسطينية ما من شأنه أن يؤكد هذا الإفتراض .

نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين ، خلال مناسبة خاصة جمعت المثقفين الجنوبيين في منطقة برج البراجنة ، كشف النقاب عن مؤامرة تجري في الجنوب لاستملاك أراضي الشيعة من قبل الفلسطينيين . وبادر بتحديد واضح وصراحة تامة « الى دعوة أهالي الجنوب لحمل السلاح فوراً والتصدي لمخطط التوطين . . . ومحاكمة كل جنوبي يثبت إسهامه في بيع الأراضي للغير تحت تأثير الاغراءات المادية ، وذلك على طريقة محاكم الميدان ، واعتماد أسلوب إهانته بعد تحذيره ، ثم ضرب مصالحه ، ثم قتله إذا تمسك بموقفه المشجع لعوامل انتقال الملكية في الجنوب من أيدي الجنوبيين الى أيدي . . . الأجانب والغرباء[٤٧] » وربط نائب الامام الغائب ربطاً واضحاً بين هذه الدعوة الى التحرك في الجنوب ، وبين تحرك شيعي مركز لا بد وأن يحقق أهدافه .

كذلك كانت للإمام الغائب نفسه مواقف في اجتماعات مغلقة ، من شأنها أن تنذر المقاومة الفلسطينية وحلفاءها بخطر الرجل عليهم ، ففي اجتماع قمة عرمون المنعقد في ١٣ أيار ١٩٧٦ ، قال الامام الصدر موجهاً كلامه لعرفات :

« . . . الملاحظ أن تطور الأحداث يقرب بين المقاومة الفلسطينية والأحزاب ، وهذا يدعونا للمرارة والقلق ، وأنا أعرف « أبو عمار » المؤمن المجاهد ، وإن قاعدة القدس هي الايمان ، القدس

٤٧ ـ راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٢ الجمعة ٥ شباط ١٩٧٩ ص ٦ .

لا يمكن أن يقبل بالشيوعية ، وأنت ضمان للمؤمنين ، فعندما يقال أن هناك تحالفاً ، لا يمكن أن يفصل ، بين المقاومة والأحزاب وبين الشيوعيين ، كل القوى الوطنية في الساحة مرتبطة بالقيادة ، نشاهد أبان المعركة أن التلاحم يتعاظم بين المقاومة والحركة الوطنية ، فكيف نعقد قمة إسلامية والواجهة السياسية هي الأحزاب؟ اليوم نحن نشعر أن هذه المسؤولية الأساسية لإيماننا ولصيانة عقائد أبنائنا تجعلنا نشعر بقلق إزاء المستقبل ، الجماعة (يقصد الأحزاب) كانوا يريدون امتيازات وأخذوها . . . » وختم الامام كلامه لرئيس المقاومة الفلسطينية بتهديد مهذب إذ قال : « ليس للمقاومة الفلسطينية من ترس يدفع عنها البلاء إلا المؤمنين في هذا البلد ، إذا انتقل الأمر الى أيدي الشيوعيين وغير المؤمنين فستكون كارثة[48] . . . »

لم يظهر من ياسر عرفات ، خلال ذلك الاجتماع ، ما من شأنه أن يشكل توافقاً بين الامام الصدر وبينه ، بل ادعى عرفات بأن « الأحزاب لم تحصل على شيء » بعكس ما قاله الامام . ورد عرفات كذلك بكلمة مبطنة من شأنها أن تفيد عن عدم استعداده للتخلي عن تحالفه مع الأحزاب إذ قال :

« أنا لست طائفياً . . . ولكن أعرف أن المسلمين وقفوا معنا . . .[49] » .

إلا أن ما تجدر الاشارة اليه هنا ، أنه بعد يومين على هذا اللقاء ، حضر رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود الى عرمون في محاولة لتوحيد مواقف المسلمين واليساريين والسوريين ، فحضر

---

٤٨ ـ الشيخ حسن خالد . ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
٤٩ ـ المرجع السابق .

الاجتماع كل من شيخ عقل الدروز محمد أبو شقرا ، ومفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد ، والرئيسان رشيد كرامي وعبد الله اليافي ، وأبو أياد ، بالاضافة الى ياسر عرفات وعبد السلام جلود .

الإمام موسى الصدر تغيب عن هذا الاجتماع ، وقد كان لهذا التغيب عن اجتماع قمة عرمون برئيس وزراء ليبيا ، تفسيرات شتى ، إلا أن التساؤلات لم تطل ، إذ كان في كلام جلود بخصوص الشيوعيين واليساريين ما يناقض موقف الامام ، فجاء التفسير واضحاً .

فعندما قال المفتي خالد أن « القوى الوطنية انشرخت لأن الأحزاب طرحت أفكاراً تناقض مبادئنا ، وكنا نحذر من ذلك » رد جلود : « القوى اليسارية والشيوعية يستفيد منها المسلمون . . . أنا ضد الشيوعية ، فنحن تقدميون اشتراكيون نلتزم باسلامنا ، لكن اضطررنا عندما وجدنا الشيوعيين يتصدون للانعزاليين أن نساعدهم وندعمهم[50] . . . » .

وبعد أيام قليلة ، وبنتيجة جهود جلود ، عقد اجتماع بين مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد وزعيم اليسار كمال جنبلاط ، فقال جنبلاط لخالد : « جرب موسى الصدر أن يلعب . . . رغم هذا الشيء ، جمدنا الشيعة في الخط الوطني[51] . . . » .

وكانت قمة عرمون نفسها قد شهدت خلافاً أساسياً بين الامام الصدر وكمال جنبلاط في الثلاثين من كانون الثاني ١٩٧٦ ، أي قبل

---

٥٠ ـ المرجع السابق . ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤
٥١ ـ المرجع السابق . ص ٢٨٧

أشهر قليلة من تاريخ قدوم جلود الى لبنان .

يومها ،كانت القمة منعقدة بحضور وفد سوري برئاسة عبد الحليم خدام ، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، عرض جنبلاط مطالبه أمام خدام بقوله : « هناك مطالب هامة لا بد من إقرارها ، وهي أولا الغاء المذهبية عن تذكرة الهوية ، والإنتخابات على أساس القاعدة النسبية ، وفصل الوزارة عن النيابة ما عدا رئيس الحكومة . . . » فقاطع الصدر جنبلاط بقوله : « من حيث الغاء المذهبية ، بدنا نرجع لقواعدنا ، ونتشاور معها فنحن ما منقدر نقول شيء الآن[٥٢] » .

والشيء الهام ، والملفت للنظر ، انه بعد اختفاء الامام ، المعارض للعلمنة ولليسار بأشهر قليلة ، وبالتحديد بعد ستة أشهر ، عندما طرح موضوع القمة الروحية ، وقد أرسل البطريرك الماروني مذكرة الى رؤساء الطوائف اللبنانية تدور حول مناقشة بعض البنود ، رد نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى - بغياب الرئيس الأصيل الامام الصدر - بمذكرة جاء فيها « . . . لا بد من تكريس مبادىء المساواة الفعلية بين جميع اللبنانيين ، ولكنه إذا كان لا بد من توزيع الرئاسات على الطوائف لتوفير الاطمئنان للخائفين ، فليكن ذلك محدداً بروزنامة تنفذ على عشر سنوات مثلا ، بحيث يعاد النظر في هذا التحديد الطائفي مرحلياً حتى يزول بصورة كلية قبل نهاية السنوات العشر ، ويصبح لبنان بعد ذلك بدستوره وقوانينه دولة علمانية تحكمها المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص[٥٣] . . . » .

---

٥٢ - المرجع السابق ص ٢٢٦
٥٣ - أمين السباعي . « الحوادث » العدد ١١٦٧ الجمعة ١٦ آذار ١٩٧٩ ص ١١ .

أي أنه بعد اختفاء الامام ، أصبحت العلمنة مقبولة من المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى .

وقد يكون أوضح موقف للامام الغائب من الشيوعية واليسار ، إعلانه عن أن « الشيعة قد خرجت من المحنة منتصرة بانتصار لبنان الواحد ، وبعدم نجاح منطق التصنيف بين الناس ولا السعي لتحويل لبنان كله أو بعضه الى دولة شيوعية[٥٤] » .

❊ ❊ ❊

بغياب الامام الصدر ، تضعضعت الاستراتيجية الشيعية في لبنان ، وقد يكون طوي حلم شيعي ، لا بد وانه كان مشتركاً مع الحلم الكبير الذي تجسد في سماء ايران . وقد لا يكون من مجرد المصادفات أن يختفي الامام الصدر قبل انتصار ثورة الخميني بوقت قصير ، وقد لا يكون من المصادفات أيضاً أن تكون القوة التي اصطدم بها الامام الايراني بعد نجاح ثورته ، هي نفسها القوة التي اصطدم بها الامام اللبناني قبل غيابه ، والربط بين ايران ولبنان ، وآية الله والامام ، والغيبة وما قبل الغيبة ، أمر لا بد منه بالنسبة للباحث عن حل الألغاز .

والقوة التي كان يتمتع بها الامام ، والشخصية القيادية التي كانت للسيد ، يفتقر لمثلها سائر زعماء الشيعة في لبنان . فلا دعوة نائب الامام الغائب للشيعة كي يجعلوا السلاح أفادت ، ولا محاولات

---

٥٤ - الأنوار ٢٧/ ١٢/ ٧٦ .
وراجع : ج . أ - نصر . محنة لبنان في ثورة اليسار . دار العمل . (بيروت ١٩٧٧) ص ٨٣ - ٨٤ .

كامل الأسعد للإتفاق مع جماعة سعد حداد لانشاء مقاومة شعبية ضد الفلسطينيين قد أثمرت[٥٥] ، واستمرت المؤامرة ، مؤامرة توطين الفلسطينيين على أرض الشيعة ، في جنوب لبنان . وإذا تحول جنوب لبنان الى إقليم فلسطيني ضمن دولة اتحادية شرق أوسطية ، فسيكون للشيوعية العالمية محط رجل ، أما إذا تحولت تلك البقعة الى إقليم شيعي محافظ ضمن دولة اتحادية شرق أوسطية فسيكون ، محط الرجل نفسه لأعداء الشيوعية ، إلا أن وضع النهاية لم يتم بعد ، وقبل أن توضع النهاية ، لا يزال بوسع المتآمرين أن يبدلوا في مخططاتهم ويعدلوا ، ولا يزال بوسع متقني الخطف أن يخطفوا .

واللغز الذي يبرز في نهاية هذا الفصل ، هو سؤال مثلث الأبعاد :

ما هو مصير جنوب لبنان؟

هل سيكون إقليماً شيعياً في دولة شرق أوسطية ؟

هل سيكون إقليماً فلسطينياً في دولة شرق أوسطية ؟

هل سيكون إقليماً شيعياً ـ فلسطينياً مشتركاً في دولة شرق أوسطية ؟

قد يكون من شأن الفصول القادمة أن تلقي أضواء أسطع على الواقع ، والواقع ، مهما كان مريراً ، فان في انكشافه بداية للانفراج .

٥٥ ـ راجع سعد حداد في « الحوادث » العدد ١١٧٤ الجمعة ٤ أيار ١٩٧٩ ص ١٣ .

الفصل الرابع

الدروز

الدين والدولة

ليس هنالك من دلالة على أن الدين الدرزي يربط الدولة بأية مفاهيم أو شرائع سماوية ، إنما كل الدلائل تشير الى عكس ذلك . ومع أن الديانة الدرزية ديانة باطنية يصعب التعرف الكامل الى أسرارها وتعاليمها ومعتقداتها ، فمن شأن الشروحات الموثوق بصحتها أن تفيدنا عن المبادىء العامة التي تعنينا في هذا البحث .

يقول كمال جنبلاط أن « . . . الدرزي هو كل توحيدي ، أي كل من يعتقد بوحدة أديان العالم كافة ، وكائناً ما كانت طقوسهم وشعائرها ، أي أنه اسم ينصرف الى مسيحيين وبوذيين ومسلمين وهندوكيين .[١] » .

وقد اتفق علماء الدروز على تعريف مقتضب للدرزية ، يقول بأن « معتقد التوحيد (الدرزية) هو في نظر الموحدين مسلك توحيدي استجاب الى الاسلام واندرج فيه ، غير أنه كان مستبطناً أيضاً في الشرائع التي تقدمت الاسلام ، وهو يتخذ القرآن الكريم أساساً ويستمد من معانيه المستعلية (أي الباطنية) حقيقته ، كما أنه يقدس

١ ـ كمال جنبلاط. هذه وصيتي. مؤسسة الوطن العربي. (باريس ١٩٧٨). ص ٥٥

سائر الكتب السماوية[2] » .

والدرزية لا تدخل في أي اختلاف مع أي دين آخر ، فان « . . . مسلك الأحدية ، ليس نظاماً دينياً ، على حد تعبير الحكيم شري اتمانندا الفيدنتي ، ونستعيره لأن هذه الشروح أوضح من سواها ، وهو : . . . نهاية كل معرفة ، هو الحقيقة وحدها تشير وتدل الى الحقيقة ، ولا تدخل في أي اختلاف أو مشاحنة مع أي دين أو معتقد آخر ، بل انها تقول فقط لجميع المتدينين : يا صاحبي ، أنت قدر ما ذهبت اليه ، في صواب وسلامة ، لكن ارتفع وتوغل أكثر وأعلى. والفيدنتا[3] لا تختص بأي دين معين ، ولكن تتعداها جميعاً ، هي في الواقع تتميم وتكملة لجميع الأديان . هذه هي الأحدية ، أو التوحيد المحض ، التي تقيم في المرتكز الورائي للمعتقدات ، وهي التي تعطي حياة لجميع الأديان .[4] » .

ويتطرق أحد كبار المفكرين الدروز الى قضية علاقة الدين بالدولة عند الدروز ، فيقول : « . . . على الرئاسة الروحية فريضة الإرشاد والوعظ والتوجيه واسترشاد الأفضل من الأولين الصالحين ومثالهم . . . أما الزعامة الروحية في المعنى المعروف الشائع ، فانها لا تنطبق على المفهوم التوحيدي الدرزي الأصيل ، بل إن الزعامة الروحية الحقيقية هي نقيض الزعامة الوجاهية في القصد الزمني العادي المنطوي على فكرة الرئاسة ، والمؤسس على السلطة والجاه . . . هذه

٢ ـ الدكتور سامي نسيب مكارم . أضواء على مسلك التوحيد « الدرزية » . دار صادر ، (بيروت ١٩٦٦) ص ٨١

٣ ـ الفيدنتا : التوحيد المحض ، كما جاء تفسيرها في الكتاب السابق ذكره (مكارم)

٤ ـ كمال جنبلاط . في مقدمته لكتاب : الدكتور نسيب مكارم . أضواء على مسلك التوحيد « الدرزية » .

الزعامة الروحية الأصيلة هي اشتقاق معنوي وامتداد تاريخي لفكرة الإمامة ، أي الرشادة والحكمة وسلطة التوجيه والتقويم لمن تكون له ، من ذاته ومن تحققه وعرفانه ، مكنة التوجيه وحقه واستحقاقه . وهي نوعان : ولاية تنظيم ورعاية للمصالح الشرعية والروحية الظاهرة للجماعة وولاية القسط فيما بينهم بالعدل ، وولاية استرشاد بالمثل الأفضل واهتداء بالولاء الأرفع ، واستئناس بالعرفان الأعلى وبالتوجه الأصفى والأفضل والأصح والأنسب طبعاً . والأقرب الى تمثيل فكرة الإمامة . هو قيام الولايتين ووجودهما وتوحدهما في الشخص ذاته . هكذا كان واقع المشايخ السابقين : والهداية ولاية بحد ذاتها ، تفرض نفسها ولا تستبعد ولا تنكر[5] » .

ولا يدع المفكر الدرزي مجالاً للخلط بين « هداية الشيخ » الذي « يمثل فكرة الإمامة » وبين أن يكون الدين شريعة الدولة ، كما هو الحال عند المسلمين، إذ يوضح :

« . . . يتوجب علينا . . . إن كنا جادين ، ومخلصين ، في تتبع الكشف عن حقيقة الأشياء وحقيقة ذواتنا وحقيقة عقلنا ، هذه الأداة التي بها نستجلي غوامض التكوين ، أن نسعى على الأقل ، وعلى قدر كفاءة علمنا وقدرة فكرنا ، أن نتوغل قليلاً ، على خطى أقدام طليعة المتوغلين ، فنرى الأشياء والأغراض كما يجب أن نراها ، لا من خلال علوم القرن الماضي المتأخر ، وإذ ذاك يبرز لنا العرفان ، بعد أن تقصيناه واستكشفناه من خلال مسالك الحكمة الأخيرة ومصادرها ، قيمة ثمينة وكسباً عقلياً ممتعاً ، على ضوء اختبار ونظريات العلم

٥ ـ كمال جنبلاط . المرجع السابق.

الحديث . . . ويساعدنا العلم الحديث على استيعاب مقررات ونتائج هذا العرفان ذاته .[٦] » .

إن هذا الشرح الوافي لكون الدين الدرزي ديناً قابلا لمجاراة التطور ، من شأنه أن يبين الفارق الجذري الفاصل بين المفهومين الإسلامي والدرزي للدولة ، ولعلاقة الدولة بالدين . ويذهب كمال جنبلاط في إبداء عدم قناعة الدرزي بالاعتبارات الشرائعية الإسلامية من ناحية الدين والدولة ، الى موقع سلبي واضح إذ يقول : « . . . إنه لا بد لنا من الإقرار بأننا عرفنا في بلاد الإسلام حقبات تراجع ونكوص تتسم بالتطبيق الصارم الحرفي للشريعة ، ولا تزال مثل هذه الاندفاعات الرجعية مرئية في أكثر من بلد عربي ، حيث لا يزال القانون المدني غير مطبق ، لا سيا بالنسبة الى الأحوال الشخصية والقانون الجنائي ، فلا تزال قاعدة العين بالعين هي السارية التطبيق ، وهذه الإرادة في تمديد الماضي وإطالته ، وفي الحفاظ على مؤسساته التي ولى زمانها ، وتطبيق أحكام الإسلام بصفته دولة وديناً في آن معاً ، وانحطاط تأويل الشرع في اتجاه التضييق ، كل ذلك جعل مسيحيي لبنان يشعرون بأنهم مهددون[٧] . . . » .

إن هذا التباين بين المسلمين والدروز ، تباين أساسي ، يحمله الدروز في وصفهم : الباطنيين .

فلقد أطلق أهل السنة هذا الاسم على من ذهبوا الى أن القرآن ينبغي أن يفسر تفسيراً مجازياً ، وأن الحق إنما يوقف عليه باكتشاف

٦ ـ كمال جنبلاط . المرجع السابق .
٧ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٦٨

المعنى الباطن للنص ، وأن الظاهر إنما هو حجاب للباطن يراد به إخفاء الحق عن أعين من ليسوا له بأهل .[٨]

المقصود من إلقاء هذه النظرة السريعة على واقع الدين الدرزي ، يقتصر على هدف تبيان عدم ترابط الدين والدولة عند الدروز ، كما هو الحال عند المسلمين ، لذلك فان عامل « دين الدولة الإسلام » الذي كان سبباً رئيسياً أساسياً في فشل الصيغة اللبنانية نظراً لكون المسلمين غير قادرين ، شرعاً ، على التحرر منه ، لا يدخل قطعاً في الإعتبارات عندما يعني الأمر الدروز ، لا بل قد يكون الدروز ، نسبة لتعاليمهم المعلنة ، أكثر الأناس استعداداً لتقبل التعاليم الجديدة وللتكيف مع الفلسفات الحديثة . وهذا ما يفسر كثافة الانتماء الدرزي الى الأحزاب العقائدية .

إلا أن الفارق بين المسلمين والدروز ، يتعدّى اختلاف النظرة لقضية الدين والدولة الى ما هو أشمل وأعمق وأهم . فالدروز ليسوا سنة ، وليسوا شيعة ، وليسوا حصراً ، مسلمين . لذلك ، كان من الطبيعي أن تنشأ عندهم نزعة ترنو للحفاظ على الكيان ، خاصة بعد كثافة الأحداث التي عاناها الدروز عبر التاريخ .

لمحة عن تاريخ الدروز

تتوزع أكثرية الدروز على مثلث يكاد يكون متصلاً على الصعيد الجغرافي ، أما على الصعيد السياسي فهو موزع بين لبنان وسوريا واسرائيل .

٨ ـ الدكتور فيليب حتي . تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني . ص ٢١٧

في لبنان ، يتوزعون بين جبل لبنان والبقاع والجنوب ، ففي الجبل يقطنون أقضية المتن الأعلى (بعبدا) وعاليه والشوف ، وأقلية منهم تقطن بعض قرى المتن الشمالي ، والباقون موزعون بين قضاء البقاع الغربي ، وقضاء حاصبيا ـ مرجعيون . وتشكل منطقة وادي التيم قيمة معنوية هامة بالنسبة لهم ، كونها تعد مهد الدرزية ، وأقدس الأماكن الدرزية هي تلك المعروفة بخلوات البياضة بالقرب من حاصبيا .

يبلغ مجموع عدد أبناء الطائفة الدرزية في الدول الثلاث نحو ٣٧٠ ألف نسمة مقسمة على : لبنان ١٥٠ ألفاً ، سوريا ١٩٠ ألفاً ، إسرائيل ٣٠ ألفاً .

أما عن ظروف قدومهم الى لبنان ، فمن المتفق عليه تاريخياً أن الخلفاء العرب ، عندما تعذر عليهم إخضاع المردة لسلطانهم ، أرسلوا بعض القبائل المعتادة على سكنى الجبال وعلى المحاربة في مواقعها الوعرة ليتصدّوا للمردة ، وكان من بين تلك القبائل ، التنوخيون الذين دخلوا لبنان عام ٧٣٦م عن طريق البقاع ، وما لبثوا أن تقدموا حتى بلغوا المناطق الممتدة بين حدود البقاع الغربية والساحل الجنوبي لمدينة بيروت . وفي حوالي العام ٧٦٠ أقطع أبو جعفر المنصور « جبال بيروت » الى الأمير أرسلان بن مالك من المعرة وهو جد الأرسلانيين ، وكانت جبال بيروت يومذاك خالية ، وعهد المنصور الى الأمير الأرسلاني بحفظ الطريق بين دمشق وبيروت من غزوات المردة . فنزل صحب الأمير أرسلان في وادي التيم ، وضهر البيدر وسن الفيل . واتحد هؤلاء في حروبهم مع قبيلة بني لام (اللخميين) العربية التي كانت قد استوطنت الشوف بعصر الخليفة عبد الملك بن

مروان (٦٤٦ ـ ٧٠٥م) ـ وقد تفرق اللخميون في جبال لبنان الغربية واختلطوا مع التنوخيين . ثم قدم من جهات حلب فروع من قبائل شمر وتغلب وربيعة وغيرها ، واتحدت هذه أيضاً مع اللخميين والتنوخيين . ومن هناك توزع أبناء تلك القبائل في مناطق جبل لبنان حتى بلغوا المتن . وجرت بينهم وبين المردة مواقع عدة .

وفي العام ٨٢٠ قدم من الجبل الأعلى الأمير « نبا » ومعه بعض القبائل ، فسكنوا الجنوب الغربي من لبنان .

استمرت هذه القبائل في صراع مع المردة ، حتى وجدت نفسها في آخر الأمر حليفة للعدو الذي كانت تحاربه بالأمس ، وتحول العداء نحو الخلفاء الذين كانوا حلفاء الأمس . . . ذلك منذ اتبعت هذه القبائل الدعوة الدرزية .

نشأت الدرزية على يد الحاكم بأمره (٩٩٦ ـ ١٠٢١) وقد جاءها هذا الاسم من داع فارسي من دعاة الباطنية ، وهو محمد بن اسماعيل الدرزي . . . وإذ لم يلق الدرزي لتعاليمه اذنا صاغية بين المصريين ، رحل الى وادي التيم في لبنان ، حيث استجاب له أبناء القبائل المذكورة آنفاً ، وكان « بعض الآراء الشيعية المتطرفة قد غشى أوساطهم[9] . » وإذ قتل الدرزي في إحدى المعارك ، خلفه منافسة حمزة بن علي الملقب بالهادي ، وهو الآخر أحد الدعاة الفرس .

أقدم حمزة على حل أتباعه من فرائض الإسلام الكبرى ، ومنها الصوم والحج ، وسن مكانها شرائع أوجب بها الصدق في القول ،

٩ ـ الدكتور فيليب حتي . تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . الجزء الثاني . ص ٢١٧ (نقلاً عن ابن التغري بردى .)

والعون المتبادل بين أبناء الملة ، ونبذ العقائد الباطلة في جميع أشكالها ، والخضوع التام للإرادة الإلهية .

كان أول خلاف نشأ بين الدروز وبين ملة أخرى ، هو نزاعهم مع النصيرية ، وكان من نتيجة هذا النزاع أن رحل هؤلاء الى شمالي سورية ، حيث لا يزال موطنهم حتى اليوم . وقد كان فيما بعد على الدروز أن يناضلوا ضد الشيعة وضد السنة[١٠].

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر، وقعت نزاعات عنيفة بين القبائل الدرزية التي انقسمت في حزبين : قيسي ويمني ، فرحل عدد كبير من دروز لبنان الى جبل حوران في سوريا ، بعد أن بلغت تلك المعارك من الحدة ما جعل إمكانية العيش صعبة جداً في المناطق الدرزية اللبنانية . وكان المسلمون العثمانيون ، الهادفون أبداً الى القضاء على الأقليات غير السنية ، يضعون الدسائس لتغذية تلك الحروب، وكان مع تأججها يزداد رحيل الدروز الى جبال حوران حيث كانت تقع بينهم وبين رجال القبائل الذين كانوا يسيطرون على تلك الأرض معارك عنيفة . ومع ازدياد تدفق الدروز الى المنطقة ، توسعت نزاعاتهم حتى شملت الحوارنة « الذين حذو حذو البدو في اعتبار الدروز دخلاء على البلاد ، وأخذوا يقاومون تسربهم مقاومة دامت نحو قرنين ، انتهت بانتزاع الدروز لهذا الجبل الخصيب من الحوارنة مالكي سفحه الغربي ، ومن البدو المستقلين بمرتفعاته وجهاته الشرقية ، فتراجع البدو نحو الصحراء ، ورضي المسيحيون بالسيطرة الدرزية ، وبذلك أصبح الدروز أسياد الجبل[١١] » .

١٠ ـ المرجع السابق . ص ٢١٩

١١ ـ سعيد الصغير . بنومعروف (الدروز) في التاريخ . مطبعة الإتقان (بيروت) ص ١٢٤

وسرعان ما راحت جماعات درزية أخرى تلتحق بمن سبقها من أترابها الى حوران ، ذلك الجبل الخصب بمراعيه وبتربته ، ومع هذا النزوح ، تواصلت حروب الدروز في سبيل احكام السيطرة على الجبل « موطنهم القومي الجديد » فقاوموا الجند العثماني ، وصدوا الوهابيين ، وأحكموا قبضتهم على الجبل . وفي العام ١٨٢٦ ، إثر حروب الحزبين الدرزيين الجديدين في لبنان ، الجنبلاطية واليزبكية ، نزح عدد كبير من الجنبلاطيين واستوطنوا قرى جديدة بعد أن احتلوها ، فكان امتداد الدروز الى جهتي جبل حوران الجنوبية والشرقية ، ليثبت أقدامهم في موطنهم الجديد الذي توسّعوا فيه رغم « اصطداماتهم مع العربان[١٢] » وجنود ابراهيم باشا بعد أن رفضوا التجنيد الإجباري . وقد استعان ابراهيم باشا بالقبائل العربية وبالجنود الألبان أخيراً ، واستعمل في الحرب وسائل غير إنسانية ، كتسميم المياه ، مما جعل الدروز ينكفئون الى وادي التيم ، حيث وقعت معارك عديدة بينهم وبين القيادة المصرية وحليفها الأمير بشير ، وقد انتهت باتفاق سلّم الدروز بموجبه سبعمائة بندقية الى ابراهيم باشا . وسرعان ما عاد الدروز الى تعزيز وإعمار جبل حوران الذي أصبح يعرف منذ ذلك الحين بجبل الدروز .

وتجدر الإشارة الى أن الدروز كانوا يعتبرون حروبهم بمثابة « جهاد » يؤيدها رجال الدين ويشتركون فيها باعتبار انها « دفاع عن الوطن وصون للعيال »[١٣]

وقبل أن ينشىء الدروز « وطنهم القومي » في جبل حوران الذي

١٢ ـ سعيد الصغير . ص ١٢٥

١٣ ـ سعيد الصغير . ص ١٢٨

أصبح يعرف باسمهم ، كانوا قد عرفوا شتى أنواع الإضطهاد من الحكام المسلمين ، خلال عهدي المماليك والعثمانيين . وكانت أشد الحملات التي تعرض لها الدروز تلك التي جرّدها عليهم المماليك بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر .

لقد طلب الملك الأشرف الى الدروز أن يكونوا ، ولو ظاهرياً ، مسلمين ، إلا أن طلبه هذا لم يحقق ، وإذا ما أضيف الى ذلك السبب قيام الدروز في العام ١٣٠٠ بمهاجمة جيش الملك الناصر المنهزم أمام هجمات المغول ، فقد كان عند المماليك ما يكفيهم لمحاولة إبادة الدروز خاصة بعد الافتاء الذي صدر عن ابن تيمية والقائل بأن « الدروز والنصيرية ليسوا مسلمين وانهم دون النصارى مرتبة ويجب إبادتهم[١٤] » وحاول المماليك فعلاً إبادة الدروز ، وتتالت الحملات على جبال لبنان في ١٣٠٢ و١٣٠٦ و١٣٠٧ . وفي الحملة الأخيرة أباد جيش المماليك البالغ عدده ٥٠ ألف مقاتل قرابة عشرة آلاف لبناني معظمهم من الدروز « وخرّبوا بلادهم ، وقطعوا أشجارهم ، وذبحوا نساءهم وأطفالهم[١٥] » .

دولة القهر

كان للمعاناة المستمرة التي تحملها الدروز عبر العصور ، لكونهم لا يدينون بالسنة ، الأثر الفعال في تمسك أبناء هذه الطائفة بموطنهم في جبل الدروز من جهة ، وبموطنهم الأول في وادي التيم من

١٤ ـ راجع : صلاح الدين المنجد . ولاة دمشق في العهد العثماني . دمشق (١٩٤٩) ص ٦ ـ ٧

١٥ ـ ابراهيم عواد . لبنان في عهد المماليك . المشرق . المجلد ٤٠ (سنة ١٩٤٢) ص ١٢

جهة ثانية .

ففي منتصف القرن التاسع عشر ، حاول الدروز السيطرة على لبنان من خلال حرب الإبادة التي شنوها على الموارنة (راجع فصل المسيحيين في هذا المؤلف) وقد تمكنوا في البدء من تقسيم لبنان الى قائمقاميتين إحداهما مسيحية ، والثانية درزية ، تفصلها عن الأولى طريق الشام . وكان عدد سكان القائمقامية الدرزية يومذاك (١٨٤٢م) ٢٥,٤٥٠ درزياً و١٧,٣٥٠ مارونياً و٥,٢٠٠ روم أرثوذكس و١٥,٥٩٠ روم كاثوليك . وظل معمولاً بهذا التقسيم حتى عام ١٨٦٠ ، إذ ألغي إثر النزاعات الدامية التي حاول عبرها الدروز السيطرة على مجمل لبنان ، فتدخلت دول الغرب وفرضت تحويل لبنان الى متصرفية موحدة .

إلا أن الدروز لم يفقدوا الأمل في وطنهم القومي ، فما أن انتهى الحكم العثماني مع الحرب العالمية الأولى ، حتى راحوا يعملون على نيل استقلالهم الذاتي ، وفي المعاهدة التي عقدها كليمانصو مع الملك فيصل في ١٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ والتي تعترف باستقلال سوريا ، جاء في المادة الخامسة منها ، أنه « . . . يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إداري داخل الدولة السورية ، تكون مجهزة بأوسع استقلال يلتئم مع وحدة الدولة » .

وما أن دخلت فرنسا سوريا إثر انتصارها على فيصل ، حتى تنادى الدروز وألفوا حكومة خلال اجتماع عقد في السويداء بتاريخ ٢٠ كانون الأول ١٩٢٠ ، صدرت عنه مقررات عدة ، منها أن « حكومة جبل الدروز تقبل بالإنتداب الفرنسي بشكل لا يمس استقلالها » وأن « حكومة جبل الدروز هي حكومة سورية ومستقلة

استقلالاً داخلياً تاماً » وقد حددت هذه الحكومة « المستقلة استقلالاً داخلياً تاماً » على الشكل التالي :

« تضم هذه الحكومة كامل وعرتي اللجاه والصفا ، وتمتد الى حدود دير علي من الجهة الشمالية ، والى حدود الأزرق من الجهة الجنوبية » وفيما يلي النص الحرفي لمقررات اجتماع السويداء :

١ ـ حكومة جبل الدروز هي حكومة شورية ومستقلة استقلالاً داخلياً تاماً .

٢ ـ تقبل حكومة الجبل الإنتداب الفرنسي بشكل لا يمس استقلالها .

٣ ـ تضم هذه الحكومة كامل وعرتي اللجاه والصفا وتمتد الى حدود دير علي من الجهة الشمالية ، والى حدود الأزرق من الجهة الجنوبية .

٤ ـ يرأس هذه الحكومة حاكم أهلي ينتخبه الأهالي وفقاً لقانون مخصوص مرة كل ثلاث سنوات ، ويكون لها مجلس استشاري كبير ينتخب أعضاؤه وفقاً لقانون مخصوص كل ثلاث سنوات .

٥ ـ يقوم هذا المجلس مقام المجلس المالي ولا يقل أعضاؤه عن الثلاثين عضواً .

٦ ـ تعين وتحدد صلاحية ووظيفة كل من الرئيس والمجلس بقانون خاص يوافق عليه عموم البلاد بجمعية عامة .

٧ ـ تستمد حكومة الجبل ما تحتاج إليه من المساعدة المالية والفنية والإقتصادية من الحكومة المنتدبة .

٨ ـ لا يحق للحكومة المنتدبة المداخلة بأمور الجبل الداخلية ولا تجنيد سكانه ولا نزع الأسلحة منهم ضمن المنطقة الإفرنسية .

٩ ـ يعهد بأمور الجبل السياسية الخارجية لمأموري الحكومة المنتدبين السياسيين ولا يكون للحكومة الوطنية مأمورون سياسيون إلا في الشام

وفلسطين وجبل لبنان .

١٠ ـ واردات هذه الحكومة تكون :

أ ـ ما يصيبها من حصة الجمارك السورية والفلسطينية .

ب ـ ما يصيبها من واردات ممالح أثري وكاف .

ج ـ واردات قرى أملاك الدولة التي ستدخل ضمن حكومة الجبل .

د ـ ما يطرحه المجلس الملي من ضرائب عند الإحتياج المبرم ، على أنه لا يحق لهذا المجلس استيفاء ضريبة الاعشار من حاصلات الأراضي ، إنما الأموال التي يجوز له أن يقرر استيفاءها من الأراضي يجب أن تكون مقطوعة ومصدقاً عليها من عموم أهل البلاد بجمعية عامة .

١١ ـ إذا خالف رئيس الحكومة منافع الجبل العمومية ومصالحه الحيوية وأخل بالقوانين الموضوعة الأساسية ، أو أعطي قرار من المجلس بتنحيته ، واستحصل على فتوى من مشايخ العقل بذلك فحينئذ يتنحى وينتخب خلافه .

١٢ ـ مشايخ العقل يكونون منصوبين مدى الحياة ولا يعزلون ولا يحق للحكومة الوطنية والمنتدبة المداخلة بوظائفهم الدينية[16] » .

عرضت هذه المطالب على رئيس البعثة الفرنسية الى دمشق ، فأجرى عليها تعديلات هامة وافق عليها وجهاء الدروز ، ومنهم : الأمير سليم الأطرش ، الأمير نسيب الأطرش ، فضل الله هنيدي ، توفيق أبو عساف ، الشيخ محمود أبو فخر (قاضي المذهب) ، عقله

---

١٦ ـ راجع : سعيد الصغير . ص ١٥٣ ـ ١٥٤

القطامي ، قفطان عزام ، جبر شلفين ، فخر الدين الشعراني ، مسعود غانم . . .

والتعديلات التي اجرتها فرنسا على تلك المباديء قضت « بفرض الإنتداب وتعيين مستشارين فرنسيين وعدم ثبات انتخاب الحاكم الأهلي إلا بموافقة فرنسا التي جعلت لنفسها الحق في تنظيم قانون صلاحيات الحاكم والمجلس واللجنة الإدارية ، وبأن لا تتعدى صلاحيات معتمدي الجبل في دمشق ولبنان الأمور الإقتصادية ، كما اعترفت التعديلات بحقوق الأقليات (ضمن الدولة الدرزية) وأجازت حمل السلاح داخل الجبل ، وعدم أخذ (تجنيد) إجباري من الدروز » إلا أن التعديلات نفسها تضمنت . . . . « تأجيل الإعتراف بحدود الجبل وباسم حكومته » وأضافت الى ايرادات الخزينة « الرسوم التي تفرض على المناجم المعدنية المحتمل اكتشافها في الجبل[17] » وقضت التعديلات باعطاء فرنسا الحق بالوجود العسكري في جبل الدروز .

وفي ٥ نيسان ١٩٢١ أعلن الإنتداب استقلال الجبل ، وفي الأول من أيار عقد اجتماع لوجهاء الدروز ، تم بخلاله انتخاب الأمير سليم الأطرش حاكماً على الجبل ، الذي تقرر تقسيمه الى ١٣ ناحية ، يكون لكل منها نائبان ، وقد تم تعيين النواب بسرعة ، وزيد عددهم فيما بعد الى ٤٢ ، وعندما عرضت هذه النتائج على الموفد الفرنسي الكومندان ترنكا ، نحى من النواب ٢٢ عضواً وأبقى على ٢٠ ، فاجتمع هؤلاء في السادس من أيار ووافقوا على اعتماد علم للدولة الجديدة (يرمز للعقيدة المذهبية . . .) وهو ذو خمسة ألوان : أخضر وأحمر وأصفر وأزرق وأبيض ، ورسم في جانبه ١٣ نجمة

١٧ ـ سعيد الصغير. ص ١٥٤ ـ ١٥٥

إشارة الى عدد النواحي ، وفي زاويته علم فرنسا ، وعين مفتشاً عاماً ومدراء للداخلية والعدلية والمعارف والمالية ، وقضاة للعدلية وقائمقامين ومدراء نواحي من زعماء الأسر ، وقائداً للدرك الذي كان قد بلغ عدد أنفاره ثلاثمائة اختيروا من مختلف الأسر . وانتدب نسيب الأطرش ممثلا للجبل في دمشق .

إستتب الأمر للدولة الدرزية الفتية التي راح حاكمها وأعوانه يعملون بجهد لنشر النظام وتوطيد القانون ، وقد بلغت واردات الخزينة في السنة الأولى ٤٥,٨٤٠ ليرة ذهبية فرنسية ، ومصاريفها ٣٠ ألف ليرة . وكان عدد سكان الجبل حوالي ٥٠ ألف نسمة ، يستوطنون قرابة المائة قرية .

إلا أن القادة الدروز كانوا قد أبقوا على التعديلات التي أجراها الفرنسيون على مقررات اجتماع السويداء ، سرية ، لذلك فعندما دخلت الجبل في ٢٥ حزيران بعثة فرنسية عسكرية ، استناداً للإتفاقيات ، ظهرت بوادر استياء في صفوف المواطنين ، مما جعل الفرنسيين يرسلون بضع طائرة تحلق في سماء الجبل لتلقي مناشير ودية تنبيء عن قدوم حملة فرنسية « بصورة حبية » فازدادت الشكوك ، وبدأ التذمر ينذر بسوء المصير . فسارع الأمير سليم الأطرش الى محاولة تطويق المضاعفات عبر اجتماع دعا إليه ممثلين عن الشعب ، عقد في أوائل العام ١٩٢٢ ، تقرر فيه ، إعادة البحث في الإتفاق الذي تم مع الفرنسيين ، وطالب المجتمعون بالعفو العام عن المحكومين السياسيين وباعادة المنفيين ، وبانتخاب أعضاء للمجلس النيابي بصورة قانونية تنسجم مع عدد سكان المناطق ، وبالغاء التعيين الذي « حصل بصورة الإستنساب » واستنكروا « وجود قوة فرنسية لإرهاب السكان وفرض

الضرائب الباهظة التي يجب فرضها برضى الشعب . . . » وطالبوا « بعدم الصرف من صندوق الجبل لغير المأمورين المستخدمين في الحكومة الوطنية وبتسليم الجبل « حصته من الجمارك لصرفها على المرافق النافعة » وبرفع « ضريبة دمشق » عن الحبوب ، وبالسماح بتصدير المحاصيل الى الخارج « لأن التجارة حرة » .

كان أحد المبعوثين الفرنسيين ، الكومندان أدلبوس ، حاضراً الاجتماع ، فانسحب منه بحجة أن « لا صلاحية له للإجابة على هذه المطالب التي من شأن البعثة في دمشق أن تبتّ فيها » .

كان لذلك الاجتماع نتائج سلبية في الجهتين ، الفرنسية والدرزية . فبينما استاء الدروز لانسحاب المبعوث الفرنسي ، استاءت البعثة الفرنسية بدورها لوضع هذه المطالب الجريئة ، ولم يكن قد مضى على الدولة التي أوجدوها ما يسمح برفعها من المهد . وسرعان ما ترجم الإستياء الى مناوشات وقعت بين مسلحين دروز وجنود فرنسيين ، أسفرت عن مقتل بضعة جنود بينهم ملازم ، وعن تعطيل الآليات الفرنسية ، وتدمير منزل الأمير سلطان الأطرش في ٢٦ تموز ، كما أسقط الدروز طائرة فرنسية في ٢٣ كانون الثاني من العام التالي (١٩٣٢) .

والعفو الذي أصدره شفلر ، (مندوب المفوض السامي الفرنسي في دمشق) في احتفال عيد الإستقلال عام ١٩٢٣ ، والذي قضى باطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، لم يساعد على تلطيف الأجواء ، وإذ تأكد الأمير سليم الأطرش من فقدان ثقة الأهلين بالحكومة ، عمد إلى الإستقالة ، وعاد عنها ، ثلاث مرات أمام الحاح الفرنسيين ، الى أن توفاه الله في الخامس عشر من أيلول عام ١٩٢٣ . فأسندت حاكمية

الجبل الى المستشار الفرنسي « كربيا » الذي كان قد حل مكان « ترنكا » وذلك بسبب خلافات زعماء الدروز على منصب الحاكمية الذي شغر بوفاة الأمير سليم الأطرش .

حل الحاكم الفرنسي الجديد المجلس النيابي ، وجرى انتخاب أعضاء جدد وافقوا على إحالة الحاكمية له ، وصادق الجنرال ويغان على هذا الإجراء ، مما حدا بزعماء الدروز على الإعتراض ضد هذا الإجراء الجديد ، مطالبين بالحكم الوطني ، ورفض معظم النواب إذ ذاك التعاون مع كربيا .

وعندما أطلت ذكرى الإستقلال الرابعة في الخامس من نيسان ١٩٢٥ ، كان الزعماء قد تهيؤوا والعرض مطالبهم على الجنرال سراي ، المندوب السامي الجديد ، فكانت ردة فعل الجنرال الفرنسي قاسية ، إذ نفى بعض الزعماء الى تدمر ، وأنذر الباقين بوجوب ملازمة الجبل وعدم إثارة القلاقل ، فبدأ التوتر يتعاظم .

حاول الفرنسيون معالجة الموقف دون أن يتخلّوا عن حكم الجبل المباشر ، فأعطي كربيا إجازة لمدة ثلاثة أشهر بدءاً من ١٧ آذار يقضيها في فرنسا ، وعيّن مكانه بالوكالة الكابيتين رينو الذي سعى الى اكتساب مودة الشعب ، فاتخذ بعض الإجراءات الكفيلة بتخفيف أوزار المكلفين ، كرفع الجزاء النقدي ، وإلغاء فريضة تكسير الحصى ، وإلغاء الإجراءات القاسية كالضرب ، وإلغاء مراقبة البريد ، والسماح بالإجتماع وبحرية إبداء الرأي .

إلا أن هذه الإجراءات الطيبة كانت ، كما بدا ، مقدمة لنهج جائر ، إذ ما لبث رينو أن أتبع أثر الحاكم الأصيل كربيا ، في طريقة

معاملته لأبناء الجبل ، مما جعل نسيب الأطرش يقصد بيروت طالباً وساطة بعض زعماء الدروز اللبنانيين لإقناع المندوب السامي الفرنسي سراي بأن يحقق مطالب الدروز ، إلا أن المفوض الفرنسي رفض مقابلة الأطرش الذي غادر بيروت حاملاً شعار : « البنادق تتكلم » .

كان على رأس المطالب الدرزية أن تعزل فرنسا كربيا من حاكمية الجبل ، ويقول سراي في مذكراته : « كنت أرغب أن أبدل كربيا بضابط أفضل منه ، ولكني انتظرت أن يعود الى السويداء أولاً ، كي لا يقال أن حملات آل الأطرش أرغمتني على ذلك ، مما يؤثر على مكانة فرنسا[18] » .

توجس الدروز شراً في مواقف الفرنسيين ، وظهرت بينهم دعوة الى وجوب المطالبة بالوحدة مع سوريا ، على غرار ما كان حاصلاً في لبنان من قبل غير المسيحيين ، ورأى هؤلاء الداعون أنه قد يكون في ذلك مخرج لحتمية التصارع غير المتكافىء بين الدروز وفرنسا ، وكان عدد دروز الجبل آنذاك قد بلغ ٤٤٣٤٤ وكانت مساحة الجبل ٧٩٢٠ كيلومتراً مربعاً ، يقطنه ، إضافة للدروز ، ٤٦٥٤ مسيحياً ، و٧٢٥ مسلماً سنياً .

لاقت دعوة المنادين بفكرة الإتحاد مع سوريا آذاناً صاغية عند العقلاء ، شرط أن يكون هذا الحل مرحلياً ، فتألف وفد من الأمراء : حمد ونسيب ومتعب وبرجيس وصياح وسلمان الأطرش ، ومن فضل الله وحسين هنيدي ، وعبد الله النجار ، وفواز ونجم وهلال عز الدين ، وقفطان وحمد عزام ، وسعيد وداود عساف ، وجاد الله سلام ،

١٨ - راجع : سعيد الصغير . ص ١٥٩

وحمود نصر ، وحمود جربوع ، ومحمود أبو عسلي ، ونسيب نصار ، وخليل كيوان ، وأسعد مرشد ، وشبيب القنطار ، وفرحان أبو راس ، وحسن اللحام ، وقصد هذا الوفد دمشق ، حيث قابل النائب الفرنسي أوغوست برونيه ، وقدم له مذكرة خطّية تطالب باعادة الحكم الوطني ، أي بكف يد الحاكم الفرنسي ، وتذكر ، استطراداً ، أن . . . « جبل الدروز هو جزء لا يتجزأ من سوريا تجمعه معها جامعة اللغة والجنس وتربطه روابط اقتصادية مستحكمة الحلقات ، وكلاهما مرتبط بالآخر منذ عصور طويلة بروابط لا تفصم عراها . . . » . أي أن الدروز خيّروا الفرنسيين بين الحكم الوطني الدرزي وبين الإتحاد مع سوريا .

وعندما قصد الوفد بيروت ، إثر رد النائب الفرنسي في دمشق بوجوب نقل هذه المطالب الى المندوب السامي ، رفض سراي استقبال أعضائه ، مهدداً إيّاهم بالنفي إذا لم يعودوا الى الجبل فوراً . . .

إثر هذه التطورات ، تنادى زعماء الجبل في أواخر حزيران وألّفوا في السويداء « جمعية وطنية » ترأسها سلطان باشا الأطرش ، كان على رأس مقرراتها « التضحية بكل غال وثمين في سبيل الإستقلال . . . وكل نائب يخالف مقررات الأمة يهان ويضرب[19] » .

كان سلطان الأطرش على اتصال وثيق بفيصل ، وقد ذكر « تومي مرتان » الذي أوفدته الحكومة الفرنسية الى جبل الدروز للتحقيق في أسباب الفوضى ، عبر تقرير مؤرخ في ٧ تموز ١٩٢٥ عن « صلة بين فريق من آل الأطرش وشرقي الأردن » .

١٩ - راجع : سعيد الصغير . ص ١٥٩

راح سلطان الأطرش يسير من قرية الى قرية في الجبل مستنهضاً الهمم للثورة على الفرنسيين ، فلاقى تجاوباً حماسياً من قبل بني معروف ، بينما كان الفرنسيون يسعون لاعتقال سلطان . وسرعان ما انفجر الموقف في ١٩ تموز إذ بينما كان الثوار مجتمعين في بلدة عرمان من الجنوب ، حلقت طائرتا استكشاف فرنسيتان ، فأطلق عليها الثوار وابلاً من الرصاص أسقط احداها ، وفي ٢٠ تموز توجه الثوار الى صلخد واحتلوا مركزاً للسلطة الفرنسية هناك ، وفي اليوم التالي استولوا على مركز آخر في شمال الكفر إثر معركة حامية تكبد فيها الطرفان عشرات القتلى والجرحى . وفي السادس والعشرين من تموز ، توجّه الثوار الى السويداء وأحرقوا سرايا الحكومة .

واستمر النزاع حامياً على هذا الشكل ، والفرنسيون يتكبدون الخسائر في العتاد والجند ، حتى توسط بعض وجهاء الدروز اللبنانيين بين المندوب السامي وزعماء الجبل ، وكان بين أصحاب المساعي الحميدة الأمير فؤاد أرسلان والسيد عبد الله النجار ، وقد أدّت المساعي الى البحث في عقد هدنة . ومن أجل الدخول في مفاوضاتها ، وضع زعماء الدروز لائحة من اثني عشر بنداً ، تؤكد في مجملها على تمسكهم باستقلال الجبل ، واستمراره وطناً قومياً درزياً ، وفيما يلي نص الشروط الدرزية التي وضعوها في ١٥ آب ١٩٢٥ خلال اجتماع عقد في قرية المجيمر من الجبل .

١ ـ العفو العام مصدقاً عليه من رئاسة الجمهورية الفرنسية ، وعدم التحقيق في حوادث الثورة وعدم اعتبار أحد مسؤولاً .
٢ ـ لا ترسل الحكومة قوات كبيرة أو صغيرة الى الجبل .
٣ ـ إطلاق سراح جميع من اعتقل بسبب الثورة سواء كان من سكان

الجبل أو من خارجه .
٤ ـ يقبل مستشار إداري فرنسي في الجبل دون أن يتدخل فعلياً في الشؤون .

٥ ـ ينتخب الشعب الدرزي لجنة مؤقتة تشكل حكومة الجبل وتحل محل الحكومة الملغاة بسبب الثورة .

٦ ـ ينتخب الشعب الدرزي حاكماً وطنياً ومجلس أعيان تقرر كيفية تأليفه ودرجة ارتباط الحاكم به اللجنة المذكورة في البند الخامس .

٧ ـ تعاد المبالغ الخاصة بصندوق الجبل والمبالغ المودعة بالبنك السوري أو غيره الى إدارة مالية الجبل .

٨ ـ تدفع حصة الجبل من الجمارك لخزينة الجبل ، ولا يصرف شيئاً منها قبل إدخاله الى الصندوق .
٩ ـ لا تمنع الحكومة الفرنسية الدروز من الدخول في الوحدة السورية .
١٠ ـ عدم نزع السلاح من الدروز .
١١ ـ عدم تعيين أحد من الموظفين السابقين إلا بقرار من اللجنة المذكورة في البند الخامس .
١٢ ـ إلغاء وظائف الممثلين ومأموري الاستخبارات الفرنسيين الذين كانوا سابقاً .

وانتدب للمفاوضة بموجب هذه الشروط كل من :

فضل الله باشا هنيدي ، محمد باشا عز الدين ، سليمان بك عبدي الأطرش ، سليمان بك نصار .

إلا أن هذه المطالب ، قوبلت من جانب الفرنسيين بتغريم الدروز خمسة آلاف جنيه استرليني على سبيل التعويض الحربي ، وتحميلهم كافة أضرار وخسائر الحرب التي لحقت بالأهالي والتجار ، وإعادة السلاح الذي غنموه أثناء القتال .

فظهر إذ ذاك تياران في الجبل ، الأول يقول باجراء الصلح مع الفرنسيين ، ومن أنصاره حمد وعبد الغفار ونسيب الأطرش ، وفريق يرفض الصلح ويقول باستمرار الثورة حتى النصر ، وعلى رأسه سلطان الأطرش . علماً بأن هذا الأخير كان متعاطفاً مع فيصل بن الحسين .

عزز سلطان موقفه باستقدام وفد من أعيان دمشق ، حضر الى الجبل ، وألقى أعضاؤه الخطب الحماسية في الدروز ، وعدوا عبرها باضرام الثورة في دمشق « أما إذا بقيتم منفردين في ساحة الوغى ، فستقهرون إن لم يكن اليوم فغداً ، أما إذا أراد سلطان أن يسير بكم الى دمشق ، فستفتح أبوابها له . . . وعندما يبسط سلطانه على دمشق سيكون بوسعه أن يملي شروطه على الفرنسيين . . . تقدموا نحو ضواحي دمشق حيث يأتي الدمشقيون لملاقاتكم ، فلكم يرجع الفخر لأنكم كنتم في طليعة من سعى لتحرير البلاد » .

أثر هذا الكلام في بني معروف ، وازداد الراغبون في متابعة الثورة حماساً . وتوسعت آمال سلطان الأطرش الذي أصبح آملاً بمساندة الدمشقيين . وفي الثالث والعشرين من آب ، إذاع بياناً جاء فيه :

« . . . أيها السوريون ، لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ

ولا يعطى ، فلنأخذ حقنا بحد السيف ، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة . . . لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد وقسمونا الى شعوب وطوائف ودويلات » .

ولخص سلطان الأطرش أهداف ثورته في نهاية البيان بثلاثة بنود :

١ ـ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها ، والإعتراف بدولة عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً .

٢ ـ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادةَ مطلقة .

٣ ـ سحب القوة المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش محلي لصيانة الأمة .

وفي الرابع والعشرين من آب ، هاجم الدروز دمشق لاحتلالها على أمل أن يساندهم الدمشقيون من داخل ، إلا أن هجومهم قد باء بالفشل ، إذ أخلّ الدمشقيون بوعدهم . ورغم معارضة قسم كبير من أبناء الجبل ، عاود سلطان باشا الكرة في السابع عشر من أيلول ، إلا أن الفرنسيين كانوا لهم بالمرصاد ، فوقعت معركة في منطقة المسيفرة تكبد فيها الدروز والفرنسيون خسائر فادحة في الأرواح ، انسحب على أثرها الدروز من جديد . ومنذ ذلك الوقت راحت الحملات الفرنسية تتوالى على الجبل ، حيث أظهر أهله شجاعة فائقة في الدفاع حتى الإستشهاد ، وحاولوا إرباك الفرنسيين بشن حرب عصابات على مواقعهم في الجبل وخارجه من ضواحي دمشق ، فيما تطوع عدد لا بأس

به من دروز لبنان لنجدة إخوانهم في جبلهم ، وأصبح رجال الثورة يعرفون بالمجاهدين .

وفي الثامن عشر من تشرين الأول ، شن الدروز من جديد هجوماً من أربعة محاور على دمشق ، محاولين الوصول الى قصر العظم لاعتقال الجنرال سراي ، وكادوا أن يفلحوا في ذلك لو لم يصدر سراي أمراً بالرد العنيف ، مما كبد دمشق وأهاليها خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات ، فراح أهاليها يلحون بالمطالبة بوقف إطلاق النار . . . بينما انسحبت أكثرية المجاهدين الى الجبل ، وبقيت بعض العصابات ـ كما أسماها مؤرخو الدروز ـ تقاتل الفرنسيين في حملات خاطفة . وامتدت حرب العصابات الى المناطق الدرزية الواقعة غرب جبل الشيخ من لبنان .

ففي ٩ تشرين الثاني توجهت طلائع المجاهدين الى حاصبيا بقيادة حمد بك الدرويش وفارس مفرّج ، فاستسلمت الحامية الفرنسية لرجال الدين في خلوات البياضة دون قتال ، فشكل المجاهدون إذ ذاك لجنة لإدارة الشؤون العامة برئاسة مسيحي عن حاصبيا ، ووزع زيد الأطرش بياناً الى المسيحيين يعلن عن « أن قدوم الدروز هو لإنقاذ المنطقة من النفوذ الأجنبي ، . . . وهم قاموا باسم الوطن لا باسم الطائفية ، . . . فعلى أبناء الوطن معاونتهم لإدراك هذه الغاية التي تستند على مبدأ رئيسي وهو « الدين لله والوطن للجميع[20] » .

إلا أن مسيحيي منطقة مرجعيون ـ حاصبيا قد تعرضوا للتجاذب من جهتي الدروز والفرنسيين ، فلم يتمكنوا ، نظراً للعدد الصغير

٢٠ ـ راجع : سعيد الصغير . ص ١٧١

الذي يمثلون في تلك المنطقة ، من اتخاذ موقف موحد . بينما استمر المجاهدون في قتالهم ضد الفرنسيين فاحتلوا قرى عدة ، وأحدثوا المعارك في مرجعيون وجوارها ، فتمكنوا من احتلال قلعتها بمساعدة المسيحيين ، إلا أنهم آثروا عدم البقاء فيها « حفاظاً للروابط الوطنية بين المسيحيين والدروز » .

وامتدت أعمال المجاهدين الى راشيا حيث وقعت معركة قاسية حول قلعتها التي كان يتخذها الجنود الفرنسيون موقعاً لهم ، تكبد الطرفان بخلالها خسائر كبيرة . واضطر الدروز إثر ذلك على الإنسحاب ، بينما شنت القوات الفرنسية حملات مضادة ، فعززت مواقعها في راشيا ، واستعادت حاصبيا ، وانزلت بالدروز الخسائر الفادحة ، مما جعل ثورتهم تهمد لبعض الوقت . وقد جرت مفاوضات غير مباشرة حينذاك بين الفرنسيين ودروز الجبل ، عمل لها الأمير أمين أرسلان وفوزي الغزي ولطفي الحفار وعفيف الصلح ، إذ توجه هؤلاء في ١٧ كانون الأول (١٩٢٥) من دمشق الى الجبل واجتمعوا مع زعماء الثورة الذين تنازلوا صراحة عن مطلبهم الأساسي باستقلال جبل الدروز ، واستعاضوا عنه بمطلب « توحيد الحكومات السورية » . إلا أن المفاوضات قد فشلت بسبب اشتراط الحكومة الفرنسية أن يسلم الثوار سلاحهم ، ورفض الثوار لهذا الطلب .

إثر ذلك ، حاول الفرنسيون إقناع الدروز بتسليم سلاحهم ليعاد لهم الإعتراف بدولتهم ، فنثرت الطائرات الفرنسية في ٢٢ كانون الأول فوق الجبل منشوراً صادراً عن الجنرال أندريا ، جاء فيه :

« . . . إنني عازم على جمع المجلس عن قريب في درعا ،

فالشيوخ الذين يأتون سيتناقشون معي في القانون العتيد الذي سيعطى للدولة الدرزية ، وسنعتبره مع المأمورين الجدد ونقرر أمر السلام ويرجع العمران والفلاح الى بلادكم من رجوع الطمأنينة » .

إلا أن البيان نفسه هاجم سلطان الأطرش الذي « لا يرغب في استقلال جبل الدروز بل يريد أن يحكم البلاد تحت أمرة أمير من أمراء العرب فيأمر وينهي إذ ذاك كسيد مطلق ، وكون العنف والإستبداد من طبعه فلا يصرف إدارة الأمور بغير العنف والقساوة » .

وفي الشهر التالي، (كانون الثاني ١٩٢٦) وزع منشور آخر لأندريا جاء فيه : « . . . أيها الدروز . . . نحن الذين منحناكم الإستقلال وجعلنا جبل الدروز دولة مستقلة مساوية لدولتي حلب ودمشق ، وقد عملنا هذه الأمور لمصلحتكم بالرغم من معارضة أعدائكم الذين لم يكونوا مسرورين بل متكدرين غاية الكدر من رؤيتكم مساوين لهم في المجالس وفي مقاعد الحكومة وفي الإحتفالات الرسمية وأمام كبار وعظماء الأرض ، الذين كنا ندعوهم خصيصاً لزيارة جبلكم . . . » .

إلا أن الثقة التي كانت قد فقدت في وجدان الدروز ، عجزت مناشير أندريا عن إعادتها ، وقد عبر عن ذلك عبد الغفار باشا الأطرش في رسالة وجهها الى المندوب السامي الفرنسي الجديد هنري دي جوفنيل جاء فيها :

« . . . إن التجارب الماضية التي جربت في زمن أسلافك الثلاثة لم تترك . . . أثراً من الثقة . . . لذلك ليس من الأمور الهينة في الوقت الحاضر إقناع الشعب الدرزي وجميع الثوار بترك السلاح بلا قيد

ولا شرط . . . والبلاد غير مستعدة لقبول التجزئة المضرة » .

فرد دي جوفنيل بكتاب مؤرخ في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٦ جاء فيه :

« إذا كان الشعب يطمح الى الحصول على حقوق مشروعة كما صرح به الكتاب نفسه ، فاني مستعد كل الإستعداد لأن أمنحها له وفقاً لميثاق جمعية الأمم ، فليكف الشعب الدرزي عن الحرب ، فيقدم له قانون أساسي بالإتفاق مع السلطات الوطنية ذات الصلاحية ، تراعى فيه حقوق جميع الأهالي الساكنين في الجبل ومصالحهم وتمنياتهم ، ويشكل المجلس ، وهو يصرّح إذا كان يريد تأليف حكومة مستقلة أو يريد الإرتباط بدمشق . وهو ينتخب رئيس الحكومة إذا بقي الجبل مستقلاً ، وإذا كان الأمر خلاف ذلك اجتمع ممثلو الدروز مع ممثلي المناطق الأخرى التي تطلب ذلك ، لتعيين حكومة واحدة ، والإقتراع على قانون أساسي واحد . . . »

وبينما رأى قسم من وجهاء الدروز وجوب الموافقة على العروض الفرنسية الجديدة ، وتيار هؤلاء هو تيار الوطن القومي الدرزي ، تمكن سلطان الأطرش من السيطرة على المبادرة ، وأرسل رجاله لإثارة الإضطرابات في وقت وصل فيه الإنقسام داخل الجبل الى درجة خطيرة ، إذ تجند بعض الدروز مع الفرنسيين لمحاربة الأطرش ، فسارع العقلاء الى تنظيم « فرقة الفتيان » لمعاقبة « كل متعاون مع العدو » وتقرر تأليف لجنة لإدارة الجبل .

ولما لم تفلح جميع محاولات الحوار ، شن الفرنسيون حملات عنيفة على جميع المناطق الدرزية في لبنان والجبل . فبعدمطاردة الفرق

التي كانت تعمل بقيادة الأمير عادل أرسلان وأحمد مريود وشكيب وهاب في وادي التيم وسفوح جبل الشيخ وقرى حاصبيا ومرجعيون ، تمكن الفرنسيون في ٣ نيسان من تدمير معاقل الدروز في هذه المناطق . وفي ٢٢ نيسان أغارت الطائرات على السويداء وصلخد والقرى الغربية لجبل الدروز ، وأمطرتها بوابل من النيران ، وفي ٢٤ نيسان ، احتل الفرنسيون قريتي عرى وتل الحديد غرب السويداء ، بينما جدد أندريا دعوته للدروز الى التفاوض ، فعاد الشقاق ليبرز بينهم من جديد . عندها سارع الفرنسيون الى ضرب معاقل المجاهدين ، ودخلوا السويداء في ٢٥ نيسان ١٩٢٦ بعد سقوط مئات القتلى ، واستسلام عدد كبير من المجاهدين . وقبل الخامس من حزيران ، كان الفرنسيون قد سيطروا على الجبل سيطرة شبه تامة . إلا أن ذلك لم ينه حرب العصابات التي استمر المجاهدون الذين تواروا الى داخلية البلاد بالقيام بها بقيادة سلطان الذي دعا الى « وجوب المثابرة على القتال حتى تنال البلاد أمانيها » والى « هدر دم المتطوعين في الجيش الفرنسي » .

وإذ ضيق الفرنسيون على المجاهدين ، جعل هؤلاء من منطقة الأزرق الأردنية منطلقاً لعملياتهم ، وعندما استفحل أمر الدروز في تلك المنطقة من ناحية جنوبي الجبل الواقعة ضمن الإنتداب الانكليزي ، جرت اتصالات بين الحلفاء ، أصدر على أثرها الكابتن البريطاني « غلوب » حكماً عرفياً في ١٣ نيسان ١٩٢٧ قضى بأن تكون « منطقة الأزرق ملجأ للنساء والأولاد والشيوخ فقط ، أما الرجال المسلحين فعليهم مغادرة منطقة شرقي الأردن » إلا أن عدداً كبيراً من دروز الجبل كان قد لجأ الى المنطقة الأردنية ، مما حمل السلطات

البريطانية في ١٧ حزيران الى إصدار منشور أعلنت فيه « أن على جميع الذين ليسوا من سكان شرقي الأردن العودة الى أوطانهم خلال أسبوعين ، ومن يبقى بعد هذه المدة يطرد من المنطقة » .

إثر هذا التضييق ، لم يعد المجاهدون ليجدوا ملجأ لهم ، فتوسط شكري القوتلي مع الملك عبد العزيز حيث زاره في السعودية ، كي يقبل لجوء المجاهدين في دياره ، فوافق الملك ، وخصّهم بمال للضيافة ، وعلى الأثر ، لجأ الى السعودية حوالي ١٥٠٠ من المجاهدين ، وأقاموا في النبك .

وهكذا ، تمكن الوحدويون السوريون عبر سلطان الأطرش من تقويض أركان الدولة الدرزية التي لم تكن أصلاً قابلة للإستمرار ، نظراً لاقتصار عدد سكانها على حوالي خمسين ألف نسمة يستوطنون قرابة المائة قرية ، وهي لا تتصل بمرفأ بحري أو بخط حديدي ، ولا تتمتع بأية ثروة طبيعية . أما مساحة الجبل فتبلغ ستة آلاف كيلومتر مربع تمتد طولاً حوالي ثمانين كيلومتراً من الجنوب الى الشمال ، وعرضاً نحو ٧٥ كيلومتراً . ويتراوح ارتفاع جبل الدروز عن سطح البحر بين ٦٠٠ و١٥٠٠ متر ، يحده شرقاً سهل الرحبة ومنطقة الصفا الوعرة المتصلة ببادية الشام ، وجنوباً بادية الأردن ، وغرباً سهل حوران ومنطقة اللجاه ، وشمالاً منطقة الهيجانة التي كانت تابعة لمحافظة دمشق .

إلا أن تلك الروح الرانية الى التمتع بوطن قومي لم تخبُ ، فقد استمرت دعوات الإستقلال ، حتى أن المنادين بهذه الرغبة قد ألفوا حزباً « للدفاع عن دولة جبل الدروز المستقلة » وعندما عقد أحد

المندوبين الفرنسيين في الخامس والعشرين من شباط ١٩٣٣ اجتماعاً لوجهاء الدروز في « قنوات » من أعمال الجبل لإجراء شبه استفتاء بشأن رغبة الدروز في قضية الدولة المستقلة ، ظهر الإنقسام واضحاً في صفوف بني معروف بين مطالبين بالوطن المستقل ، ومطالبين بالوحدة السورية .

وبنتيجة المفاوضات التي جرت في باريس في العام ١٩٣٦ ، جاءت المعاهدة الفرنسية السورية التي ضمنت وحدة سوريا ، إلا أنه اتفق في الوقت ذاته على إعطاء الدروز نوعاً من الإستقلال الذاتي ، وقد توضح ذلك في المرسوم الذي أصدره المندوب السامي الفرنسي إلحاقاً بالمعاهدة ، والذي جاء فيه أن « جبل الدروز هو جزء من الدولة السورية ، يسري عليه دستور الجمهورية السورية وقوانينها وأنظمتها العامة ، ولكنه يستفيد ضمن دولة سورية من نظام خاص إداري ومالي . »

على الصعيد الإداري ، أصبح الجبل محافظة لها أعضاء مجلسها المنتخبون ، وفي أول انتخابات جرت لاختيار أعضاء مجلس المحافظة ، عادت الخلافات لتبرز مجدداً داخل الجبل ، بين الوحدويين والإنفصاليين ، مما استدعى قيام المفوض الفرنسي غبرييل بيو بزيارة الجبل في كانون الثاني من العام ١٩٣٩ ، وعند وصوله الى السويداء ، جاءته وفود من أنحاء البلاد تطالب بالإنفصال . إلا أنه ما أن غادر المندوب الفرنسي الجبل حتى طلعت أصوات تنادي بعدم الإنفصال . وتوتر الوضع من جديد ، فعاد المندوب الفرنسي الى السويداء في أيار ، حيث أكد له الإنفصاليون أن الأكثرية من الدروز ترى رأيهم ، وفي ٣ تموز أعلن المندوب السامي الفرنسي في دمشق الكونت دي هوت

كلوك ، عن إعطاء الاستقلال الذاتي لجبل الدروز ، في شؤونه الإدارية والمالية والقضائية وفقاً للبنود التالية :

١ - إن مجلس إدارة المحافظة ينتخب بالأكثرية المطلقة شخص المحافظ لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ويقوم مقامه رئيس المجلس .

٢ - رئيس الجمهورية يصدر مرسوماً فقط بتعيين المحافظ الذي يختاره مجلس المحافظة .

٣ - يتألف مجلس من مديري الدوائر وهو الذي يعين القضاة ، أما بقية الموظفين فيعينهم المحافظ .

٤ - رئيس الجمهورية يعين القضاة الفرنسيين ولمحكمة التمييز السورية الفصل بالخلاف (على الصلاحية) الذي يقع بين المحكمة العليا وبقية المحاكم العليا في المناطق الأخرى .

٥ - يجتمع مجلس المحافظة في دورتين (آذار وتشرين الأول) ولا تتجاوز مدة الدورة خمسة عشر يوماً إحداهما للموازنة التي يجوز لمجلس المديرين تعديلها أثناء غياب المجلس .

٦ - للموظفين الفرنسيين المراقبة والإطلاع على جميع قرارات مجلس المديرين ومجلس المحافظة .

٧ - للمحافظة حصتها من واردات المصالح المشتركة ، وعليها دفع ٥ بالمئة من وارداتها للنفقات العامة في الدولة السورية .

إلا أن تبدل السياسة الفرنسية بعد الحركة الديغولية المتعاطفة مع الانكليز الذين كانوا يساندون فيصل على تحقيق أهدافه في الوحدة السورية ، هذا التبدل ، أدى الى دمج الجبل ، من جديد ، في الدولة

السورية ، ولم يبق من استقلالية الجبل سوى مجلس محافظة ، له ميزانيته الخاصة ، مما أثر سلباً على نموه وعمرانه . فحدثت بعد ذلك مناوشات عدة بين الوحدويين والانفصاليين ، تحولت فيما بعد الى اقتتال بين آل الأطرش من جهة ، و« الشعبيين » من جهة أخرى ، فضاعت القضية القومية في الصراع الطبقي . وكان مجلس إدارة المحافظة قد اجتمع في ٧ أيلول ١٩٤٤ واتخذ قراراً جاء فيه أن « مجلس محافظة جبل الدروز قرر بالإجماع الاندماج النهائي بسورية الأم ، وإلغاء الامتياز المالي والإداري الذي كانت تتمتع به هذه المحافظة سابقاً ، على أن تبقى أحكام الشرع الدرزي مطبقة في المحاكم المذهبية الدرزية بدون مساس » . وبتحرير هذه الوثيقة وقبولها من قبل مجلس النواب السوري في كانون الأول (١٩٤٤) أصبح جبل الدروز جزءاً لا يتجزأ من الدولة السورية . وقد بقي هذا الوضع على حاله رغم استمرار ظهور الدعوة لاستقلال الجبل . لكن تحقيق ذلك كان مستحيلاً في ظروف كانت تشهد تياراً عربياً شعوبياً يدعو للوحدة الكاملة .

إلا أن الدروز ، وإن لم يتمكنوا من الحصول على المنافع العامة لمناطقهم من الدولة السورية ، أخذوا يشكلون قوة لا بأس بها داخل الجيش ، وغالباً ما كانت تسند وزارة الدفاع الى درزي ، وما كان رئيس أركان الجيش درزياً . وقد اشترك كبار الضابط الدروز اشتراكاً فعلياً وحاسماً في العديد من الإنقلابات العسكرية التي شهدتها البلاد ، وقبل أن تلاقي دعوة حزب البعث قبولاً ملحوظاً في مناطقهم ، كانوا قد اشتهروا بموالاتهم لهاشم الأتاسي ، وبعدائهم لأديب الشيشكلي .

أما في إسرائيل ، فيستوطن الدروز القرى الشمالية التابعة لمنطقتي عكا وطبريا ، وبعض القرى التابعة لمنطقة حيفا ، وأحوال هؤلاء المادية أحوال جيدة بفضل أعمال الزراعة والصناعة التي يتعاطونها ، وقد بقيت أراضيهم ملكهم رغم الإحتلال الصهيوني ، ولا يقطن أي يهودي في القرى الدرزية في إسرائيل ، وقد حافظ أهلوها على تقاليدهم وعاداتهم كما في لبنان وفي جبل الدروز . ومن الملاحظ أن العلاقات بين الحكومة الإسرائيلية والجالية الدرزية هي علاقات طيبة ، وليس سراً أن جيش الدفاع الإسرائيلي يضم حوالي ستة آلاف جندي درزي .

الدروز والأمر الواقع

بعد فشلهم في السيطرة على لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تطلع الدروز نحو الشمال ، ومرة أخرى ، فشل مخططهم في إقامة الكيان القومي ، بسبب خلافاتهم مع سلطات الإنتداب الفرنسية . وكما قاتلوا الانتداب في سوريا ، قاتلوه في لبنان ، وفي الحالتين كان قادتهم يميلون نحو البريطانيين . إلا أن السياسة البريطانية جذبتهم نحو الوحدة السورية في جبل الدروز ، كما كانت قد تخلّت عنهم عندما دعت فرنسا الدول الكبرى عام ١٨٦٠ لإنهاء الحرب الدينية في لبنان ، وبذلك تبخر حلم الدروز في إنشاء وطنهم القومي مرتين .

وخير من عبر عن مرارة الدروز الناتجة عن فقدان أملهم في السيطرة على لبنان قبل دولة الإستقلال ، المرحوم كمال جنبلاط الذي قال :

« . . . إن إحياء إمارة لبنان القديم العربي في محتوى وسياق من السيطرة الفرنسية ـ المارونية أفقد الامارة القديمة ملامحها ومعالمها ، ذلك انها كانت تاريخياً جبل الدروز، فأصبحت الآن جبل أو إمارة الموارنة . وكان سيدها القديم هو خليفة اسطنبول، المغمور الى هذا الحد أو ذاك ، فأصبحت فرنسا ذات الحول والطول الحامية التقليدية للموارنة . فانتقلنا بذلك من التوجه الإسلامي ـ الدرزي في إطار سوريا التاريخية والطبيعية ، الى ما يشبه أن يكون محافظة فرنسية على الشاطىء السوري[21] » .

ومع التحفظ تجاه الإعتبارات التاريخية الخاصة بالسيد كمال جنبلاط ، لا بد من نقل تلك القائلة بأن « . . . أولى مداميك لبنان السياسي المستقل ، وضعها بنومعن وبنوتنوخ ، وهما عائلتان درزيتان حكمتا لبنان كلتاهما منذ الألف الأول للميلاد . . . وقد أباحوا (الدروز) ولوج الموارنة خصوصاً والمسيحيين عامة الى مناطق كسروان والمتن في شمالي جبل لبنان والى منطقة عاليه والشوف اللتين يشكل الدروز بنيتها السياسية والقتالية . وكان يصل ما بين هذه الامارة نصف المستقلة وبين الإسلام السياسي خضوعها للباب العالي . وذلك في الوقت ذاته الذي كانت تتمتع فيه باستقلال ذاتي واسع . وكان شأن هذا الإستقلال انه كان يتسع وينحسر بحسب المنحى الغالب وبحسب قوة أو وهن الإمبراطورية العثمانية وبحسب توازي القوى في المنطقة . . . وهكذا فقد لعب الدروز دوراً في كل ما كان من شأنه الحفاظ على ضرب من ضروب الإستقلال ، كما كانت وظيفتهم

٢١ ـ كمالا جنبلاط . هذه وصيتي . ص ١٠٩ ـ ١١٠

حماية الساحل والحفاظ على مرافىء صيدا وصور وبيروت من أي هجوم خارجي . . . ولقد كان ينبغي لهذه الفكرة الدرزية عن لبنان ، أي لبنان متعدد الطوائف بغلبة درزية ومحمدية ، أن تكون في أساس ما سينشأ لاحقاً ويطلق عليه بعد العام ١٩١٧ لبنان الكبير . كما كان ينبغي للبنان أن يقوم على أساس ذلك المفهوم من الإستقلال الذاتي الذي تمتعت به الإمارة العربية عبر التاريخ ، لكن الأمور لم تجر على هذا المنوال ، بل جرى إنشاء نظام طائفية سياسية أحل غلبة مارونية لا مبرر لها بدلاً من إقامة دولة علمانية . ولقد كان ذلك بلية كبرى وطامة عظمى ، والإنتداب الفرنسي مسؤول الى حد بعيد عن هذا الزلل . . . والدروز . . . لما كانوا ارستقراطية محاربة فانهم استدعوا الموارنة للعمل في أراضي منطقتهم الشاسعة ، وبهذا أصبح المسيحيون يشكلون بصورة عامة اليد العاملة الزراعية والمزارعة ، وامتهنوا الحرف الصغيرة والتجارة . . . إذن لقد كانوا في تلك الفترة بروليتاريا لبنان الحقيقيين . وإن كانوا ينكرون اليوم تحدرهم هذا . ولا يعود مرد هذا الوضع الى عجز الدروز عن ممارسة الزراعة بل الى قلة عددهم . . . وإضطلاعهم بدور يتجاوز أهميتهم العددية بكثير . واذن ، لم يكن يكفي من الدروز لزراعة كامل هذه الأرض اللبنانية ، أوجبل الدروز كما كان يسمى في التاريخ . . .[22] » .

تلك الإعتبارات ، هي التي جعلت الزعيم الدرزي يطلب الى الرئيس السوري حافظ الأسد أن يدع المجال للدروز كي يقضوا على المسيحيين ، وهذا ما أعلنه الرئيس الأسد في خطابه الشهير في ٢٠ تموز ١٩٧٦ إذ قال :

٢٢ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٤٣ ـ ٤٤

« . . . قال لي كمال جنبلاط : خلونا نؤدبهم . . . لا بد من الحسم العسكري ، منذ مائة وأربعين سنة يحكموننا ، بدنا نتخلص منهم . . .[23] » .

وما لم يقله كمال جنبلاط لحافظ الأسد ، قاله في وصيته :
« والحق أنه لا يحسن التصرف إزاء الإنعزاليين الجاحدين الخبثاء العصاة سوى الدروز ، فهم يحكمون بالقوة حين تفيد القوة ، وبالطيبة حين يقضي العقل بالطيبة ، كنا واثقين من أن نصرنا العسكري وحده قادر على إنهاء حرب الإنعزاليين ، وكان ينبغي العمل بسرعة ، كنا سنعلن ريفون مدينة مفتوحة ونتلقى طلب الإستسلام ونوقع الهدنة . . .[24] » .

أليس من شأن هذه الأقوال أن تثبت المنطلقات والأطماع الدرزية في حرب كمال جنبلاط؟!

في أي حال فان الدروز ، وإن كانوا قد أضاعوا حلمهم في منتصف القرن التاسع عشر بالسيطرة على لبنان وجعله وطناً قومياً لهم ، فقد بقوا أصحاب شأن في الدولة اللبنانية أكثر بكثير مما هم عليه في الدولة السورية . فاستفادوا من نظام فدرالية الطوائف ، إذ كان لهم نوابهم في المجلس النيابي الديموقراطي ، وساهموا في الحياة السياسية مساهمة أساسية إن في الوزارات أو في الأحزاب أو في سائر الحياة السياسية في لبنان . وقد يكون ابن هذه الطائفة ، كمال جنبلاط ،

٢٣ ـ الكتاب الأبيض اللبناني . وزارة الخارجية والمغتربين . (بيروت ١٩٧٦) ص ١٢٩

٢٤ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي ص ١٠٩

أحد الأقطاب القلائل الذين أثروا في مجرى السياسة اللبنانية كما لم يؤثر أي زعيم سياسي آخر في لبنان . إلا أن طموح كمال جنبلاط ، كان أكبر من الوزارة وأبعد من تزعم القوى اليسارية في البلاد ، وقد تكون رغبة جنبلاط في ترؤس لبنان مسؤولة عن الإعتبار الخاطىء الذي أعطي لموقف الدروز من الوطن اللبناني . والحقيقة تفرض القول بأن هؤلاء الدروز الذين استطاعوا عبر الصيغة اللبنانية القائمة ، أن يحافظوا على قدر من السلطة والمشاركة في الحكم ، كانوا متمسكين بتلك الصيغة ، مرحلياً ، الى أن يقدر لهم في يوم من الأيام تحقيق حلمهم القديم : الوطني القومي

* * *

لم يكن من الطبيعي أصلاً أن يجاري الدروز السنة في هدفهم الرامي الى القضاء على الصيغة اللبنانية في هدف جعل دين الدولة الإسلام ، كون الدروز لا يقرون هذا المبدأ .

فالدروز أساساً ، لا يتفقون مع المسلمين في فحوى أحكام الدين . وأهم ما يعنينا في هذا المجال هو ما تم تبيانه من أن العقيدة الدرزية ليست عقيدة جامدة منعزلة ، إنما هي عقيدة متطورة منفتحة على جميع الأديان . فان « جميع الناس في النهاية ، يلتقون على الشواطىء المتقابلة ليغرفوا الماء ذاته من الأوقيانوس ذاته ، وإنما ، في جهلهم ، يختلفون على درجة ملوحة أو عذوبة مياه البحر ، كلهم ، في النهاية ، نصارى ، كلهم ، في النهاية ، مسلمون[25] » .

٢٥ ـ كمال جنبلاط . لبنان واقعة ومرتجاه . محاضرات الندوة اللبنانية . السنة الحادية عشرة . النشرة الأولى . ص ٥٧

في العام ٩٣٤م أصدر الحاكم بأمر الله ، وهو أصل العقيدة الدرزية ، مرسوماً اعتبر مخالفاً للإسلام ، وفي الوقت نفسه ، أساساً للدرزية ، وقد أكد ذلك المرسوم على سمة التطور عند الدروز ، وعلى نبذ الجمود المتبع لدى المسلمين ، وجاء فيه : « أما بعد فان أمير المؤمنين يتلو عليهم آية من كتاب الله المبين ، لا إكراه في الدين . . مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه ، معاشر المسلمين : نحن الأئمة وأنتم الأمة . من شهد الشهادتين ، ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعها هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرم عليها ما حرم من كل محرم من دم ومال ومنكم ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ، والفساد من العباد يستقبح ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية ، أيام آبائنا الأئمة المهتدين . . . »

وتبلغ جرأة هذا الإمام التقدمي الثائر ذروتها في مرسومه حين يدعو المسلمين الى ممارسات سليمة في طرق العبادة لو طبقت منذ ألف عام ، لكان الإسلام قد تجاوز في تقدميته مختلف الأديان ، فيقول :

« . . . يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس في التكبير على الجنائز المخمّسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ، يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف ، والمخالف فيهم بما خلف ،

لكل مسلم مجتهد في دينه واجتهاده ، والى الله ربه ميعاده عند كتابه وعليه حسابه ، ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتقده ، من جميع ما نصّه أمير المؤمنين في سجله هذا ، وبعده قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون . . . [26] » .

إن أتباع رائد تطور مثل الحاكم بأمر الله ، لا يمكن أن يقروا ، بعد ألف عام ، بوجوب العودة الى الدولة الإسلامية . ولم يخف زعماء الدروز هذا الرفض لدعوة القومية العربية ، لأن العربان « ليس لديهم برلمان ولا دستور بالمعنى الصحيح للكلمة ، ولأن النظام البرلماني اخترعوه كما يخترع العرب بعفويتهم البدوية أنظمة لا صلة لها بالأنظمة الدستورية . . . [27] » .

ويذهب الدروز في تحيهم عن العرب والمسلمين أبعد من ذلك ، إذ يقول كبيرهم : « . . . نحن في عقليتنا نفكر على أساس المنطق الغربي ، لا المنطق البدوي المتخلف . . . [28] » .

هذا الخلاف في المبدأ بين الدروز والسنة ، فعل فعله خلال الحرب اللبنانية كما ليس معروفاً من قبل العامة .

فخلال الإجتماعات التي كانت تعقدها قمة عرمون بحضور شيخ عقل الطائفة الدرزية ، كانت لسماحته مواقف هامة ، تتسم

---

٢٦ - راجع : سعيد الصغير . ص ٢٣٣

٢٧ - كمال جنبلاط . جريدة « المحرر » البيروتية ١٠/ ٩/ ١٩٧٦

٢٨ - كمال جنبلاط . جريدة « السفير » البيروتية ١١/ ٩/ ١٩٧٦

بالحسم والصلابة والسماحة على ما فيها من قلة في الكلام ، وتنم عن تمسك الدروز بحقوق الأقليات .

ففي الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٧٥ ، اشترك الشيخ محمد أبو شقرا ، ممثلاً الطائفة الدرزية ، في اجتماع قمة عرمون بالسفير البابوي في لبنان الكردينال الفريدو برونيرا .

في ذلك الإجتماع ، خاطب مفتي المسلمين الشيخ حسن خالد السفير البابوي بقوله :

« ... الخلاف بين اللبنانيين ليس خلافاً طائفياً ، وإنما هو خلاف سياسي ... سبب ذلك أن الدستور اللبناني سنة ١٩٢٦ أعطى لرئيس الجمهورية صلاحيات واسعة لا مثيل لها في العالم ، ولا في أي دستور ، وقد انتقلت هذه الصلاحيات من عهد الإنتداب الى عهد الإستقلال ، وللأسف زادوا في الإساءة من استعمالها وسببوا هذه الأزمة ، الشكوى تعود الى المادة ٩٥ من الدستور ... »

إلا أن شيخ العقل قاطع المفتي بقوله : « لا أرى أنه من الضروري الغاء المادة ٩٥ من الدستور ، فالشكوى ليست من وجود هذه المادة ، ولكن من منفذيها ، هذه المادة هي التي تضمن مطالبنا ، وينبغي أن نتمسك بها...[٢٩] » .

لم تتوقف معارضة شيخ العقل لاستراتيجية السنة عند هذا الحد ، بل تعدته الى الممارسات السياسية ، وكان فيها من الجرأة ما يستدعي التقدير .

٢٩ ـ راجع : الشيخ حسن خالد . ص ١٨٩

فبينما كان المسلمون في ذروة انقضاضهم على المسيحيين وامتيازاتهم في أوائل ١٩٧٥ ، عقد اجتماع في منزل المفتي حسن خالد ، أعلنت خلاله مواقف من قبل رشيد كرامي وصائب سلام وعبد الله اليافي وياسر عرفات والمفتي حسن خالد ، كان فيها من التطرف ما لم يعرف قبلاً في تاريخ لبنان ، وقد كان لشيخ العقل في تلك المعمعة ، موقف حكيم مشرف .

كان ذلك في الثاني من كانون الثاني ، حيث قال الرئيس رشيد كرامي : « ... ينبغي أن يكون لنا موقف ... وأن نكون في منتهى الشدة ، ينبغي أن يكون هناك غالب ومغلوب ، وينبغي أن يعرفوا أن الصراع ضد مصلحتهم ... » فانبرى له الشيخ محمد أبو شقرا قائلاً :

« ... لماذا لا تجري اتصالات شخصية معهم لمعرفة حقيقة مواقفهم والتفاهم معهم ؟ إذا كانوا يريدون ضمانات يمكن أن نتفهم مشاعرهم هذه ، أما إذا كان هناك تصلب وتصلب معاكس ، فمن يقوم بدور الوسيط ويجلس مجلس الحكم والمرجع[٣٠] » .

بعد الإطلاع على هذه المواقف ، يمكن استخلاص الإستراتيجية التي كان الدروز يعملون من خلالها أثناء الحرب اللبنانية ، فهم لم يكونوا يعملون على تعريب أو أسلمة لبنان كما كان يهدف السنة ، بل ، وقد وجدوا أنفسهم في تلك المعمعة ، كانوا يعملون للمحافظة على حقوقهم ، من خلال المحافظة على حقوق الأقليات ، وإلا ، وفي حال التقسيم ، فلا بد من أن يكون لهم حصة من بين الحصص ،

٣٠ ـ راجع : الشيخ حسن خالد . ص ٩٢

وبمطلق الأحوال ، فهم ضد أسلمة لبنان أو تعريبه .

ومن أوضح البراهين على تمسك الدروز بالصيغة اللبنانية ، موقف السيد وليد جنبلاط عندما قامت في المنطقة الغربية من بيروت ، في أواخر ١٩٧٨ ، حملة مركزة ضد رئيس الجمهورية الياس سركيس ، مطالبة باستبداله برئيس آخر ، يومها قال جنبلاط :

« ... لا بد من التعامل مع الأزمة اللبنانية على أساس الواقع لا على أساس التمنيات ، وإن المغامرة بدفع رئيس الجمهورية نحو الاستقالة تعني المغامرة بامكانية قيام حالة شاذة من الفراغ الدستوري ... إن الصراع اللبناني هو خلاف على طريقة الممارسة وليس ثورة أو انقلاباً أو تخطيطاً لتغيير النظام[٣١] » .

أما مواقف الدروز التقدمية ، وهي المواقف المتعارضة تماماً مع المبادىء السنية ، فيمكن إدراكها من خلال الإطلاع على حقيقة موقفهم من قضية العلمنة .

كان من الطبيعي أن يوافق الدروز على العلمنة ، وهم من أتباع الحاكم بأمر الله ، فان المرء « يجد بين الدروز أبداً أناساً ليبراليي العقلية ، فخورين في الوقت ذاته بطائفتهم وبميراثهم الديني والثقافي والسياسي ، من دون أن يورثهم ذلك الشوفينية أو التعصب ، فلقد طالما عرف الدروز عبر التاريخ بعقليتهم الليبرالية .[٣٢] » .

هذه الفروقات الأساسية بين الدروز والسنة ، عرضت كمال

٣١ - « الحوادث » العدد ١١٦٤ الجمعة ٢٣ شباط ١٩٧٩ ص ٦

٣٢ - كمال جنبلاط . هذه وصيتي ؛ ص ٤٥

جنبلاط لأعنف هجوم من قبل المسلمين عندما أعلن عن موافقته على العلمنة في لجنة الحوار عام ١٩٧٦ ، إذ أصدر مجلس العلماء المسلمين في لبنان بياناً جاء فيه :

« ... إذ بالمسلمين يشهدون سياسياً معروفاً يقود حركة أغلب عناصرها من المسلمين ، ويتميز بعدائه السياسي لجميع زعماء الموارنة ، تقريباً ، يشهدونه وقد توافق كلياً مع زعماء الموارنة في موضوع العلمانية ، بل إنه يقررها في رأس برنامجه السياسي ويطالب مرشحي رئاسة الجمهورية بالتعهد الخطي لتطبيقها ... ونحن نعلم ... أن السياسي المعروف ، المتميز بعدائه لزعماء الموارنة في السياسة ، والحليف المتوافق معهم في موضوع العلمانية ، إنما يبني موقفه بقصد ... تحقيق تقدم ملموس في خطة انتزاع الرئاسة الأولى ، وهذا غاية ما يطمح للوصول اليه باسم العلمانية . »

ولم يوفر البيان مهاجمة الدروز كدروز ، إضافة الى مهاجمة كمال جنبلاط إذ جاء فيه :

« إن المجلس يقرر تسجيل عدم معارضة زعماء الموارنة ومن يتوافق معهم من زعماء الدروز في مطالبتهم بتطبيق العلمانية فيما يخص أحوال طائفتهم الشخصية فحسب ، إذا كانوا يرون فيها الحلول المناسبة لما قد يشكون منه ...[٣٣] »

وحمل البيان توقيع رئيس مجلس العلماء في لبنان الشيخ مختار العلايلي ، أمين الفتوى في الجمهورية اللبنانية ، والشيخ أحمد عساف مدير المجلس .

ولم يكن موقف كمال جنبلاط من شكل الدولة اللبنانية موقفاً

٣٣ - « الأنوار » ٢٥/٣/١٩٧٦

منسجماً في أي يوم من الأيام مع مواقف المسلمين . فبالإضافة الى اختلافه معهم في موضوع العلمنة ، كان ، في الواقع ، يختلف معهم في النظرة الى حقيقة شخصية الدولة اللبنانية ، ومن أهم تلك الاختلافات ، النظرة الى اللامركزية والى حقوق الأقليات . ومن أقوال جنبلاط أن « لبنان السياسي قائم على هذا التنوع الغريب العجيب ، منه يستمد هذه الحرية وهذه السماحة وهذه التقاليد الراسخة في الشورى والديموقراطية . . . لبنان وجد فعلاً ليكون بلد اللامركزية ، بلد الكنتونات . . . ولم ينجح حكم في لبنان سوى حكم اللامركزية ، وإنما الديموقراطية السياسية الناجحة في النهاية لا تقوم إلا على مرتكز قوي ومتطور من الديموقراطية البلدية المحلية . . . ولولا العقلانية لما قام هذا الوطن ونما وتطور، لما كان هذا الكومنولث ، هذا الإتحاد الفدرالي الغريب لتنوع أغرب من الأقاليم والعائلات الروحية والقرى والمدن ، ولملتقى الحضارات القديمة والحديثة وسواها من وجوه التنوع . . . وقد يكون لبنان في هذا الإتجاه الإتحادي المتفهم الرحب ، مثالا لسواه من شقيقاته وجاراته من الدول العربية كي تتمكن من أن تحل مشاكلها القومية والداخلية . . . . فجميع هذه الدول تستطيع أن تتوجه الى الروح الفدرالية التي تؤمن الإستقرار الداخلي وترضي الأقليات المذهبية والاتنية وتؤلف وتربط بين تنوع أقسام الوطن ، هذه الأقليات المذهبية والاتنية التي يجب أن تحصل على الضمانات الكيانية والبقائية البدائية الأولى ، وإلاّ واجهت الدول مشاكل وأزمات لا تعد ولا تحصى ، ليس أقلها كيان الوطن وعدم الإستقرار الدائم[٣٤] » .

٣٤ ـ كمال جنبلاط . لبنان في واقعه ومرتجاه . محاضرات الندوة اللبنانية . السنة الحادية عشرة . النشرة الأولى . ١/ ١/ ١٩٥٧ ص ٥٠ ـ ٦٧

من الطبيعي أن يعاني الدروز هاجس الأقليات في بحر الشرق الأوساط الإسلامي ، ومن الطبيعي أيضاً أن يلجؤوا الى مطالبة البلدان العربية المجاورة ، والمقصودة بالطبع سوريا ، بأن تعتمد الصيغة اللبنانية مع شيء من اللامركزية ، كما يكون لدروز سوريا ما لدروز لبنان من حقوق ومشاركة في قطاعات الدولة . أما بالنسبة لدروز اسرائيل فيبدو أنهم يتمتعون في الوقت الحاضر بنوع من الحكم الذاتي ، فان هؤلاء « الثلاثين ألف درزي . . . لديهم رئيساً روحياً يقودهم . . .[٣٥] » .

الأهداف الخطيرة

غير أن موافقة الدروز على صيغة تحفظ للأقليات حقوقها كما هي الحال في لبنان ، لا تعني أن أمل هؤلاء بأن يكون لهم وطن قومي ، قد انعدم ، خاصة عندما يطرح موضوع إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط. فان الدروز ، إن في لبنان أم في سوريا أو اسرائيل ، ينتظرون « يوماً يتغير فيه كل هذا » وقد عبر عن هذا « الانتظار » السيد كمال جنبلاط في وصيته :

« . . . من بين مشاكلنا كدروز ، هناك مشكلة وجود جماعة درزية في اسرائيل ، وهؤلاء الدروز ليسوا ، كما يحكي البعض ، خدما أوفياء للدولة اليهودية ، ولكن الدرزي من الحكمة بحيث أنه لا يتخلى عن أرضه متى جاء المحتم ، والواقع انه شديد التعلق بأرضه

٣٥ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٥٨

ومراجع طائفته . ثم لماذا الهرب ؟ فخير للمرء أن يبقى على أن يترك موضعه للآخرين . وهذا هو المبدأ الذي طبقه الدروز عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٨ عندما حاول الإسرائيليون طرد العرب . إن لديهم الحس بالزمان ، ويعلمون أنه سيأتي يوم يتغير فيه كل هذا ، لأنه لا ثبات لشيء تحت الشمس . . . إذا ، فان الدروز . . . بانتظار أن يتبين متى وكيف سيكون منقلب الأمور ، فهم يعلمون انه لا جدوى من الهجوم على طواحين الهواء . . .[٣٦] » .

هذا « اليوم المنتظر » الذي قد « يتغير فيه كل شيء » بدا قريباً جداً أثر اشتعال الحرب اللبنانية واستشرائها . ويبدو أن لعبة إقامة الوطن القومي الدرزي كانت تمارس بموازاة سائر باقي اللعبات . . . وقد بديء بوضع خطوطها منذ العام ١٩٦٧ .

فعندما انفجر الوضع في لبنان ، برز بين الدروز تيار يدق ناقوس الخطر ، ويحذر من مخططات التقسيم ، وقد تزعم هذا التيار رئيس « اللجنة التحضيرية لتجمع المجاهدين الدروز » الشيخ نديم العماد الذي اتهم كمال جنبلاط بتنفيذ مخطط التقسيم الشامل إنشاء دولة درزية ، فقال :

« إن تقسيم المنطقة العربية الشرقية الى دويلات طائفية يبرر وجود اسرائيل ويضمن حمايتها ، بدأ منذ زمن طويل ، وعرض على عدد من زعماء الدروز قيام دولة درزية تمتد من مرجعيون الى وادي التيم حتى جبل الدروز ، عرضت هذه الدولة على زعماء دروز لبنانيين فرفضوها ، وعرضت على زعماء دروز في جبل العرب فرفضوها

٣٦ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي ص ٥٦ ـ ٥٧

أيضاً ، وأخيراً عرضت هذه الدولة على السيد كمال جنبلاط فلاقت قبولاً وشغفاً . . . ومنذ ذلك الحين ، في العام ١٩٦٧ ، بدأ يعمل من أجل هذه الدولة . . .[٣٧] » .

ثم هل يمكن أن يكون من المصادفات ، تحدث وزير الدفاع الإسرائيلي شيمون بيريز ، عن اليوم الذي سوف « يتغير فيه كل شيء » بالتعبير نفسه الذي استعمله السيد كمال جنبلاط ، في الموضوع نفسه ؟

تحدث شيمون بيريز ، مشيراً قضية توزع الدروز في كل من سوريا ولبنان واسرائيل ، فقال :

« هناك زعماء دروز يتطلعون الى اليوم الذي تسمح فيه « تغييرات مناسبة » في الشرق الأوسط لجمع الدروز بالعيش سوية في جبل الدروز وبالتمتع بالحكم الذاتي . . .[٣٨] » .

وعندما تسربت بعض المعلومات الخطيرة حول مشروع الدولة الدرزية لنقيب الصحافة اللبنانية الأستاذ رياض طه ، وهو من وجهاء الطائفة الشيعية المتمسكة بأرض جنوب لبنان ، دعا الى اجتماع مغلق عقد في الثاني والعشرين من أيار عام ١٩٧٣ في دار النقابة ، وكانت يومذاك أحداث خطيرة تقع بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية بعد استقالة حكومة الرئيس صائب سلام وتشكيل حكومة الرئيس أمين الحافظ .

كشف طه خلال الإجتماع الذي حضره عدد من الشخصيات

٣٧ ـ « الحوادث » العدد ١٠٤٠ الجمعة ١٥/ ١٠/ ١٩٧٦ صفحة ٧

٣٨ ـ SHIMON PERES. David et sa fronde (L'armement d'Israel) ed: STOCK (Paris, 1971) P.322

السياسية والصحافية عن أنه نصح الرئيس أمين الحافظ بعدم الإستقالة لتفادي تشكيل حكومة عسكرية ، وقال : « . . . إنني أخشى عند أي خلل في حياتنا الديموقراطية أن ينفتح باب أزمة كبرى تؤدي الى تقسيم لبنان ما دامت اسرائيل تحلم بتشكيل دويلات طائفية لكي تبرر كيانها العنصري الشاذ . . . وسوف أعقد مؤتمراً صحافياً أذيع فيه أسراراً ووثائق عن محاولات إسرائيل لإنشاء دولة طائفية تضم جنوب لبنان وجزءاً من الشوف والبقاع الغربي مع الجولان المحتل . إن محامياً لبنانياً كبيراً قد دعي الى روما لمقابلة رئيس الإستخبارات الإسرائيلية ، وقد قابله بالفعل واطلع على ذلك المخطط الرهيب ، فاطلع عليه بعض الجهات اللبنانية والسورية وتم إحباط المكيدة حينذاك . غير أن اسرائيل ما تزال مصممة على تنفيذ خطتها ، وقد تدعمها أكثر من دولة أجنبية راغبة في القضاء على الثورة الفلسطينية وعلى الحريات الديموقراطية في لبنان .[٣٩] » .

إن السيد كمال جنبلاط . صاحب النظرية القائلة بامكانية « تتمتع بها كل أقلية مذهبية أو إتنية في أن تراجع الأمم المتحدة بشأن كيانها ومصيرها استناداً الى الحق الطبيعي والحق الدولي وشرعة حقوق الإنسان[٤٠] » إن هذا الرجل ، قضي عليه قبل أن يتمكن من تحقيق أي من أحلامه الكبرى ، ومنها حلم إنشاء الدولة الدرزية على أجزاء من لبنان ، والجولان ، وامتداداً حتى حدود جبل الدروز يوم كان دولة درزية ، بالإضافة الى جزء صغير من شمال شرقي إسرائيل . . .

فهل يتحقق الحلم بعدما قضى على الرجل ؟

---

٣٩ ـ فاضل سعيد عقل وانطوان جرجي الجبيلي الجزء الأول . ص ٣١٤

٤٠ ـ كمال جنبلاط . لبنان واقعه ومرتجاه . ص ٦٧

قد يكون لانكفاء الزعامة الجنبلاطية الدرزية الموروثة معنى هام في هذا المجال ، وقد بلغ هذا الإنكفاء ذروته في أواخر أيار **١٩٧٩** عندما قرر وليد كمال جنبلاط إقفال مكاتب الحزب التقدمي الإشتراكي في المنطقة الغربية من بيروت ، والإنتقال الى ممارسة زعامته الدرزية في المختارة . وقد جاء هذا القرار الجنبلاطي الإنكفائي إثر زيارة قام بها جنبلاط الى دمشق ، تبعها إرسال شحنات من الأسلحة والذخائر لحزبه عن طريق البقاع ، لتحط في قصر المختارة . . .

في أي حال ، فإن المصلحة الدرزية تقضي بأن تحافظ هذه الطائفة الصغيرة العدد ، نسبياً ، على كيانها . وبأن لا تذوب في كيانات كبرى ، تتجاوزها عدداً وإمكانات تجاوزاً خطيراً . ثم إن للطموح الدرزي ، المتمثل في تاريخ هذه الطائفة ، بالنسبة للنزعة الإستقلالية ، مدلوله الهام الذي لا بد من أخذه ، في هذا المجال ، بعين الإعتبار ، خاصة بعد العودة الى تاريخ الدروز الحافل بالمرارة والمعاناة بسبب اضطهادات الأكثرية الدينية لهم عبر الحقبات الطويلة .

أربعون سنة انقضت على ذوبان دولة الدروز التي عمّرت ، في جبل الدروز ، عشرين عاماً . تلك كانت آخر مراحل النفوذ الحقيقي الذي مارسه بنو معروف على مسرح شرق البحر الأبيض المتوسط . وخمس سنوات مرّت على الحرب في لبنان . . . . وأشهر قليلة على انكفاء الزعامة الدرزية نحو الجبل . . .

غنيّة تنقلات الدروز في لعبة الشطرنج ، التي لم تنته مباراتها القائمة على أرض لبنان بعد .

الفصل الخامس

العلويون

العلويون ، ويعرفون أيضاً بالنصيرية ، هم طائفة من الشيع الموالية لسلالة علي بن أبي طالب ، غير أن ما يميزهم عن أكثرية الطوائف الشيعية أنهم يغالون في تقديس علي .

إن ما يعنينا في هذا البحث ، ليس التعمق في معتقدات الطوائف من أجل معرفة المعتقدات ، إنما إلقاء نظرة سريعة على كل معتقد على حدة ، من أجل إبراز الأسباب الحقيقية التي تحول دون إمكانية الانصهار الإجتماعي غربي المنطقة التي كانت تعرف قديماً بسوريا الطبيعية ، والتي تقطنها شعوب تختلف في المعتقد اختلافاً هاماً . كذلك فان ما يعنينا من إبراز بعض المعتقدات لدى هذه الطوائف ، هو المقياس الذي اعتمدناه لحرب لبنان ، ألا وهو الحرب الدينية . تلك الحرب التي ما كانت لتحصل لولا تعدد الإنتماءات الطائفية في لبنان وسوريا ، ولولا رفض كل من تلك الطوائف العيش تحت نير الدولة الدينية التي يفرضها الشرع الإسلامي المحافظ (السني) وأتباعه من الأكثرية الساحقة في منطقة الشرق الأوسط وعموم البلاد العربية .

في نسبتهم وتعاليمهم

والعلويون (النصيرية) هم أتباع واحدة من تلك الطوائف « الأقلية » التي عانت بسبب عدم انتسابها للمجموع ، من القهر والإضطهاد عبر التاريخ مثلما عانت سائر الأقليات الأخرى التي لا تدين بالسنة . بل قد تكون هذه الطائفة عانت ما لم تعان بقدره سائر الأقليات الأخرى .

اجتهد المؤرخون حول أصل التسمية « العلوية » لهذه الطائفة التي تعرف أيضاً بالنصيرية . إلا أن الرأي الأقرب للمنطق ، هو القائل بأن نسبة العلويين تعود الى الامام علي بن أبي طالب ، وقد ظلّت سائر الفرق الشيعية تعرف بهذه النسبة الى زمن قريب . أما لقب النصيرية ، فهو نسبة الى محمد بن نصير النميري ، « باب » الإمام الحسن العسكري المتوفي عام ٨٧٣م .

من هو « الباب » ولماذا تنتسب اليه الطائفة النصيرية .

يقضي النظام الشيعي بأن يكون لكل امام « باب » و« الباب » عندهم هو صاحب أسمى مرتبة دينية بعد الإمام .

والإمام يأخذ عن « الباب » العلم ، ويكون « الباب » صب الإمام وحجته في الدين . ومن قول النبي العربي : « من طلب العلم فعليه بالباب » ومن قوله أيضاً عن علي بن أبي طالب : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وفي القرآن آيات عن الباب ، منها : « ادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم[١] » و« ادخلوا عليهم الباب فاذا

١ - قرآن ٢ : ٥٨ و٧ : ١٦١

دخلتموه فانكم غالبين[٢] » وفيه أيضاً : « فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا أبواب كل شيء[٣] » .

فلما انتقلت الامامة من الحسن العسكري ، الإمام الحادي عشر ، الى الإمام محمد (المهدي المنتظر) كان بن نصير « باب » الإمام الحادي عشر ، ولما اختفى الإمام الثاني عشر في إحدى المعارك الحربية ، قال بعض أتباع الشيعة بوجوب اعتبار الإمام محمداً غائباً ، وأنه سيعود في آخر الزمان ، فعرفوا بالاثني عشرية ، وهم من الشيعة ، بينما قال البعض الآخر بوجوب اتباع « الباب » بن نصير ، فعرفوا بالنصيرية .

يتحدر بن نصير من القرامطة ، وهم من الشيعة المتطرفة ، ينتسبون الى الإسماعيليين والفاطميين ، ونظامهم شبيه بجمعية سرية ذات مبدأ اشتراكي[٤] . وكونه من القرامطة ، فقد تطرف بن نصير في حب آل البيت وغالى في تقديسهم ، وقد حقق بأمره البحاثة « فان ديك » الأميركي الذي كانت له نشاطات علمية في بيروت ، فكتب أنه قام من طائفة القرامطة « نصير النميري ، شيخ كثير الصلوات والأصوام ، معتبر من الأولياء ، اختار اثني عشر رسولاً ينذرون باسمه ويعلمون تعاليمه ، وقد كتب بن نصير كتابا ، يقول فيه : « أنا فلان الذي يظن به أنه ابن عثمان ، رأيت المسيح الذي هو كلمة الله ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية من ولد علي ، وهو أيضاً جبريل الملاك ، فقال لي : أنت القارىء أنت الصادق ، أنت الحمل الحافظ الغضب

٢ - قرآن ٥٠ : ٢٣
٣ - قرآن ٦٠ : ٤٤
٤ - راجع

BERNARD LEWIS , the Origins of islam
(Cambridge, 1940)P. 19-22

على الكافرين ، أنت البقرة الحامل خطايا المؤمنين ، أنت الروح ، أنت يوحنا بن زكريّا ،علّم الناس أن يعملوا في صلواتهم أربع ركعات : اثنتين قبل شروق الشمس ، واثنتين قبل غروبها ، متجهين الى أورشليم . . . »

كان بن نصير يتمتع بذكاء خارق ، وقد عكف على دراسة مبادىء كافة الفرق الشيعية المتطرفة ، وصاغ منها المعتقدات النصيرية السريّة ، نظراً لكون هذه الطائفة تتبع المبدأ الباطني مثل الدروز ، ولا تزال تعاليمه مطبقة ، وهي منطلق الوعظ والإرشاد عند رجال الدين النصيريين[٥] .

انتقل بن نصير من الكوفة الى سوريا حيث راح ينشر تعاليمه ، وغاب هناك ولم يعد يعرف عنه شيء .

خلف بن نصير ، في « البابية » محمد بن جندب ، ثم عبد الله الجنان الجنبلان « العابد الزاهد الذي هو من بلاد فارس[٦] » الذي أسس الطريقة الصوفية المعروفة عند النصيرية بالجنبلانية ، والذي وضع الفقه العلوي الخاص بالنصيرية مقابل الفقه الجعفري عند الشيعة .

وخلف الجنبلان ، أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي : « وهو أعظم من كل من بعده ، إذ أكمل صلواتهم وأذاع تعليمه في

٥ ـ الشيخ عبد الرحمن خير في بيان الى الطائفة العلوية : منشور « وحيد العين » ص ٦ ـ ٧ . ويقول أن بن نصير قد كني بـ « وحيد العين » وبـ « وارد الوقت » .

٦ ـ سورة « النسبة » في كتب النصيرية الدينية ، أما كتبهم الدينية فهي : كتاب الأسوس . كتاب مجموع الأعياد . كتاب الهفت الشريف .

البلدان .[٧] »

قبل أن يتولى « الباب » العلوي ، كان الخصيبي (توفي ٩٥٧م) مولىً اسماعيلياً من موالي الحمدانيين في حلب . وقد نفح في أنصاره الروح والنشاط ، ورتب أنظمتهم ودبّر أمورهم ، وهم يذكرونه في صلواتهم بقولهم : « شيخنا وسيدنا وتاج رؤوسنا وقدوة ديننا وقرّة أعيننا أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي قدّس العلي روحه لأن مقامه مقام الصفاء ومحلّه محل الصدق والوفاء[٩] » .

وقالت تعاليم الخصيبي ، المعلم النصيري ـ العلوي المجدد ، بأن المسيح هو كل نبي ، وبالإجمال فان كل نبي ظهر في هذا العالم هو المسيح . وكذلك بعض حكماء الوثنيين وحكماء الفرس والعرب والجاهلية[١٠]

ولما ترك الخصيبي بلاد الشام قاصداً بغداد لنشر تعاليمه ، أمر الوالي البغدادي بالقبض عليه ، فأودع السجن ، إلاّ أنه تمكن من الفرار بعد حين ، واشتهر بين اتباعه بأن السيد المسيح خلصه ليلاً[١١]

٧ ـ سليمان الأذني . الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية . تحقيق :
E.E SALISBURY في JOURNAL of the AMERICAN ORI
ORIENTAL Society. Vol 8. P.243

٨ ـ راجع : L.MASSIGNON dans: ACTES du XVIII CONGRES
INTERNATIONAL DES ORIENTALISTES.
(Leyden, 1931) P.212

٩ ـ سورة « الأوّل »

١٠ ـ سليمان الأذني . ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

١١ ـ المرجع السابق.

بعد أن أسس الخصيبي مدرسة في بغداد ورأّس عليها الشيخ علي بن الجسري ، قصد حلب ، واستقر فيها بنشر تعاليمه ، حتى توفي في العام ٩٥٧م . وكان قد أسس مدرسة أخرى في حلب ، ورأس عليها الشيخ محمد علي الجلي .

ألف الخصيبي كتباً عديدة أهمها كتاب « رأس باش » ومعناه « كن مستقيماً » وأهداه لتلميذه عضد الدولة . وكتاب « الهداية الكبرى » الذي أهداه لسيف الدولة ابن حمدان حاكم حلب .

بعد وفاة الخصيبي بزمن قصير ، توقفت مدرسته في بغداد بينما انتقلت مدرسته في حلب الى اللاذقية ، وراحت تزدهر بفضل القيمين عليها ، وأشهرهم « أبو سعيد الميمون بن قاسم الطبراني » الذي ألف كتباً عدة في العقيدة النصيرية ، منها : « مجموع الأعياد » وكتاب « الدلائل بمعرفة المسائل » و« كتاب الحاوي في واجبات التلاميذ » ، وسواها .

ومن مشاهير من استلموا الدعوة النصيرية بعد أبو سعيد الميمون ، الأمير حسن المكزون (توفي سنة ٦٣٨هـ) « الذي جاء اللاذقية من سنجار على رأس قوة عسكرية كبيرة لنجدة بني قومه من تجاوزات الأكراد[١٢] » . وخلف المكزون ، مشايخ عدة ، منهم الشيخ حاتم الطوباني ، والشيخ حسن البرّي ، والشيخ علي القصير ، والشيخ ابراهيم الطرطوسي . . .

أمّا أعمق ما أصبحت تتميّز به الديانة العلوية ، بعد كل الإجتهادات التي علّمها أئمتها فهو ، تعظيم علي . . . وكانت فرق

١٢ ـ محمد الطويل . تاريخ العلويين . ص ٣٠٦

كثيرة من الشيعة ، قبل النصيرية ، قد ألهت الإمام الأول ، ومنها « الذمية » التي اعتبرت أن علياً هو الله ، و« البيانية » التي اعتبرت أن روح الله دارت في الأنبياءوالأئمةحتى انتهت الى علي . و« الجناحية » التي قالت أن روح الله دارت في علي وأولاده . و« الشريعية » و« النميرية » اللتان أدعتا أن روح الله حلت في عدة أشخاص : النبي ، وعلي ، وفاطمة ، والحسين[١٣] وعلي عند العلويين هو « أمير النحل » على أن المؤمنين هم كالنحل . وفي القرآن آية تقول : « وأوحى ربك الى النحل[١٤] » .

وعندهم أن محمداً نفسه أعلن الوهية علي ، وقد ورد ذلك في السيرة الحادية عشرة من صلواتهم وهي تقول : « والسيد محمد ينادي ويقول: هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبحوه وعظّموه وكبّروه . وهذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه[١٥] » .

أما عن العلاقة بين محمد وعلي ، فيقول النصيري :

« . . . أشهد بأن مولاي أمير النحل اخترع السيد محمد من نور ذاته ، وسماه اسمه . ونفسه وعرشه وكرسيه وصفاته ، متصل به ولا منفصل عنه ، ولا متصل به بحقيقة الإتصال ، ولا منفصل عنه في مباعدة الإنفصال . متصل به بالنور ، منفصل عنه بشهادة الطيور ، فهو منه كحس النفس من النفس أو كشعاع الشمس من القرص . . . فان شاء علي بن أبي طالب بالظهور أظهره ، وإن شاء بالمغيب غيبه ،

١٣ ـ البغدادي. الفرق بين الفرق . ص ٢٢٥ وما يليها.
١٤ ـ قرآن . سورة النحل. ١٦ : ٦٨
١٥ ـ سورة الشهادة. (السورة الحادية عشرة)

تحت تلالي نوره . . . .[16] » .

والخاصة تعرف من هذا الكلام أن « محمداً متصل بعلي ليلاً ومنفصل عنه نهاراً » ويعنون « إن الشمس هي محمد[17] » ويقولون « ان علياً خلق القمر ليسكن فيه كالرجل الذي يبني له بيتاً ليسكنه أو يصنع كرسياً ليجلس عليه ، لأنهم يعتقدون بأن السواد الذي في القمر هو المعبود ، وله يدان ورجلان وبدن ، وعلى البدن رأس وعلى الرأس تاج وبيده سيف هو ذو الفقار »[18]

والمذهب النصيري مذهب باطني شبيه بالمذهب الدرزي .

ومن أسس العقيدة الشيعية عامة القول بالباطن والظاهر ، أي بالحقيقة والشريعة ، أو أيضاً بالمرموز والرمز ، والممثول والمثال . فان « الظاهر في تقلب مستمر مع حقب العالم وأدواره ، أما الباطن فطاقة إلهية غير خاضعة للصيرورة[19] » . وأفضل تعبير عن هذه العقيدة قول علي بن أبي طالب : « ما من آية قرآنية إلا ولها أربعة معان : ظاهر وباطن وحدّ ومطّلع . فالظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، والحد أحكام الحلال والحرام ، والمطّلع مراد الله من العبد بها » . وأشار جعفر الصادق الى ذلك بقوله : « إن في كتاب الله أموراً أربعة : العبارات والإشارات واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء[20] » والباطن هو العلم الذي لا يباح به حسب قول زين العابدين : « ورب

---

١٦ ـ سورة الفتح (السورة الخامسة)
١٧ ـ سليمان الأذني ص ٢٤٧
١٨ ـ سليمان الأذني ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠
١٩ ـ هنري كوربان . تاريخ الفلسفة الاسلامية . الجزء الأول . ص ٤٢
٢٠ ـ الملا محسن الفيض الكاشاني ، الصافي . من المقدمة .

ظاهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا[21] » .

« لذلك فان القول بالباطن يحتم القول « بالتقيه »[22] لأن الباطن حقيقة ، والحقيقة يجب ألا يطلع عليها إلا أهلها ومستحقوها . وقد أشار القرآن الى ذلك في قوله :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أصحابها[23] » وقال الامام جعفر الصادق : « قضيتنا سر في سر ، سر أمر دائم الستر ، سر لا يكشف عنه إلا سر آخر ، إنه سر على سر ، يكتفي بسر[24] » .

---

٢١ ـ زين العابدين ، وهو لقب لعلي بن الحسين . (٦٥٨ ـ ٧١٢ م) رابع الأئمة عند الشيعة . ولد وتوفي في المدينة . يعتبر المؤسس الثاني للمدرسة في الإسلام ، تميز بانجازاته في تحرير العبيد ، كما تميز بأدب الدعاء . جمعت أدعيته في « الصحيفة السجادية » .

٢٢ ـ قال جلال كشك في التقية (« الحوادث » العدد ١١٦١ الجمعة ٢ شباط ١٩٧٩ ص ٢٢) « لما اشتد قمع السلطة للشيعة ، اجتهد بعضهم بأنه يجوز حماية النفس والحركة بالكذب على السلطة الباغية ، وهو موقف اعتقد أن جميع الفقهاء يقرونه لأنه يكفل حماية العمل الإسلامي ، ومنع هلاك النفس ، ولأن السلطة الباغية لا تؤمن بالله ولا بشريعته ، فلا يجوز أن تستفيد من صدق المؤمن ، وقد غفر الله إنكار بعض أوائل المسلمين إسلامهم تحت وطأة العذاب « يتقون » بذلك شر المشركين ، فهذه هي « التقية » .

٢٣ ـ قرآن ٤ : ٥٨ .

٢٤ ـ جعفر بن محمد الباقر ، المعروف بالصادق (٦٩٩ ـ ٧٦٥م) الامام السادس للشيعة ، واليه ينسب المذهب الجعفري الشيعي ، وعليه معظم الشيعة . ولد وتوفي في المدينة ، كانت مدرسته امتداداً لمدرسة أبيه الباقر ونجحت نجاحاً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية . وبلغ عدد المنتمين اليها في المدينة أربعة آلاف من كل الأقطار الإسلامية ، وكان لها فرع كبير في الكوفة ، من أعظم إنجازات الصادق دعوته الى التأليف والتدوين ، وكان قبله قليل الحدوث ، وبلغ ما ألف تلاميذه أربعمئة كتاب لأربعمئة مؤلف .

وسبب التشديد على « التقية » هو بلا شك، الإضطهاد والظلم اللذان تعرض لهما العلويون طيلة تاريخهم المنكود . ولم يكن تظاهرهم بجميع الطوائف والأديان إلا للنجاة بنفوسهم من العذاب ، ولهذا السبب بقيت في تقاليدهم وطقوسهم وأعيادهم بقايا من جميع الطوائف التي تمظهروا بها . . . وأكبر أعيادهم : عيد الغدير[25] في ١٨ ذو الحجة ، وعيد الأضحية في ١٠ منه ، وعيد المهرجان في ١٦ تشرين الأول ، وعيد البربارة في ٤ تشرين الثاني ، وعيد بعد أسبوع منه ، وعيد بعد أسبوع آخر منه ، وعيد ميلاد المسيح في ٢٥ كانون الأول ، وعيد الغطاس في ٦ كانون الثاني ، وعيد السابع عشر من آذار ، وعيد أول نيسان ، وعيد الرابع منه ، وعيد الخامس عشر منه ، وعيد الغدير الثاني في ٩ ربيع الأول ، وعيد ليلة منتصف شعبان ، وعيد يوحنا المعمدان ، ويوحنا فم الذهب ، وعيد الشعانين والعنصرة ، وعيد لمريم المجدلية .

المجتمع النصيري ، دينياً ، ينقسم الى طبقتين : الجهال والمشايخ . فالجاهل يدخل في الديانة تدريجياً على يد أستاذ ، له من تلميذه كل التكريم والإجلال والإعتبار ، هذه الإعتبارات لا تعطى للوالد الطبيعي ، كون هذا الوالد يعرض أولاده « لدار الشقاء » وأما ذلك الأب الروحي الذي هو الأستاذ « فيقودهم الى معرفة الحق » والأستاذ لا يكون إلا من شيوخ العلم العقال الذين ينقسمون بدورهم الى ثلاث مراتب : الإمام والنجيب والنقيب . هؤلاء يستشيرهم الجهال في كل شيء ، ومتى حكم الشيخ المستشار فلا مرد

٢٥ ـ عيد الغدير ، نسبة الى غدير الخم ، وهو نبع في واد قريب من جحفة على الطريق بين مكة والمدينة ، تقول الشيعة أن النبي توقف عنده أثناء عودته من حجة الوداع وسمّى علياً خليفة له .

لحكمه ، ويبلغ الإعتقاد عندهم بشيوخهم أنهم معصومون عن الخطأ .

المقهورون

عانى النصيريون ـ وسنذكرهم فيما بعد بالعلويين ـ في تاريخهم القديم ، من السنة ، ما عاناه الشيعة (راجع فصل الشيعة) ذلك بفعل الخلاف العميق بين السنة والعلويين في المبادىء الدينية ، ومن أوجه الخلاف بين العلويين والسنة ما هنالك من أوجهه بين الشيعة والسنة ، فيها أن العلويين عندهم القول بالتقية والظاهر والباطن والتأويل مما لا تقره السنة ، وكما عند الشيعة ، فان الإمام العلوي قادر على الافتاء والتطوير والإجتهاد في الدين ، بينما ذلك غير جائز عند السنة . ومما زاد رقعة الخلاف اتساعاً بين هاتين الديانتين أن أهل السنة ، قد أنكروا لمحمد أحاديث نبوية تشير الى مقام علي وولايته ، كما اتهموا علياً بمقتل عثمان ويختلف العلويون مع السنة في مبدأ الحج الى مكة . . .

بفعل هذه الفوارق ، لم تسلم المناطق العلوية من فتوحات المسلمين المتوالية ، وفي عهد المماليك ، تعرض العلويون لحملات الإبادة بعد إفتاء ابن تيمية الذي اعتبر « أن النصيرية ليسوا مسلمين وتجب إبادتهم » . كذلك فعل السلطان سليم العثماني الذي قضى على المماليك في المنطقة وأقام الامبراطورية العثمانية في العام ١٥١٧ ، فهو بعد ما أخذ من بعض العلماء الفتوى المشهورة لقتال « العلويين أو الكفرة » هاجم الكرخ البغدادية ونهب أموال العلويين وسبى نساءهم وقتل رجالهم واسترق ذراريهم ، ثم زحف على حلب ، فجاءه الأمراء

والمقدمون والمشايخ العلويون من كل ناحية يطلبون منه الرحمة على رعاياهم ، وإذ اجتمع اليه تسعة آلاف وأربعمائة رجل منهم ، قتلهم بموجب تلك الفتوى ، ثم أمر بقتل العلويين باسم الدين . . . وتاه قسم منهم شارداً في البراري ، وقسم تبعوه في جيوشه الظافرة ، وقسم هرب الى الجبال ، والقوات التركية تتبع أفراده وتقتل من تظفر به منهم ، وقد قتل في حلب وحدها أربعون ألفاً ، وعمت البلوى بين علويي ديار بكر وماردين والعواصم والبلاد التركية وسائر الأناضول ، حيث كان العلويون الذين لا يبادرون الى الإنتساب للمذهب الشافعي (السني) يبادون . . . وبعد حلب وجوارها ، حاول السلطان سليم الزحف الى الجبال لتتبعهم ، وإذ تعذر عليه ذلك لمناعة تلك الصرود ، استقدم بعض العشائر التركية وأسكنها بجوار العلويين لمضايقتهم ، « وكان القصد من ذلك تسليط العشائر التركية عليهم لمحوهم . . . . ثم استولى الأتراك على جميع سهل جبلة واللاذقية . . . حتى لم يبق أثر لهم فيها سوى مقابر الأجداد[26] . . . » .

ثم تحالف الإسماعيليون مع الأتراك ضد العلويين ، مما جعل هؤلاء الأخيرين في حالة حصار ، عرفوا خلالها الضيق القاسي ، وراحت عشائرهم تتناحر في صراعها من أجل البقاء وتتنافس « على تحصيل المعاش لضيق المنطقة التي لجؤوا اليها ، ولكثرة عدد النازحين ، حتى جرى بينهم قتال وشرور ، فأصبح الأخ يقتل أخاه ليأكل ما عنده ، وبذلك تمكن السلطان العثماني من إبادة الملايين من العلويين القاطنين في ديار بكر والموصل وحلب وأدنى الأرض السورية ومصر .

---

٢٦ ـ محمد الطويل . تاريخ العلويين . صُ ٣٠٦ وما يليها .

هذا عدا عما قتل منهم في بلاد فارس .[27] »

رغم هذه الإضطهادات ، « كانت مناعة جبل النصيرية سبباً في المحافظة على وجودهم فيه[28] » غير أنهم لجؤوا الى « التقية » فمرت قرون دون أن تعود تعرف الهوية الدينية لساكني تلك الجبال . فعرفوا حيناً بأنهم مجوس وحيناً آخر بأنهم مسيحيون ، أو وثنيون . وبذلك اكتسبوا تلك العوائد المختلطة في طقوسهم التي فيها من الطقوس المسيحية كما الوثنية الشيء الكثير .

استمر اضطهاد العلويين طوال العهد العثماني . وقد كلف العثمانيون بعض الأقليات الأخرى بضربهم كما فعل ابراهيم باشا في العام ١٨٤٨ الذي استعان باللبنانيين من موارنة ودروز لإخضاع العلويين في جبلهم ، الى أن جاء عهد مدحت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤) الذي لقب ب « سيد الأحرار في الشرق » .

كان مدحت باشا من أعظم رجالات الإدارة العثمانية ، وقد تميّز عن سابقيه بنشر الروح الدستورية في البلاد العثمانية ، وكانت سابقة إعطاء نوع من الاستقلال الذاتي لمسيحيي لبنان منذ العام ١٨٦٠ قد برهنت عن نجاح التجربة ، وكان العلويون يحاولون الحصول على ما حصل عليه موارنة لبنان من ضمانات واستقلال ، إلا أنهم كانوا لا يزالون منعزلين عن الدولة العثمانية مناصبين رجالها العداء ، فبادر مدحت باشا الى إرسال خطاب لأهل الجبل جاء فيه :

« يا أمراء ومقدمين ومشايخ ، لماذا تبقون تجاه الحكومة في موقع

---

٢٧ ـ راجع : محمد الطويل . ص ٣١٦ ـ ٣٩١
٢٨ ـ محمد الطويل . ص ٣٩١

العصاة ، وأنتم مصرون على عدم تأدية التكاليف الأميرية وعلى عدم إيفاء الخدمة العسكرية ، ولا تقبلون الأحكام القانونية ، وأنتم مصرون على مخالفة الحكومة ؟ يا أولادي . أنتم لا تعترفون بعدالة الحكومة ، لأنكم لم تروا في أعمالها شيئاً يدل على النيات الحسنة نحوكم ، ولم تصادفوا قراراً لها في شؤونكم يوافق قواعد العدل . . . لا تنقادون لأوامر الحكومة لأن المأمورين الذين يذهبون لعندكم لا يعملون شيئاً إلا تذليل نفوسكم العزيزة ، ولم تكونوا في نظرهم إلا غنيمة تؤكل ، ولم تشاهدوا في الحكومة أذناً تصغي لأنين شكواكم وأنواحكم تذهب ضياعاً ، فأنتم تعتقدون أن هذه هي الحكومة ، أما السوريون فانهم يعتقدون انكم ذوو أخلاق تقتضي معاداتكم الى الأبد ، ويهتمون في إقناع الحكومة على ذلك » . . .

« أنتم تجاه الحكومة في موقع العصاة لأنه لا يوجد في جبلكم مدرسة تعلمكم واجباتكم ، ولا طريق يوصلكم لمركز المدينة ، ولا أثر يدلكم الى العمران والرفاهية ، ولم تشاهدوا سوى المظالم والتعديات التي أوجدت فيكم المخالفة وخشونة الطبع . . . فلذلك بقيتم دائماً كالعصاة وواظبتم على الممانعة وهذا أمر طبيعي فلا لوم عليكم يا أولادي ، أطمئنكم اني سأدفع عنكم تلك الأحوال الإدارية السقيمة . وسأجعلكم تستقلون في الحكم بأنفسكم كما هي الحالة في جبل لبنان . . . »

وتضيف هذه الرسالة التي كانت الوعد بالإعتراف بأول وطن علوي قومي :

« سأفتح لكم مدارس تساعدكم على الترقي وتعلمكم واجباتكم ، وأنشىء لكم طرقاً تسمح لكم بالإشتراك في الحياة البشرية

العمومية ، وتكونون أنتم الحكام على أنفسكم ، وحينئذ تلقون أنفسكم في حضن أمكم الشفوقة الحكومة العثمانية[٢٩] » .

ما أن أرسل مدحت باشا هذه الرسالة الى العلويين، حتى قامت قيامة المسلمين في دمشق ، وراح اشراف الشام يدسون الدسائس ضد مدحت أمام السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨) مدعين أن الباشا « يريد إجهاد الحكومة والإستقلال عنها » وبما كان عبد الحميد معروفاً عنه من استبداد في مقاومة الدستور ، سارع الى نقل مدحت باشا الى أزمير بعدما وجهت إليه تهمة السعي « لاستقلال سوريا ومحاولة تفريقها عن الجامعة العثمانية » ثم أثبتوا عليه ، من خلال اللوائح المرسلة الى الاستانة التي يطلب فيها الإدارة المستقلة لجبال النصيرية ، انه خائن لبلاده ، فنفي الى الطائف ومات مغدوراً به[٣٠] »

وبذلك أصيب العلويون بخيبة أمل مريرة بسبب محاربة السوريين السنة لاستقلالهم الذي كادوا أن يحصلوا عليه ، وكان قد تقرر جعل بلدة الشيخ بدر[٣١] مركزاً لمتصرفيتهم على أن يشكل من بلاد العلويين لواء مستقل ، وتكون له صبغة خصوصية تشابه إدارة جبل لبنان .

عاد الظلم والإستبداد ليتحكما بالعلويين اثر هذه المحاولة الفاشلة ، فان جمال باشا المعروف بالسفّاح (١٨٧٢ - ١٩٢٢) قد تمكن من إحلال المجاعة في جبال العلويين كما فعل بالنسبة لمسيحيي جبل

---

٢٩ - محمد الطويل . ص ٤٠٢ وما بعدها .
٣٠ - مات مخنوقاً في سجنه .
٣١ - مركز قضاء « الشيخ بدر » في محافظة « طرطوس » السورية .

لبنان ، وأخذ السفاح من العلويين أموالهم وساق رجالهم الى الحرب ، وشهد جبلهم في تلك الظروف القاسية ضعفاً في الزراعة والمحاصيل فانهارت الصحة العامة حتى فتكت الحمى بأهالي الجبال ، وأسفرت عن وفاة حوالي مائة ألف نسمة . ولم يكتف الأتراك بهذا القدر من الكوارث ، بل زادوا الضغوط عليهم الى أن طردوهم من أضنة ، وصادروا أسلحتهم الحربية وشتتوهم في الأقفار البعيدة . ولم تتغير أوضاع العلويين إلا بعد توقف الحرب بمعاهدة ١٨ تشرين الأول سنة ١٩١٨ ، التي دخل الفرنسيون على أثرها الأراضي السورية ، وضمنوا للعلويين حياتهم .

المطالبة بعدم الإندماج بسوريا

ما أن وضع الفرنسيون يدهم على البلاد ، حتى سارع وجهاء العلويين الى مطالبة السلطة المنتدبة بعدم دمج جبل النصيرية بأية دولة أخرى ، وباعطاء الشعب العلوي استقلاله ضمن دولته القومية . الى أن صدر في ٣١ آب سنة ١٩٢٠ أمر من القوميسيرية العليا في بيروت ، أعطي بموجبه للعلويين استقلالهم الداخلي ، وبموجب ذلك أصبح جبل النصيرية يعرف بـ« أراضي العلويين المستقلة » . وكان الجنرال غورو قد عمد الى تلبية رغائب سكان الولايات السورية القديمة فراعاها . . . وأنشأ الدول الأربعة المؤلفة من : دولة دمشق ، ودولة حلب ، ودولة العلويين ، وأنشأ لجبل الدروز في حوران حكومة مستقلة . . . « وعين لكل دولة حاكماً وطنياً في ما خلا بلاد العلويين حيث الحكم العسكري لا يزال ضرورياً[32] » .

٣٢ ـ عبد الله صفير باشا . الانتداب الفرنساوي والتقاليد الفرنساوية في سوريا ولبنان . مطبعة أمين هندية . (مصر ١٩٢٢) ص ٦٥

إلا أن المعارضة السنية التي قامت على فرنسا ضد إعطاء الأقليات حق الحكم الذاتي ، جعلت الجنرال غورو يحاول ربط هذه الدول بنوع من الإتحاد ، مع المحافظة على القدر الممكن من الإستقلال الذاتي ، وفي ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٢١ ، ألقى « في دمشق خطاباً وضع فيه أساس الوحدة السورية بانشاء مجلس اتحاد لها ، وشرح نظام إدارة الدول (الأربع) التي ينوي أن يدخلها عليها فيما بعد . وبعد يومين ألقى خطاباً آخر في حلب بالمعنى ذاته . . . جاء فيه :

« . . . وقد كان العمل الأول الذي قامت به فرنسا لتوطيد اتحادكم وحريتكم الوطنية تأسيس الحكومات المستقلة ، وكانت غاية ذلك ونتيجته مراعاة النزعات الخاصة ووضعها في قالب بحيث يتألف منها مجموع متناسب الأجزاء . دونكم مثلاً لذلك سويسرا فانه مع ما فيها من اختلاف الألسنة والأديان نرى سكانها يعملون متآزرين كاخوان على حفظ هذا الإتحاد القائم على العاطفة المشتركة . . . وإليكم أيضاً مثلاً على ذلك الولايات المتحدة . هذه الإعتبارات التي حملتني في السنة الماضية على إنشاء دول سورية مستقلة . . . ولكن لم يفتني قط وجوب احكام الصلات بين هذه الدول التي ينبغي أن يؤلف مجموعها سورية المستقلة ، أي سورية التي طالما رغبت فرنسا في إنشائها . . . ويجب أولا تنظيم هذه الدول ومنحها قسطاً أوفر من الحرية وتأسيس صلة اتحاد بينها . . . . ولا أذكر لبنان بين دول الإتحاد لأن تقاليده الخصوصية تقضي عليه بالسعي على انفراد وراء التقدم وبمشاركة قليلة في الإتحاد السوري لا تتناول إلا الواجهة الإقتصادية دون سواها الى أن يقرر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الإتحاد . . . إن الموارد التي تتصرف فيها الآن الحكومات المستقلة ستبقى بجملتها

لهذه الحكومات ولا يدخل فيها شيء من الميزانية المشتركة . وموارد هذه الميزانية تكون على نوع أخص من رسوم الجمارك وغيرها من الرسوم غير المقررة . وأما الضرائب المقدرة فيجب أن تصرف في المنطقة التي أخذت منها . . . وتعديل هذه الأنظمة معاً يختص بتوسيع نطاق الإتحاد في المستقبل يتوقف عليكم وعلى ممثلي الإتحاد المنتخبين من أعضاء مجلس الحكومات حيث يضاعف عملهم بما يطرح أمام هذا المجلس من المسائل التي سيكون رأيه فيها إستشارياً وبتوسيع نطاق الإنتخابات التي يتألف بمقتضاها[33] » .

ما أن أعلن الجنرال الفرنسي عن هذه القرارات ، حتى سارع أعوان الحجاز الى الطعن بها بشدة ، وعدّوها « تجزئة لسورية » . ونتيجة هذه الشكاوي ، قام بعض أعضاء مجلس النواب والشيوخ في فرنسا ليطالبوا بالتخلي عن سورية ، إلا أن ذلك لم يمنع من أن ينال العلويون شيئاً من حقوقهم في السادس عشر من ايلول عام **١٩٢٢** إذ تم تعيين محاكم مذهبية وقضاة لها في جبلهم ، وأحدث لهم مرجع باسم « قاضي القضاة » وطبعت لهم خرائط تعين حدود الدولة العلوية ، وطوابع بريدية ومالية تحمل اسم تلك الدولة .

وبين العام **١٩٢٢** والعام **١٩٣٦** ناضل العلويون بمرارة من أجل الحفاظ على دولتهم الفتية التي رفض السنة حقها بالإستقلال ، وحق أبنائها بالحكم الذاتي ، وفيما كانت الإتصالات جارية بين الحكومة الفرنسية والسوريين بشأن الوضع السوري الجغرافي والإداري ، اجتمع زعماء العلويين ، وقرروا مطالبة فرنسا بعدم دمج دولتهم بالدولة السورية الموحدة ، وفي الخامس عشر من حزيران

٣٣ ـ عبد الله صفير باشا . ص ٦٥ ـ ٦٧

١٩٣٦ ، رفعوا الى رئيس الحكومة الفرنسية ليون بلوم الكتاب التالي نصه :

« دولة ليون بلوم ، رئيس الحكومة الفرنسية .

بمناسبة المفاوضات الجارية بين فرنسا وسوريا نتشرف نحن زعماء ووجهاء الطائفة العلوية في سوريا أن نلفت نظركم ونظر حزبكم[34] الى النقاط التالية :

١ ـ إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس ، هو شعب يختلف بمعتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم السني ، ولم يحدث في يوم من الأيام إن خضع لسلطة مدن الداخل .

٢ ـ إن الشعب العلوي يرفض أن يلحق بسوريا المسلمة ، لأن الدين الإسلامي يعتبر دين الدولة الرسمي ، والشعب العلوي ، بالنسبة الى الدين الإسلامي ، يعتبر كافراً . لذا نلفت نظركم الى ما ينتظر العلويين من مصير مخيف وفظيع في حالة إرغامهم على الإلتحاق بسوريا عندما تتخلص من مراقبة الإنتداب ويصبح بامكانها أن تطبق القوانين والأنظمة المستمدة من دينها .

٣ ـ إن منح سوريا استقلالها وإلغاء الإنتداب يؤلفان مثلا طيباً للمبادىء الإشتراكية في فرنسا ، إلا أن الاستقلال المطلق يعني سيطرة بعض العائلات المسلمة على الشعب العلوي في كيليكيا واسكندرون وجبال النصيرية . أما وجود برلمان وحكومة دستورية فلا يظهر الحرية

٣٤ ـ الحزب الاشتراكي الفرنسي .

الفردية ، إن هذا الحكم البرلماني عبارة عن مظاهر كاذبة ليس لها أية قيمة ، بل يخفي في الحقيقة نظاماً يسوده التعصب الديني على الأقليات . فهل يريد القادة الفرنسيون أن يسلطوا المسلمين على الشعب العلوي ليلقوه في أحضان البؤس ؟

٤ ـ إن روح الحقد والتعصب التي غرزت جذورها في صدر المسلمين العرب نحو كل ما هو غير مسلم هي روح يغذيها الدين الإسلامي على الدوام . فليس هناك أمل في أن تتبدل الوضعية . لذلك فان الأقليات في سوريا تصبح في حالة إلغاء الانتداب معرضة لخطر الموت والفناء ، بغض النظر عن كون هذا الإلغاء يقضي على حرية الفكر والمعتقد . وها اننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق المسلمين يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على توقيع وثيقة يتعهدون بها بعدم إرسال المواد الغذائية الى إخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين . وحالة اليهود في فلسطين هي أهم الأدلة الواضحة الملموسة على عنف القضية الدينية التي عند العرب المسلمين لكل من لا ينتمي الى الإسلام . فان أولئك اليهود الطيبين الذين جاؤوا الى العرب المسلمين بالحضارة والسلام ، ونثروا فوق أرض فلسطين الذهب والرفاه ولم يوقعوا الأذى بأحد ولم يأخذوا شيئاً بالقوة ، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة ، ولم يترددوا في أن يذبحوا أطفالهم ونساءهم بالرغم من وجود انكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا ، لذلك فان مصيراً أسود ينتظر اليهود والأقليات الأخرى في حالة إلغاء الإنتداب وتوحيد سوريا المسلمة مع فلسطين المسلمة . هذا التوحيد هو الهدف الأعلى للعربي المسلم .

٥ ـ إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب

السوري وعلى الرغبة في تحقيق الاستقلال ، ولكن سوريا لا تزال في الوقت الحاضر بعيدة عن الهدف الشريف الذي تسعون إليه ، لأنها لا تزال خاضعة لروح الاقطاعية الدينية ، ولا نظن أن الحكومة الفرنسية والحزب الإشتراكي الفرنسي يقبلون أن يمنح السوريون استقلالا يكون معناه عند تطبيقه استعباد الشعب العلوي وتعريض الأقليات لخطر الموت والفناء . أمّا طلب السوريين بضمّ الشعب العلوي الى سوريا فمن المستحيل أن تقبلوا به ، أو توافقوا عليه ، لأن مبادئكم لنبيلة ، إذا كانت تؤيد فكرة الحرية ، فلا يمكنها أن تقبل بأن يسعى شعب الى خنق حرية شعب آخر لإرغامه على الإنضمام اليه .

٦ ـ قد ترون أن من الممكن تأمين حقوق العلويين والأقليات بنصوص المعاهدة ، أما نحن فنؤكد لكم أن ليس للمعاهدات أية قيمة إزاء العقلية الإسلامية في سوريا . وهكذا استطعنا أن نلمس قبلا في المعاهدة التي عقدتها انكلترة مع العراق التي لم تمنع العراقيين من ذبح الأشوريين واليزيديين .

فالشعب العلوي الذي نمثله ، نحن المجتمعين والموقعين على هذه المذكرة ، يستصرخ الحكومة الفرنسية والحزب الاشتراكي الفرنسي ، ويسألهما ضماناً لحريته واستقلاله ضمن نطاق محيطه الصغير . ويضع نفسه بين أيدي الزعماء الفرنسيين الإشتراكيين ، وهو واثق من أنه واجد لديهم سنداً قوياً أميناً لشعب مخلص صديق ، قدم لفرنسا خدمات عظيمة ، مهدد بالموت والفناء[٣٥] » .

ويلي النص التواقيع ، وهي : عزيز آغا الهواش . ومحمود آغا

٣٥ ـ هذه الوثيقة محفوظة تحت رقم ٣٥٤٧ تاريخ ١٥/ ٦/ ١٩٣٦ في سجلات وزارة الخارجية الفرنسية .

جديد . محمد بك جنيد . سليمان أسد[36] . سليمان المرشد . محمد سليمان الأحد .

إلاّ أن أماني العلويين قد خابت مرة أخرى ، باعلان سورية دولة موحدة ، وفي برلمان الشام الجديد عام ١٩٣٧ ، أصبح أحد الزعماء العلويين الموقعين على هذه الوثيقة نائباً : سليمان المرشد . وكانت الثورة العلوية لا تزال مضطرمة في الجبل ، فراح يقويها ، ويستعمل نفوذه لتعزيز قواعد الجبل وتحصينه ، بينما راح سائر الزعماء الباقين يعمل لإعادة الكيان العلوي المستقل الى الوجود . ويقول الباحثون أن الزعماء العلويين الذين ظهروا بعد إنشاء الجمهورية السورية ، والوحدة السورية المصرية ، في مظهر الوحدويين ، إنما هم فعلوا ذلك في هدف التغلغل داخل الجسم الحاكم بغية التوصل الى تحقيق الهدف العلوي المنشود .

العمل للدولة العلوية العتيدة

في تقرير سري عمدت بعض الأجهزة الدولية الى وضعه عن « العلوية السياسية » جاء انه في العام ١٩٦٠ « تنادى مشايخ النصيرية لعقد اجتماْع لهم في قرية القرداحة حضره كبار الضباط النصيرية ، وعلى

٣٦ ـ أسرة الأسد العلوية من أسرهم العريقة ، وقد وجدنا ذكراً لـ « بني أسد » في بادية حماة عند مطالعتنا لتاريخ الشيخ ظاهر العمر (١٦٩٥ ـ ١٧٨٢) شيخ بني زيدان في بلاد صفد ، الذي حارب سليمان باشا والي دمشق وتغلب عليه . وقد جاء في كتاب « محمد جابر آل صفا » « تاريخ جبل عامل » ص ١١٥ أن عشيرة ظاهر العمر ، العلوي النسب من سلالة زيد بن الامام الثاني الحسن بن علي بن أبي طالب ، قد هاجرت من المدينة المنورة الى بادية حماة ، فنزلت في « بني أسد » وفي هجرتها الثانية حلت فلسطين واتحدت مع عرب بني صقر .

رأسهم كل من محمد عمران ومحمد نبهان وصلاح جديد وحافظ أسد . وكان الهدف الرئيسي من هذا الإجتماع التداول والاتفاق على كيفية انخراط الضباط النصيريين في صفوف حزب البعث للوصول عن طريقه الى الحكم . وفي نهاية الإجتماع اتخذت القرارات السرية التالية :

١ ـ منح محمد عمران رتبة « البابيه » وتكليفه بالتخطيط للمنظمات العسكرية وكيفية توزيعها على المنظمات الوطنية لاستغلالها والتستر بها .

٢ ـ الموافقة على بقاء عمران في صفوف الوحدويين من ناحية الظاهر .
٣ ـ . . . الضباط الدروز والإسماعيلية . . . للتعاون معهم .
٤ ـ منح عزت جديد رتبة « نقيب » في المذهب .
٥ ـ الموافقة على إحلال ابراهيم ماخوص محل والده في رتبته الدينية .
٦ ـ تكليف المشايخ دعوة أبناء الطائفة للتضامن والتعاون وتشجيعهم للانخراط في الجيش » .

ويصف التقرير هذا الاجتماع بأنه « المؤتمر النصيري الأول » ويقول ، أن « المؤتمر النصيري الثاني » قد عقد في حمص بعد ١٨ تموز سنة ١٩٦٣ لدراسة النتائج المتأتية عن الدور الذي لعبه محمد نبهان في حوادث ١٨ تموز وأدى الى تسريح أكثر من ٤٠٠ ضابط من أنصار عبد الناصر . ومما ذكره التقرير عن « المؤتمر النصيري الثاني » انه ضم « عدداً أكبر من المشايخ بالاضافة الى كل من الضباط الآتية أسماؤهم : عزت جديد ، محمد عمران ، حافظ أسد ، ابراهيم ماخوص .

وفي نهاية الاجتماع اتخذت القرارات التالية :

١ ـ ترفيع محمد نبهان الى رتبة « نجيب » تقديراً لدوره الفعال في ١٨

تموز .

٢ ـ منح محمد عمران « الوشاح البابي الأقدس » وتكليفه متابعة نشاطه في حقل الناصريين .

٣ ـ إعادة النظر بالتخطيط الموضوع بشأن انضمام المزيد من أبناء الطائفة المثقفين الى حزب البعث والدخول باسم الحزب في الكليات العسكرية ومؤسسات الجيش .

٤ ـ التخطيط البعيد لتأسيس الدولة النصيرية وجعل عاصمتها حمص .

٥ ـ تكليف صلاح جديد قيادة وتوجيه العناصر النصيرية في الجيش ، ومنحه أرفع رتبة عسكرية (مقدم) .

٦ ـ مواصلة نزوح النصيرية من كافة قرى الريف الى المدن وخاصة حمص واللاذقية وطرطوس .

٧ ـ منح حافظ أسد رتبة « نجيب » ـ وهي تلي رتبة جديد ـ

٨ ـ منح عزت جديد وعلي حماد رتبة « المختص »

٩ ـ السعي لاستئصال العناصر الدرزية والإسماعيلية الموجودة في صفوف الجيش والعمل على إحلال العناصر النصيرية محلها .

١٠ ـ تسليم القيادة المدنية السياسية الى ابراهيم ماخوص وإعداده ليكون رئيساً لوزراء الدولة النصيرية المنشودة .

ويفيد التقرير السري عن توالي الإجتماعات النصيرية بعد ذلك التاريخ ، منها اجتماع « بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٨ تقرر فيه القضاء على الطائفة الإسلامية ... وتوجيه الضربة ... للدروز

والمسيحية ، ثم إلغاء التعليم الديني الإسلامي والمسيحي ومصادرة المدارس الخاصة للطائفتين . . . » وقد عقد هذا الإجتماع في « جب الجراح » .

ومنها اجتماع في « صبورة » بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٦٨ ، وآخر في دمشق خلال أيار من السنة نفسها ، وآخر في منزل« النجيب » حافظ أسد « ضم كلا من المقدم صلاح جديد وابراهيم ماخوص ، وشفيق عبدو ، والشيخ علي ضحيّة ، والشيخ أحمد سلمان الأحمد ، والشيخ سلمان العلي ، وأسعد تقلا ، وعلي نعيسة ، ومحمد الفاضل ، وزكي الأسوزي ، وأنيس خير بك ، وعزت جديد ، وسهيل حسن وغيرهم . »

* * *

عندما يطلع المراقب على مثل هذه النشاطات ، يبطل عنده العجب بالنسبة لما قيل ويقال عن سياسة الحكم العلوي السوري في القضايا المصيرية . ومن جملة تلك الأقوال ، ما ذكره الدكتور سامي الجندي أمام عدد كبير من الناس في دار السفارة السورية في باريس ، يومها كان أخوه خالد سجيناً في دمشق بتهمة قتل سيدة ، قال الجندي : « لن يجرؤوا على لمس ظفر صغير من أظافر خالد . . . وإذا فعلوا . فلكل حادث حديث » وصمت الدكتور الجندي قليلاً ، ثم فجر القنبلة ، بقوله :

« في أيار ١٩٦٧ قبل حرب حزيران بأقل من أسبوعين ، تلقيت إشارة رسمية من وزارة الخارجية في دمشق تطلب مني مقابلة أبا ايبان وزير الخارجية الإسرائيلية الذي كان يزور باريس آنذاك . إنني ما

زلت احتفظ بتلك الإشارة الرسمية ، وما هو أخطر منها . . . إنني احتفظ بسجل كامل للمقابلة ذاتها ، ولما قيل فيها » وسأله أحد الحاضرين مذهولاً : « هل تعني انك قابلت أبا ايبان في باريس في أيار الماضي وعشية الحرب ؟ » فقال سامي الجندي بهدوء : « نفذت أمراً من دولتي واجتمعت اليه ساعة ونصف ، ولدي تسجيل كامل عن المقابلة . . . . قال لي ايبان أن القوات الإسرائيلية لن تصل الى أبعد من القنيطرة حتى ولو كانت الطريق الى دمشق مفتوحة[37] . . . . » .

إن من سمع أو قرأ خطاب الرئيس المصري أنور السادات في الأول من أيار عام ١٩٧٩ وما جاء فيه عن « الحكم العلوي » في سوريا و« البعث العلوي » وقضية الجولان ، بوسعه أن يربط بين هذه الأحداث ربطاً منطقياً من شأنه أن يكشف النقاب عن الخفايا الباطنية للسياسة السورية الحالية .

ذكر السادات في خطابه ذاك ، ان العاهل السعودي الراحل الملك فيصل قد حذره من التعاون مع « البعث العلوي » قبل حرب حزيران . وذكر أيضاً أن فيصل قال له في مؤتمر الجزائر اثر الحرب أن « الجولان أتباع » وكان يومها الرئيس حافظ الأسد وزيراً للدفاع . وقال السادات أن الألغام قد أزيلت يومها من هضبة الجولان والقنيطرة قبل دخول الإسرائيليين ، وان السلطة ، قد بادرت الى اعدام الضابط الذي أعلن عن سقوط الجولان قبل سقوطه . . .

العلويون والحرب اللبنانية

قبل بدء الحرب اللبنانية (١٩٧٥) بحوالي التسع سنوات ،

٣٧ - « الحوادث » العدد ٦٠٨ الجمعة ٥/ ٧/ ١٩٦٨

ذكرت بعض المعلومات أن « الحكم الحالي في دمشق (١٩٦٦) قد سحب الأسلحة من غير العلويين في الجيش السوري ، لا على مستوى الضباط فقط ، بل على مستوى الجنود أيضاً ، وان ذلك جرى في معظم الكتائب التي يتألف منها الجيش السوري » وأضافت المعلومات تقول بأن « هذا الوضع في الجيش السوري هو مقدمة لتشجيع العلويين المسيطرين على الحكم للإنسحاب بقواتهم ، بعد فترة قليلة من بدء الهجوم الأردني على سوريا (وكان هذا الهجوم متوقعاً في ذلك الحين اثر فرار سليم حاطوم وطلال أبو عسلي ورفاقهما الى عمان وتعبئة قوة عسكرية في الأردن للهجوم على سوريا) وتقضي الخطة بانكفاء العلويين الى الأراضي التي تشكل قاعدة دولة العلويين القديمة ، التي حاول الفرنسيون إقامتها أيام الإنتداب ، وهي تمتد من شمال لبنان الى اللاذقية[38] » .

إلا أن تلك التوقعات لم تتحقق ، ليس لأن المعلومات كانت كاذبة ، بل لأن موعد التنفيذ لم يكن قد حان بعد .

للدولة مقومات ، وإن العلويين الحاكمين في سوريا ، يدركون ذلك تماماً ، ومن ضمن برنامجهم الهادف الى إقامة الدولة العلوية ، متى سنحت السياسة الدولية بذلك ، التحضير لهذه الدولة . فبعد ما سيطروا على الجيش والحكم ، راحوا يقيمون الإنشاءات في الأراضي العلوية (الدولة العلوية العتيدة) فبنوا وجهّزوا إذاعة ومرفأ طرطوس ، والجامعة الضخمة في اللاذقية ، ومطاراً كبيراً في ضواحي القرداحة ، وقصراً جمهورياً عتيداً ، وشقوا وعبدوا الطرقات الواسعة التي باتت تربط المدن السورية الشمالية ، كما مدوا السكك الحديدية

٣٨ - راجع : « الحوادث » العدد ٥١٨ الجمعة ١٤/ ١٠/ ١٩٦٦

بين مدن الداخل ومدن الساحل ، وأقاموا فرعاً للمصرف المركزي في طرطوس[39] . . . كل ذلك في وقت سيطر العلويون خلاله على الجيش والمؤسسات السورية العسكرية وقيادة الطيران والحرس الجمهوري الخاص ، والقوة العسكرية الضاربة والموجهة والقيادية والإستخبارات .

وبهذا ، بات العلويون جاهزين لإعلان دولتهم ، ولم يعد ينقصهم إلا الضوء الأخضر الدولي . وعندما يقال الدولي في هذه الحقبة من التاريخ ، يقصد أميركا وروسيا ، وعندما تذكر أميركا هنا في الشرق الأوسط ، تلوح لنا فوراً وترتبط بها بديهياً ، اسرائيل ، وقليلون هم « العارفون » الذين يجرون الربط نفسه عند ذكر الإتحاد السوفياتي . . . إلا أنه متى أصبحت دول الأقليات الطائفيّة القائمة على شكل إسرائيل ومثالها في المنطقة ، أمراً واقعاً ، تباركها وتعترف بها موسكو قبل واشنطن ، سوف يتغير إذ ذاك كثير من الاعتبارات .

* * *

فيما يختص بالسياسة الدولية ، سيكون استفاضة في الفصول اللاحقة عند تناول استراتيجية كل من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي واسرائيل ، أما الآن ، فالبحث يبقى في الدور السوري العلوي في الحرب اللبنانية .

عندما تقرر السياسة الدولية أن تجري تغييراً على خريطة شرقي البحر الأبيض المتوسط ، لا بد لها من إدخال ذلك التغيير من الباب

٣٩ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ١٢٣

اللبناني ، فلبنان بوابة الشرق الأوسط ، وهو له المرفأ والمطار . . . والعميل . وإن خريطة الشرق الأوسط السياسية بوضعها الحالي ، قد أحدثت انطلاقاً من هذا المفهوم . فلبنان ، هو أول جمهورية من جمهوريات الشرق الأوسط الحديثة التي أعلنت اثر الحرب العالمية الثانية ، ولو لم تكن الحرب العالمية الأولى ، لكانت متصرفية جبل لبنان المتصرفية القومية المسيحية الأولى في غربي سوريا ، بين سائر المتصرفيات المشابهة التي كانت ستليها ، ومنها العلوية والدرزية واليهودية والشيعية والسنية . . . . وإذا كانت الحربان قد انعطفتا بمجرى التاريخ لبعض الوقت ، فان ذلك المجرى لن يبقى شارداً عن خطّه الطبيعي طويلاً ، فها هو يعود اليه قبل نهاية القرن العشرين . وإذا كانت « المتصرفية » ، قد سعدت بمعايشة نهاية قرن وبداية قرن ، فان الجمهورية اللبنانية ، التي ولدت باسم لبنان الكبير ، تبدو عاجزة عن معايشة قرن ولاحقه . ذلك أن إطلالة القرن الواحد والعشرين قد تكون على أسماء جديدة .

ومن أجل التجديد ، لا بد من الافناء . وقبل كل بداية ، لا بد من وضع نهاية ما . والنهاية التي كان لا بد من وضعها قبل بداية فرز دويلات الأقليات ، هي نهاية الجمهورية الرائدة في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، التي بنهايتها ، يبدأ عصر جمهوريات الأقليات التي كانت إسرائيل بذارها الأول .

هنا ، توافقت الإستراتيجيات العالمية ، مع الاستراتيجية العلوية الحاكمة في سوريا ، تلك العلوية المستعدة لتنفيذ كل ما يطلب منها شرط الوصول الى وطنها القومي . فكان أن أنيطت بها مهمة المشاركة في إشعال الحرب في لبنان ، كمقدمة لتحقيق الحلم الكبير

الذي تلاقت معه أحلام :

اليهود الهادفين الى الاستقرار ضمن دولتهم العنصرية ، والى التفاعل مع محيط متناغم مع وضعهم العنصري .

المسيحيين الرانين الى عدم فقدان الكيان والخائفين من الغرق في بحر الإسلام .

الدروز ذوي الديانة الصغرى الباحثة عن ملجأ ثابت وأمين .

الشيعة المتطلعين الى عدم الذوبان في المجموع السني المعادي ، والمتعلقين بفكرة الحكم الذاتي .

السنة الهادفين الى أسلمة الحكم في لبنان .

الفلسطينيين الذين أصابهم العفن في بيوت التنك ومخيمات البؤس والحرمان ، فجاءت البندقية لتفجر حقدهم الدفين ، والمؤامرات لتريهم حلم الوطن البديل .

وكان بجوار كل من أسرّة هذه الجماعة الحالمة ، غير المستقرة ، برميل بارود ، وكان العلويون مستعدين للتفجير متى وجب التفجير ، وللإطفاء متى طلب إليهم الإطفاء .... فكانوا بذلك خير منفذ لخير مخططين .

فالحكم العلوي السوري هو الذي ساهم المساهمة الكبرى في تفجير الوضع في لبنان ، وخير اعتراف بذلك يأتي من رئيس الدولة السورية الذي لم يتوان في خطابه الشهير الذي ألقاه في ٢٠ تموز ١٩٧٦ عن القول :

« ... لقد كنا نشترك في تفسير (أحداث لبنان) مع الكثير من القوى العربية التي تدعي الوطنية والتقدمية ، ومع كثير من الأحزاب التي تطلق على نفسها الأحزاب الوطنية في لبنان ، ومع فصائل المقاومة الفلسطينية .... لقد إضطررنا أن نقدم السلاح وأن نقدم الذخائر .... قدمنا السلاح لهؤلاء الذين يهاجموننا ويتنكرون لجهودنا ولتضحياتنا ، هؤلاء الذين تنكروا ويتنكرون لجهود هذا الشعب .... قدمنا السلاح لهؤلاء ، قدمنا الذخائر لهؤلاء في وقت من الأوقات أخذنا الأسلحة من جنودنا من تشكيلاتنا وأعطيناها لهم .... ورغم هذا ، رغم تقديم السلاح والذخائر بكميات كثيرة وبأنواع مختلفة ... انهارت جبهة الأحزاب الوطنية ، وانهارت جبهة المقاومة الفلسطينية ... ولم يكونوا يستطيعون أن يقفوا على أرجلهم ، وأرسلوا لنا الصرخات ، نداءات الإستغاثة كي نسارع الى بذل جهد آخر غير هذا الذين بذلناه ... وقررنا أن نتدخل تحت عنوان « جيش التحرير الفلسطيني » وبدأ جيش التحرير الفلسطيني بالدخول الى لبنان[40] » .

وبطبيعة الحال . لم يأت هذا التدخل المباشر من قبل الحكم العلوي السوري لتفجير الوضع في لبنان ، إلا بعد أن أعطت السياسة الدولية لهذا الحكم الضوء الأخضر بوجوب البدء في عملية التفجير ، ويقول مسؤول كبير في الجيش اللبناني آنذاك ، أنه يوم دخول السوريين الى لبنان ، سارع الى إعلام رئيس الجمهورية سليمان فرنجية بذلك ، فطلب اليه فرنجية أن يتوجه الى كل من الشيخ بيار الجميل والرئيس كميل شمعون ويصارحهما بحقيقة الوضع ويقف على

٤٠ ـ راجع : الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١١٨ ـ ١٢٢

رأيهما ، فكان رد الجميل بشكل تساؤل : « وهل يمكننا أن نُقاتل السوريين ؟ » أما الرئيس شمعون فأجاب المسؤول العسكري الكبير بقوله : « . . . يا جنرال ، السوريون يدخلون لبنان برضى واشنطن وموسكو . . . . فكيف تريد أن تعترضهم اليوم ؟ . . . لا بد من إمكانية اعتراضهم في يوم آخر . . . . »

وبرضى بل بتوجيه واشنطن وموسكو نجح الحكم العلوي السوري في تفكيك الجيش اللبناني . ويقول أحمد الخطيب : « . . . قبل أن أقدم على انتفاضتي ذهبت الى دمشق عدة مرّات ، لأشرح ما عندي من أفكار وتطلعات . » واتصالات الخطيب ، العنصر الأساسي في عملية تفكيك الجيش ، بدمشق ، قديمة ، فهو يقول : « إنني خلال الإشتباكات التي وقعت في ربيع ١٩٧٣ بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية ، أرسلت أحد العناصر الى دمشق لكي أخبر . . . . المسؤولين السوريين انني جاهز مع سريتي ، إذا اشتدت وطأة القتال ، لنأتي الى سورية ونضع أنفسنا في خدمة الواجب القومي[41] » .

وكان أفضل من عبر عن دور الحكم العلوي السوري في إشعال الحرب اللبنانية والمحافظة على تأججها ، رئيس اللجنة الخارجية في مجلس النواب الفرنسي الرئيس السابق موريس كوف دي مورفيل الذي جاء لبنان في مهمة توفيقية مبعوثاً من قبل الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان ، وبعد مقابلته للمعنيين في الحرب اللبنانية ، ودراسته للموضوع عن قرب ، أدلى ببيان جاء فيه : « . . . . إنني متوجه الآن في زيارة . . . لسوريا ، فقد بدا لي أن سوريا ، وهي الجار الأقرب

٤١ - راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٩ الجمعة ٣٠/٣/١٩٧٩ ص ٦٩

لهذا البلد ، معنية مباشرة ولأسباب واضحة بما يجري[42] » .

قد لا يكون في القاموس الدبلوماسي من اتهام أوضح من هذا الإتهام .

واستمر السوريون يؤدون دورهم في لبنان ببراعة ، فمكنوا المسيحيين من تهجير المسلمين ، والمسلمين من تهجير المسيحيين ، نقلوا الدامور الى النبعة ؛ ونقلوا تل الزعتر الى الدامور ، والكرنتينا الى الجناح ، ضربوا المقاومة بالمقاومة ، واليسار باليسار ، والمسيحيين بالمسيحيين ، حتى أصبحوا خيوط اللعبة ، تلك الخيوط التي يمسك بها عمالقة اللعبة ، فيحركوا بواسطتها الأحداث ساعة يشاؤون ، ويخمدوها ساعة يشاؤون .

الحكم السوري العلوي أعطى الذخيرة لليسار وللمقاومة الفلسطينية باسم الوطنية والتقدمية والعروبة ، وضرب اليسار والمقاومة باسم الإسلام وضد مشاريع العلمنة التي يرفضها الإسلام ، وأيضاً ، تحت شعار منع التقسيم ، لمنع قيام « دولة القهر » من قبل المسيحيين كما جاء على لسان الرئيس السوري ، ثم ضرب المسيحيين ضرباً شنيعاً قهرهم وجعلهم يتصلون باسرائيل ، فأكمل ضربهم بحجة انهم يتعاونون مع اسرائيل ، ويكفرون بالعروبة وأهلها ، وهو الذي كان قد أعلن تخوفه من أن يكفر المسيحيون بالعروبة .

الحكم السوري العلوي ضرب من ضرب في لبنان ، تنفيذاً للعبة الدولية ، تحت شعار منع التقسيم ، وكان بضربه المبرمج ينفذ مخطط التقسيم بدقة قل نظيرها في لعبة الأمم ، إنما الدقة لم تكن من

٤٢ - راجع : الكتاب الأبيض اللبناني . ص ٣٢

صنيعه ، بل من إخراج الكومبيوتر الذي لا عهد لأهل الحكم السوري الحالي به .

في العام ١٨٤١ ، بعد نشوب الحرب الأهلية في لبنان بين الموارنة والدروز تلك الحرب التي زرع بذورها الأتراك ، أرسل العثمانيون الى لبنان ضابطاً رفيع المستوى ، في مبادرة وساطة بين الطائفتين المتخاصمتين ، فراح الوسيط العثماني مصطفى باشا « يتظاهر بالوساطة . . . . ساعياً في الخفاء الى إقناع النصارى بفوائد الحكم العثماني المباشر ، ومشجعاً الدروز ، في الوقت نفسه ، على الإستمرار في نهب قرى النصارى وإتلافها . . . . وبذلك أمل العثمانيون في أن يضعوا حدّاً لاستقلال لبنان[43] » .

أما الوساطة السورية ذات المبادرة الأخوية في العام ١٩٧٦ ، فكانت تهدف ، انسجاماً مع توافق الإستراتيجيات الدولية الى وضع حدّ للتعايش الديني في لبنان . . . .

. . . وقبل أن تبدأ حرب الشتائم بين القاهرة ودمشق عبر موجات الأثير والصحف العربية العريقة ، اثر أبرع مسرحية في الإباحية السياسية ذات الأبطال الثلاثة : كارتر ، السادات ، وبيغن ، كان الحكم العلوي السوري قد هيأ لبنان بمن فيه من مسيحيين وشيعة ودروز وفلسطينيين . . . ومسلمين ، للفصل الثاني من المسرحية السياسية . . . فصل إعادة رسم الخريطة السياسية لشرقي البحر الأبيض المتوسط . وسيكون لهذه الدراسة عودة لموضوع المؤامرة ، ولأدوار كل من باقي الفرقاء فيها عند الحديث عن أميركا ،

---

٤٣ - كمال الصليبي . ص ٢٦ - ٢٧

والإتحاد السوفياتي ، واسرائيل . إذ لا يصح التحدث عن أدهى مؤامرة سياسية لا إنسانية إلا تحت عناوين المخططين لها . . . . وإن كان المشتركون الرئيسيون في تنفيذها من البارعين المجلين . . . . يكفي أن هؤلاء قد تمكنوا ولو عن طريق مخططات الغير ، من وضع أهدافهم على طريق التنفيذ ، إضافة الى الأهداف التي حققوها حتى الآن والتي يحسدهم عليها ، حتى من تمكنوا من إجراء الصلح مع اسرائيل .

ألم يقل أحد الوزراء المصريين البارزين في حكومة بطل السلام ، أنور السادات : « . . . أريد أن أسأل ، لو أن الدكتور كيسنجر أتى بعرض لانسحاب جزئي من الجولان وقبلت سوريا به ، هل كان في استطاعة المقاومة أن تصدر بياناً شبيهاً بالبيان الذي أصدرته ؟ . . .[44] » والبيان الذي أصدرته المقاومة ، أقل ما جاء فيه ، اتهام نظام السادات بالخيانة . والمقصود بقول الوزير المصري ان الحكم السوري قد تمكن ، عبر حرب لبنان ، من السيطرة تماماً على المقاومة الفلسطينية .

ثم ألم يذهل السوريون كمال جنبلاط الذي قتل مرتين ، مرة في المتين وعينطورة ، ومرة في الشوف . وإذ كان يشعر بالخطر المحدق به ، كتب وصية يقول فيها :

« . . . إن الدعاية ضد اليسار اللبناني ، كانت شديدة متقنة في العالم العربي وخارجه ولم يكن يفلت من هذه العاهة أحد بما في ذلك الحكومات التي يشترك فيها الشيوعيون كما هو الحال في سوريا . . .

---

٤٤ - سليم اللوزي « الحوادث » العدد ٩٥٦ الجمعة ٧ آذار ١٩٧٥ ص ٥

سوريا أجبرت الفلسطينيين على أن يختاروا بالسيف المسلط عليهم ، بين الموت أو بين الخضوع[٤٥] » .

وقد يكون أفضل ما يصح أن يختتم به فصل العلويين ، ما جاء في وصيّة كمال جنبلاط ، الرجل الذي لعب على أكثر من حبل ، وعرف أكثر مما يجب وفقد توازنه السياسي ، فقضى

« . . . العلويون أناس تجاهلتهم السلطة في الماضي ، ويتمتعون في غالبيتهم بقسط وافر من الذكاء ، وقد عرفوا كيف يتصرفون بمهارة ، فباتوا يتمتعون بنفوذ راجح في داخل الدولة والحزب والإدارة . . . لا بل ان مشاريع كبرى أنجزت في بلاد العلويين ولا سيما في حقل الري واستصلاح الأراضي وشبكات الطرق ، ويضاف الى ذلك توسيع وتنمية مرافىء اللاذقية وجبلة وطرطوس . كما أن حمص لم تفلت من تغلغلهم الكثيف بحيث أن هذه المدينة بات العلويون فيها أكثرية ، وباتت مرشحة لأن تصبح عاصمة الدولة العلوية العتيدة إذا ما قامت ، وإذا ما رضي بذلك الجناح السياسي العلوي الآخر الذي لا يزال يعارض هذا المشروع ، ثم ان هذا التغلغل الصامت قد نما كذلك واتسع على طول الشاطىء ، ولا سيما حول اللاذقية التي تلقت هجرة علوية هامة وعميقة . ولا ريب أن أهالي هذه المناطق العلوية أو « المعلونة » باتوا أكثر ثقة مما كانوا عليه في الماضي[٤٦] » .

---

٤٥ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٩٨ ـ ١٠٤
٤٦ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ١١٦

الفصل السادس

إسرائيل

الدين والدولة

إذا قسمنا الديانات السماوية من حيث مبدأ ارتباطها بالدولة الى قسمين : الأديان التي تفرض إخضاع نظم الدولة وقانينها وشرائعها لـ « الكتاب السماوي » وتمنع بالتالي معتنقيها من مواكبة التقدم والتطور انسجاماً مع أورثوذوكسية الكتاب ، كما هي الحال في « السنة والقرآن » ، والأديان التي يبقى الكتاب فيها شأناً روحياً ، بينما تخضع قوانين الدولة ونظمها وشرائعها عند معتنقيها لمفاهيم التقدم والتطور ، بحيث يمكن بالتالي فصل الدين عن الدولة ، كما هي الحال في المسيحية ، فان الديانة اليهودية هي من النوع الثاني : النوع الذي يسمح بفصل الدين عن الدولة ، وبالتطور والتعصرن . ولو لم تكن الديانة اليهودية من الفئة التي تتيح لفكر اليهودي تجاوز الكتاب الروحي في الشأن الزمني المعاصر ، لما كان بوسع يهودي أن يضع أسس نظام حياتي اجتماعي جديد : الشيوعية وكارل ماركس . وإذا كان البعض يعترض على هذا الإستنتاج من باب أن ماركس ، عندما فكر شيوعياً ، تخلى عن يهوديته ، بل وتخلى عن الله أيضاً ، فرغم التحفظات التي يمكن أن يقابل بها هذا الإستنتاج ، ومنها أن المنتمي الى دين من الأديان المتدخلة بتنظيم الأمور الدنيا ، يتشرنق فكره داخل

الكتاب ، ويصبح بالتالي عاجزاً عن الثورة خارج نطاق الكتاب - الشرنقة . . . رغم هذه التحفظات ، فيما يلي بعض الحقائق العملية التي تدل باليقين القاطع على أن بامكان اليهودي أن يتطور ، مع بقائه يهودياً .

في مطلع القرن التاسع عشر، عظمت الحركة اليهودية الرامية الى تحقيق التغيرات في أوضاع اليهود الحياتية ، في هدف التحرر من قيود القرون الوسطى وتشريعاتها الظالمة ، وبرزت « الحركة الإصلاحية » في سعيها الدائب لمسايرة ركب التطور والتحرر . فاتجهت أنظار قادتها الى مسألة باتت في حكم الضرورة : كيفية التوفيق بين المعتقدات والممارسات الدينية من جهة ، ومتطلبات العصر الجديد الذي دخله اليهود من جهة ثانية .[1] » وهكذا تنادى الحاخامون الى عقد المؤتمرات والاجتماعات بغية تحديد النهج العملي الواجب اتخاذه وتعيين مبادىء الإيمان ، وأركانه المشتركة إزاء تحديات الحضارة الحديثة والتطور التاريخي الذي تخطى قيود القرون الوسطى وحدوده . « فكانت المؤتمرات الحاخامية في منتصف العقد الرابع من القرن الماضي بمثابة الرد على التحديات . وجاءت لتجسد استجابة اليهودية الإصلاحية لمتطلبات الحياة العصرية .[2] »

في المؤتمر الحاخامي الأول الذي عقد في حزيران ١٨٤٤ في

١ - راجع : THE JEWISH ENCYCLOPEDIA «Rabbinical Conferences» P.211

وعنها: الدكتور أسعد رزوق . الدولة والدين في إسرائيل . سلسلة دراسات فلسطينية - ٣٧ - نشر منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث - (بيروت ١٩٦٨) ص ٢٠

٢ - الدكتور أسعد رزوق. ص ٢٠

برونسفيك ، اتخذ الإصلاحيون قرارات عدة من جملتها : « اعتبار القسم الذي يؤديه اليهودي ملزماً ، دون اللجوء الى طقوس إضافية تتعدى الابتهال والتضرع لاسم الجلالة . » كما جرى تبني الردود التي أصدرها مجمع السنهدرين الفرنسي عام ١٨٠٧ مع تعديل الرد الثالث منها بشكل « يسمح لليهودي بالزواج من المسيحية أو أي من معتنقات الديانات التوحيدية ، فيما لو أتاح القانون المدني أمام الأبوين فرصة تنشئة أولادهما على الدين اليهودي[3] » .

وفي مؤتمر فرنكفورت (تموز ١٨٤٥) تقرر أن تزال صلوات « العودة الى أرض الآباء والأجداد وإعادة تأسيس الدولة اليهودية » من الطقوس الدينية .

وقبل « الردة اليهودية » بفعل الدعوة الصهيونية بحوالي عشر سنوات ، عقد الإصلاحيون المؤتمر الحاخامي الخامس في مدينة بتسبورغ ، في تشرين الثاني ١٨٨٥ ، فأكد ذلك المؤتمر على الطابع الروحاني والإلهي للديانة اليهودية ، وأعرب عن اعترافه بأن « كل دين يمثل محاولة لاكتناه اللامحدود ، وأن المنابع والكتب المنزلة التي يقدسها إن هي إلا دلالة على حلول الله في الانسان . كما أعلن أن قوانين الشريعة الموسوية التي تنظم المأكل والملبس والطهارة الكهنوتية يرجع أصلها الى عصور وأفكار غريبة كل الغرابة عن حالتنا الأخلاقية والروحية المعاصرة » وقد جاء في المبدأ الخامس من إعلان المؤتمر المذكور : « نحن نرى في العصر الحديث ، عصر حضارة العقل والقلب الجامعة ، اقتراباً لتحقيق أمل اسرائيل المسيحي العظيم لأجل إقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر . نحن لا نعتبر

٣ - Rabbinical Conferences P.212

أنفسنا أمة بعد اليوم ، بل جماعة دينية ، ولذا لا نتوقع عودة الى فلسطين ، أو عبادة قربانية في ظل أبناء هارون ، ولا استرجاعاً لأي من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية[4] . »

ولم يفت المؤتمر نفسه إعلان اعتباره لليهودية « ديانة تقدمية » تسعى بصورة مستمرة في سبيل التلاؤم مع مبادىء العقل وأحكامه . كما اعترف بالمسيحية وبالإسلام « ديانتين شقيقتين » وقدر رسالتيهما الإلهيتين حق قدرهما لجهة نشر الوحدانية والأخلاقية.[5] » .

الردّة الصهيونية

من حق البشرية أن تأسف « للردة » اليهودية نحو الوراء ، اثر دعوة تيودور هرتزل الصهيونية[6] ، وهي الدعوة التي قضت على الحركة الإصلاحية ، وأعادت اليهود الى قوقعة التوراة ، وأعادت دمج الدين والقومية في خليط غير قابل للانصهار ، بسبب عدم انسجام التقدمية العصرية التي يتمتع بها الفكر اليهودي المعاصر، مع رجعية التوراة والفكر اليهودي المتزمت الذي لا يمكن أن يجد له مكاناً في العالم المتحضر . وكان من الطبيعي أن تلاقي دعوة هرتزل رواجاً في أوساط المتدينين ، واستياء وانتقاداً في أوساط الإصلاحيين . غير أن الداعية الصهيوني ، الذي لم يكن يرى بدأً من أجل جعل اليهود يلتقون حول مبدئه الجديد سوى اعتماد الرابط الديني ، رد على الإصلاحيين بقوله : « إن احتجاجات عدد من الحاخامين كانت من أكثر ... التظاهرات

٤ ـ المصدر السابق . ص ٢١٥
٥ ـ الدكتور أسعد رزوق ص ٢٣
٦ ـ تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) كاتب مجرى يهودي أسس الحركة الصهيونية .

مثاراً للدهشة ، وكون هؤلاء القوم يصلون لأجل صهيون ويقومون بالتحريض ضدها في آن معاً ، سوف يبقى الى الأبد ظاهرة عجيبة.[7] »

ويجد الداعية الصهيوني نفسه في مأزق صعب إزاء إمكانية جعل اليهود يتقبلون دعوته . فبالإضافة الى موقف الإصلاحيين الرافض ، كان هنالك موقف المغالين في التدين ، أولئك الذين لا يقرون تأسيس الدولة اليهودية على يد أناس زمنيين عاديين ، بل يؤمنون بأن اسرائيل ستعود بظهور مسيحهم المنتظر .

في الوقت ذاته ، كان هرتزل نفسه ذا نزعة علمانية ، فها هو يعبر عن هذه النزعة في « الدولة اليهودية » إذ يقول :

« ... سوف لن نسمح ... بظهور أية نزعات تيوقراطية لدى سلطتنا الروحية ... وسوف نبقيهم داخل كنيسهم .... بينما يكون تكريم الجيش والحاخامية على ذلك المستوى الرفيع الذي تتطلبه وظائفهم القيمة وتستحقه . لكنهم يجب ألا يتدخلوا في إدارة الدولة[8] »

ويظهر التناقض جلياً عند هرتزل في المقابلة بين قوله السابق ، وبين ما سبق وأعلنه في « الدولة اليهودية » حيث يقول : « سوف يقوم حاخامونا ، الذي نتوجه اليهم بنداء خاص ، بتكريس طاقاتهم لخدمة

٧ ـ راجع :

HERBERT PARZEN. Herzel Speaks His Mind
On Issues, Events and Men (New York, 1960) P.27

٨ ـ راجع :

THEODOR HERZEL,THE JEWISH STATE.
An Attempt at a Modern Solution of the Jewish
Question. Trans, By: SYLVIE D'AVIGDOR. 4th ed.
(London, 1946) P.71

فكرتنا . وسوف يوحون بها الى رعيتهم عن طريق الوعظ من على منبر الصلاة . . . . .[9] » .

وهكذا ، وبالرغم من أنه ليس في نصوص الدين اليهودي ما يوجب عدم فصل الدين عن الدولة ، فان الدولة الإسرائيلية قد قامت على المفهوم الديني المحض ، فاليهودية هي البداية والنهاية في جوهر الدولة الإسرائيلية . ومهما تعددت النظريات عند بعض الفئات اليهودية حول مدى ارتباط الدين بالدولة ، ورغم ظهور بعض التيارات العلمانية عند اليهود ، قبل إنشاء الحركة الصهيونية وخلالها وبعدها ، وقبل إنشاء الدولة الإسرائيلية وبعدها ، فان الممارسة التي من خلالها قامت الدولة العبرية ، تبقى ممارسة ، لا يمكن النظر اليها إلا من خلال المفهوم الديني . وقد اعتبر هيرتزل ، في الخطاب الإفتتاحي للمؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، ان « الصهيونية هي العودة الى حظيرة اليهودية قبل أن تصبح الرجوع الى أرض اليهود » ومن أقوال هرتزل أيضاً أن . . . . « الإيمان يوحد بيننا[10] » .

لقد كان الحاخام ميمون ، وهو أول وزير اسرائيلي للشؤون الدينية ، أدق من أوضح عن العلاقة المتلازمة بين اليهودية كدين ، وإسرائيل كدولة ، وذلك في كتابه الصادر عام ١٩٣٧ في القدس ، حيث قال : « إن الرباط بين اسرائيل وأرضها ليس كالرباط الذي يشد سائر الأمم الى بلادها ، فهو لدى تلك الأمم ، وفي أجلى مظاهره ، رباط سياسي ، علماني ، وخارجي ، وعرضي ، ومؤقت . بينما الرباط القائم بين الشعب اليهودي وبلاده كناية عن « سرخفي من القداسة »

٩ - المرجع السابق. ص ٥٤
١٠ - المرجع السابق. ص ٧١

فالشعب والأرض قد أنعم عليهما بتاج القداسة ، حتى في زمن خرابهما ، والرباط الذي يشدهما رباط ملازم سماوي وأبدي ، إنه رباط أزلي[11] » .

إلا أن اليهود المتطرفين الشديدي الغلو في التدين ، ما زالوا يرفضون الإعتراف بدولة إسرائيل الحالية . « فاليهود القاطنون في حي (ميا شعاريم) من القدس ، ينتمون الى الفئة المذكورة ، ويطلقون على أنفسهم تسمية (نواطير المدينة) ويعتبر هؤلاء دولة اسرائيل ـ ثمرة الغطرسة الآثمة ـ لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين خرقوا مشيئة الله بعملهم وتطاولوا على وعد الرب ، بدلا من انتظار المسيح الموعود وتدخل الرب بصورة عجائبية ـ فالمسيح المنتظر هو وحده القادر على إقامة الدولة حيث تكون ، مملكة للكهنة والقديسين ، بينما أقدم العلمانيون على اغتصاب مهمته ـ . ولا يقوم (نواطير المدينة) مثلا بمراعاة عيد الإستقلال ، بل يعتبرونه يوم صيام . وهكذا يرفض هؤلاء الإعتراف بوجود دولة إسرائيل معتبرينها كفراً وتجديفاً . ويرون في القوانين العلمانية التي تسنها الدولة تقليلاً من شأن الكتاب المقدس يؤدي بدوره الى الحد من سلطته . . .[12] » .

مهما يكن من أمر ، فان اسرائيل تعتبر نفسها دولة يهودية « فهي لا تعرف الفصل بين الدين والدولة » رغم أن « التوراة لا يمكنها بحال

١١ - MEIR BEN-HORIN MAX RONDEAU
Philosopher of Human Solidarity. (London, 1956) P.199
١٢ - الدكتور أسعد رزوق ص ٥٤ ـ ٥٥ نقلا عن مقالة Moses cyrus Weiler المنشورة في كتاب:
KURT SONTEIMER. ISRAEL. POPITIK, GESELLSCHAFT, WIRSCHAFT (MUNCHEN, 1968) S.132

من الأحوال أن تصبح دستور اسرائيل الحديثة ، وفقاً لما تطالب به الأحزاب الدينية . ومن جهة ثانية ، يستحيل على اسرائيل أن تتبنى دستوراً ليبرالياً يضمن حرية الدين ضماناً كاملاً في دولة علمانية القلب والقالب[١٣] » .

وإذا شئنا أن نحدد المدى الذي أصبحت الدولة الصهيونية ترتبط معه بالدين اليهودي ، فلا بد لنا من العودة الى شرح بن غوريون في العام ١٩٥٧ إذ قال :

« . . . أنا يهودي أولا ، واسرائيلي بعد ذلك فقط ، لاعتقادي بأن دولة اسرائيل أوجدت لأجل الشعب اليهودي بأسره ، ونيابة عنه . هذا مع العلم بأن مستقبل الشعب اليهودي منذ الآن فصاعداً يعتمد على بقاء الدولة ونموها وتدعيم مركزها وكيانها . . . .[١٤] » .

إلا أن كون اسرائيل دولة يهودية ، لم ينف عنها تطبيقها للنظام الاشتراكي الذي اعتبرت موسكو يوم نشوء اسرائيل أن اليهود سيكونون رسله في الشرق الأوسط. ذلك أن الدين اليهودي لا يمنع تطبيق الأنظمة الاشتراكية الحديثة ، كون كتابهم المقدس لا يتدخل في الشؤون الإقتصادية وفي التفاصيل الدنيوية ، رغم تفسيرات بعض الأورثوذوكسيين اليهود الذين يشكلون أقلية في اسرائيل اليوم .

حائل واحد يجعل العلمنة الكاملة في اسرائيل أمراً مستحيلاً ، هو على انفراده ، حائل مبدئي جوهري هام ، الا وهو أن اسرائيل قد

١٣ - راجع : KURT SONTEIMER .S 300-301

١٤ - BEN GURION (CREDO of A JEW) JERUSALEM Post. July 19, 1957

أنشئت لتكون دولة لليهود ، فاذا تمت العلمنة الكاملة ، والغي ذكر المذهب من القيود الرسمية ، انهارت اسرائيل كدولة قومية يهودية ، وغدت كواحدة من سائر الدول العلمانية في العالم .

وبين التيار المتدين المتمسك بأورثوذوكسية الدين ، والتيار التقدمي المنادي بالعلمنة ، تمكن بناة الدولة الاسرائيلية من التوفيق . ففي مقالة بعنوان « الدين مصدر القومية اليهودية » تحدث ميخائيل بينس أحد رواد الصهيونية عام ١٨٩٥ عن انفتاحه على المعرفة العلمية « لكنه يسعى الى تحقيق تزاوج بين العلم والايمان . فالتنوير لا يعني فصل المعرفة العلمية عن مبادىء الإيمان وعزل الواحد منهما عن الآخر . . . وماذا يتبقى من القومية اليهودية فيما لو جرى طلاقها عن الدين اليهودي؟» بعد هذا التساؤل ، يجيب بينس : « لن يبقى سوى معادلات فارغة وعبارات جميلة ومنمقة » ثم ينتهي الى القول بأن القومية التي يمثلها هي القومية التي روحها التوراة ، وحياتها مستمدة من تعاليمها ووصاياها .[١٥] »

وهكذا ، أضحت الدولة العبرية أسيرة المبادىء الصهيونية التي فرضتها دولة مرتبطة بدين . ولا مناص اليوم لاسرائيل من هذا الأسر .

اسرائيل ولبنان

وتشاء المصادفات اثر الحرب العالمية الثانية ، وخلال إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط السياسية ، أن تقوم دولتان متجاورتان متلاصقتان، إلا انهما تختلفان في الجوهر الى حد التضاد ، هاتان

١٥ - راجع : ARTHUR HERZBERG: The Zionist Idea (New York, 1959) P.414

الدولتان هما لبنان واسرائيل .

ففيما قامت الدولة الاسرائيلية على أساس مفهوم القومية الدينية ، قامت الدولة اللبنانية الجديدة على مفاهيم حضارية حديثة ، فجاءت تجربة رائدة من نوعها لتعايش الأديان . وهكذا نشأ هناك بلد الطائفة الواحدة ، ونشأ هنا بلد الستة عشر طائفة[16] وبذلك انوجد نوع من العداء الأيديولوجي بين البلدين . إلا أن اسرائيل كانت تواجه في باقي محيطها عداء أشد شراسة ومواجهته تطلب سرعة أكبر ، فراحت تستعد عسكرياً بمعاونة الغرب والشرق ، وسرعان ما أضحت ترسانة أسلحة متعددة المصادر ، على أزندتها أيد متعددة الجنسيات . وكانت الحروب الأربعة المتالية بين العرب وإسرائيل ، وقد تمكنت تلك الأخيرة بفضل الصهيونية العالمية ، والدَّعم الأميركي والغربي المباشرين من جهة ، والمساعدة السوفياتية غير المباشرة من جهة ثانية ، ليس من أن ترد الخطر العربي عنها وحسب ، بل ومن أن تحتل الأراضي لثلاث دول عربية بعد استيلائها على مجمل فلسطين . وعندما تم لها ذلك تفرغت لمعالجة « العدو المعنوي » الهانيء الى شمالها ، والذي ، بعد أن أصبح ملاذاً للاجئين الفلسطينيين الذين شردتهم إسرائيل من ديارهم

---

١٦ ـ الطوائف اللبنانية الستة عشر حددها قرار المفوض السامي الفرنسي الصادر بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٣٦ على الوجه التالي : الطوائف المسيحية : البطريركية المارونية . البطريركية الروم أرثوذوكسية . البطريركية الكاثوليكية الملكية . البطريركية الأرمنية الغريغورية (الأرثوذوكسية) . البطريركية الأرمنية الكاثوليكية . البطريركية السريانية أو السريانية الكاثوليكية . البطريركية الأشورية الكلدانية (النسطورية) . البطريركية الكلدانية . الكنيسة اللاتينية . ثم الطوائف الإسلامية : الطائفة السنية . الطائفة الشيعية (الجعفرية) . الطائفة العلوية . الطائفة الإسماعيلية . الطائفة الدرزية . وأخيراً **الطائفة** الإسرائيلية . وتعتبر باقي الأقليات الطائفة السادسة عشر.

لتوطن اليهود مكانهم ، كانت مشاكله الداخلية قد ازدادت واستشرت بوجود الفلسطينيين وتحولهم الى قوة عسكرية .

عاملان دفعا اسرائيل الى التعجيل بالإنقضاض على لبنان : بدء ظهور الصيغة اللبنانية على مسرح العالم المتمدن كنموذج يحتذى به في التعايش بين الأديان ، حتى في العالم الثالث ، وقد برز هذا العامل بروزاً خطيراً عندما وقف رئيس الجمهورية اللبنانية بتكليف من الرؤساء والملوك العرب على منبر الأمم المتحدة مشيراً للعالم الى أن التعايش بين الأديان في الشرق الأوسط حقيقة واقعة . . . ثم وقف رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ليطالب بدولة يتعايش فيها المسلم والمسيحي واليهودي باخاء . أما العامل الثاني فكان تلك الخطورة التي أصبحت تحدثها المقاومة الفلسطينية ، وقد أصبح معترفاً بها ، عربياً على الأقل ، انها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . ولبنان يشكل المرتكز والمنطلق الأهم لهذه المقاومة .

كذلك برزت في الأفق مشكلة جديدة باتت تهدد اسرائيل في العمق ، وهي بداية التقارب بين الديانتين المسيحية والإسلامية في غمرة الاجتهاد المسكوني لتوحيد الأديان ، فكان الحوار المسيحي - الإسلامي الذي وجدت اسرائيل إن في حال ذهابه بعيداً لا بد من أن يشكل خطراً على كيانها . والواضح أن لبنان يعتبر المنطلق والمثال لتقارب الديانتين المسيحية والإسلامية .

ويقول أحد كبار السياسيين اللبنانيين في معرض تحليله للحرب اللبنانية التي كان قطبها البارز : « . . . كان الاسرائيليون مهتمين أقصى الإهتمام بتدمير لبنان وبتشويه صورته . ذلك أن بلادنا كانت تمثل في عيون العالم ضرباً من المرآة المضادة للنموذج الصهيوني .

فالدولة اللبنانية هي البرهان الذي يثبت أن في وسع عدة طوائف أن تحيا وتعمل معاً بسلام ، ولهذا فان الإسرائيليين يجدون في تدمير لبنان تبريراً لتعصبهم الطائفي وللعوائق التي يقيمونها في وجه عودة الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين الى بلادهم التي طردوهم منها ، وأطروحة الدولة المتجانسة عرقياً وعنصرياً والقائمة على انعزالية الطائفة اليهودية ، هي الأطروحة التي يجب أن تظهر على ما سواها بالنسبة لاسرائيل . . . والحق أن اسرائيل تصرفت بمهارة عظيمة وبحذق وروية ملحوظة.[17] » .

وفي ذلك اليوم المشؤوم من تاريخ لبنان الحديث ، الأحد ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، وقد دبرت فيه الأيدي الخفية إشعال فتيل الحرب بتدبير حادثة إطلاق الرصاص على سيارة الباص التي كانت تمر في عين الرمانة ناقلة بعض الفدائيين الفلسطينيين ، بعد أن أطلق بعض الفلسطينيين النار على حزبيين كتائبيين أمام كنيسة هناك كان رئيس الحزب يحضر فيها القداس ، وقد قتل أحد مرافقي رئيس الكتائب ، ورغم العماهة التي أصابت أكثر اللبنانيين والفلسطينيين فلم يعودوا قادرين على التنبه العاقل لما يحاك ضد لبنان ، طلع صوت عاقل ينبه ويحذر ، ذلك الصوت كان للسياسي اللبناني المعترف له بالمواطنية والنزاهة ، الرئيس عادل عسيران الذي قال :

« . . . نرجو ألا تستقر هذه الحالة دقيقة واحدة ، لأنها ليست إلا من صنع العدو الذي يتربص بهذا البلد وتعايشه . . . . إن هذا المثل الرائع الذي يدركه العالم من خلال الممارسة اللبنانية ومن خلال

---

١٧ ـ كمال جنبلاط. هذه وصيتي . صفحة ٧٧

التعايش اللبناني ـ الفلسطيني من شأنه أن يدك الكيان الإسرائيلي في نظر الشعوب الراقية التي تتفهم الحقائق كما ينبغي . . . . » .

وفيما كانت عمليات تفجير بيوت حزب الكتائب جارية على قدم وساق في عملية عنيدة مشبوهة لإشعال الحرب في لبنان وبعد مرور ١٢ يوماً على حادثة عين الرمانة ، أصدر المحقق العسكري فجر الخامس والعشرين من نيسان مذكرات تقضي باعتقال سبعة أشخاص ، بينهم فرنسي ، يدعى هنري جان بيير دي جول ـ ٢٥ سنة بتهمة التخطيط لأعمال تخريبية في لبنان . ونسب الى هؤلاء السبعة انهم كانوا يدبرون عملية تفجير لمقر حزب الكتائب في بيروت ، وتبين خلال التحقيقات والتعقبات أن تلك الجماعة قد اشترت مواد ناسفة للغم سيارة ووضعها أمام مقر حزب الكتائب .

هذه ، وسواها من العمليات الكثيرة ، استخدمت لها اسرائيل الجواسيس والعملاء والمخربين ، في سبيل تفجير لبنان . وبما أن الوضع كان مهيئاً بفعل سائر باقي التناقضات المتصادمة على أرض الوطن الصغير ، كان لاسرائيل ما تريد .

وقبل أن تكون المناوشات التي جرت في الداخل قد تحولت الى حرب بالمعنى الحقيقي ، وكأن الإعلام الصهيوني كان في حالة استنفار لهذه الغاية ، كتب المعلق الصهيوني « موريس بوليتي » في جريدة « لي جورنال ديزرائيل » بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٧٥ ـ بعد مرور أربعة أيام فقط على حادثة عين الرمانة ـ كتب يقول :

« . . . . هذه الحرب تدور بين السكان المسيحيين الذين يتبين لهم أن لبنان ليس على ما يجب أن يكون بالنسبة لهم ، وبين السكان

المسلمين المصممين على تغيير وجه لبنان بمساندة الفلسطينيين . هذا يعني في لغة القومية العربية أن الفئات غير الإسلامية لن تشكل سوى طائفة قبلوا بوجودها . وهذا ما يريد الفلسطينيون القيام به بالنسبة لنا لو أمكنهم ذلك .... ان تدخل السلطات اللبنانية لا يمكنه أن يكون سوى مسكن .... ما دامت الأسباب نفسها قائمة ، مما سيؤدي الى النتائج نفسها ، ولا يمكننا نحن إلا أن نشفق على مصير اللبنانيين ، هذه الأحداث جعلتنا نتنبه الى عدم الأخذ برأي توصيات جميع الذين ذكروا لنا هذا البلد كنموذج للتعايش بين مختلف الطوائف عند العرب . والشيء الوحيد الذي لا تطمح اسرائيل بالوصول اليه هو لبنان كهذا ... »

إذا كان لهذا المقال المعبر دلالات واضحة على الغايات الاسرائيلية الهادفة الى تخريب لبنان وتدمير كيانه والقضاء على صيغة التعايش فيه ، فهو لا يدل على أكثر من نصف الحقيقة، أما النصف الثاني ، فهو غاية اسرائيل النهائية : تقسيم لبنان الى دويلات دينية تكون على شاكلتها ومثالها .

« ... فالاسرائيليون لم يكونوا بريئين من كل علاقة بهذه القضية ، إذ يقوم مخططهم على تشجيع قيام دويلات طائفية وطنية متناقصة الاستقلال ، حول دولتهم اليهودية في اسرائيل ، دولة درزية وأخرى علوية وثالثة مارونية وكردية الخ ... وقد وضع هذا المخطط قبل قيام اسرائيل ، ولكنه لم يعلن إلا بعد ذلك . وثمة بعض النصوص التي تشهد على عزم الاسرائيليين هذا ، كالرسائل الرسمية المتبادلة بين رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق موسى شاريف وسفيره في روما سامسون ، حول تفتيت المنطقة الى دويلات طائفية بحيث تصبح

اسرائيل الدولة المتفوقة الراجحة بينها ، الأمر الذي يتيح لها البقاء . لا بل انْ المدير العام لوزارة الخارجية ا الإسرائيلية أكد مؤخراً بمناسبة الأزمة اللبنانية هذه الرغبة في قيام كيان ماروني . وهكذا لا تعود اسرائيل محاطة بدول عربية وبها وحدها .... فان الإسرائيليين كانوا ... جزءاً لا يتجزأ من الحرب اللبنانية[18] » .

والغريب في هذا الموضوع ، ان جميع القادة المعنيين في الحرب اللبنانية ، كانوا يدركون تمام الإدراك هذا الهدف الإسرائيلي . وفي الوقت نفسه ، كانوا جميعاً يظهرون معارضتهم العلنية للتقسيم ، فيما كانوا ينجرفون وراء المخطط بشكل عجيب . أليس في هذه الظاهرة ما يدعوا للتأمل ؟ .

فبالإضافة الى القطب الدرزي في الحرب اللبنانية ، الذي غاب ، ها هو القطب العلوي السوري يدلي بالمعلومات ذاتها ، فيقول :

« .... أما تقسيم لبنان ، فهو هدف تاريخي ، كما نعرف ، بالنسبة للصهيونية العالمية ، هناك رسائل متبادلة ، ربما قرأها الكثيرون منكم ، بين ... بعض القادة الصهاينة في الخمسينات حول هذا الموضوع ، يؤكدون فيها على أهمية تقسيم لبنان[19] » .

وقبل أن تشتعل الحرب اللبنانية بسنتين ، كانت المؤامرة الاسرائيلية الهادفة الى تقسيم لبنان قد أصبحت في حكم المفهومة ،

---

١٨ ـ كمال جنبلاط. هذه وصيتي. صفحة ٧٦

١٩ ـ الرئيس حافظ الأسد في خطاب ٢٠ تموز ١٩٧٦. الكتاب الأبيض اللبناني. ص ١١٦

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، لماذا عمل المسؤولون وغير المسؤولين للتعتيم على هذه المؤامرة ، وتركوها تصل الى مرحلة التنفيذ ؟ أليس من شأن هذه الظاهرة أيضاً أن تدعو للتأمل ؟

ففي الثاني والعشرين من أيار ١٩٧٣ ، أي قبل الانفجار بعامين ، أدلى نقيب الصحافة اللبنانية رياض طه بحديث في اجتماع مغلق جرى في دار النقابة ، كشف فيه عن أنه « سوف يعقد مؤتمراً صحافياً بعد أيام ليذيع فيه أسراراً ووثائق عن محاولات اسرائيل لإنشاء دولة طائفية تضم جنوب لبنان وجزءاً من الشوف ، والبقاع الغربي ، مع الجولان المحتل . إن محامياً لبنانياً كبيراً قد دعي الى روما[20] لمقابلة رئيس الإستخبارات الإسرائيلية ، وقد قابله بالفعل واطلع على ذلك المخطط الرهيب ، فاطلع عليه بعض الجهات اللبنانية والسورية وتم إحباط المكيدة حينذاك . غير أن إسرائيل ما تزال مصممة على تنفيذ خطتها ، وقد تدعمها أكثر من دولة أجنبية راغبة في القضاء على الثورة الفلسطينية وعلى الحريات الديموقراطية في لبنان[21] » .

... إلاّ أن الصباح ، قد أدرك شهرزاد فجأة ...

كينسجر ... كيسنجر

من أهم العوامل التي ساعدت اسرائيل على تنفيذ مخططها بالنسبة للبنان ... والمنطقة ، وجود وزير خارجية يهودي في الولايات

٢٠ ـ نكتفي بلفت النظر الى أن « روما » قد وردت في معلومات جنبلاط ، كما في معلومات طه ...

٢١ ـ فاضل سعيد عقل ، انطون جرجي الجبيلي . الحرب في لبنان . ص ٣١٤

المتحدة الأميركية أوصلته الصهيونية الى ذلك المركز الرفيع ، بعد أن أطاحت بالرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ، وتوصلت الى المجيء بالرئيس الضعيف الشخصية جيرالد فورد ، المتأثر بوزير خارجيته الداهية الى أقصى الحدود . وإذا كان الباحثون السياسيون يتناولون سياسة هنري كيسنجر تحت عنوان السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية ، فليس بوسع المتعمق في استطلاع ودراسة قضية الشرق الأوسط أن يتناول سياسة كيسنجر إلاّ تحت عنوان ... اسرائيل .

حتى اليوم ، لم يتمكن المراقبون والباحثون من حل لغز قضية تقسيم قبرص . وعندما أعطى الوزير اليهودي للخارجية الأميركية الضوء الأخضر للدولة التركية كي تحتل القسم التركي من الجزيرة ، لم يكن أحد يدرك أن ما يجري هناك له علاقة باسرائيل .

الرئيس القبرصي الراحل المطران مكاريوس ، كان أول من حذر من انتقال عدوى التقسيم الى لبنان ... بعد ما اكتشف الدور الخطير الذي قام به رئيس الإنقلاب « سامبوسون » بالتعاون مع اسرائيل ، وكان اسم سامبسون هذا موضوعاً على القائمة السوداء في أكثر العواصم العربية ... لتعامله المشبوه مع اسرائيل .

ولقد كشفت التحقيقات التي أجرتها لجنة الكونغرس حول مؤامرات الاستخبارات المركزية في الولايات المتحدة الأميركية ، عن مدى تورط كيسنجر شخصياً في عملية تقسيم جزيرة قبرص . وفي معرض التشبيه بين قضيتي لبنان وقبرص ، ذكرت جريدة « الفيغارو » الفرنسية أن « لبنان أصبح تقريباً مثل قبرص ، فهو مقسم طائفياً وإدارياً وعسكرياً واجتماعياً واقتصادياً ، مع أن زعماءه المتخاصمين يلتقون على منع التقسيم دائماً ... تماماً كما كان يحدث بين رؤوف

دنكطاش وكلاريدس في قبرص .[22] » .

عندما التقى وزير الخارجية اللبنانية فيليب تقلا الوزير اليهودي ذا المنصب الأميركي الرفيع هنري كيسنجر في واشنطن في بداية الحرب اللبنانية ، حاول تقلا أن يستنتج من كيسنجر بعض جوانب الدور المبهم ... وبالرغم من تحذير الوزير اللبناني من عواقب الأحداث الدامية في لبنان ، فان حماس الوزير الأميركي لم يكن بالقدر الذي يشجع ، وكان من الطبيعي أن تترجم ردود فعله تلك بأنها جزء من المخطط المحسوب . يومها طلب الوزير تقلا في جميع التعليمات التي أصدرها لسفراء لبنان في الخارج بأن يبحثوا عن « اللعبة » الأميركية في لبنان .... غير أنهم لم يوفقوا في ذلك ، لأن اللعبة لم تكن أميركية بقدر ما كانت .... يهودية كيسنجرية . فقد أتت أجوبة السفراء متباينة ... متناقضة . أما التحليل الأخير .... فقد شدد على خطة التقسيم التي هي بالأساس هدف هنري كيسنجر .

ويعترف المعلقون الإسرائيليون بتورط كيسنجر في هذه الخطة ، مع إعطائه المبررات فيقولون أن « كيسنجر قد فشل في إقامة صلح انفتاحي مع الدول العربية ، بالرغم من الوعود التي أغدقها على زعماء « تل أبيب » لمساعدته في تحقيق سياسة الخطوة خطوة ، وعندما لمس تعنت العرب في هذا المجال ، نصح الإسرائيليين بعدم الإنزلاق في الحرب ، وقرر السير في تعميم نموذج الدول العنصرية في العالم العربي » .

معنى هذا أن الوزير اليهودي في الإدارة الأميركية ، عندما شعر

٢٢ ـ راجع « الحوادث » العدد ١٠١٥ الجمعة ٢٣/ ٤/ ١٩٧٦ ص ١٣

بأن الدول العربية لن تقبل باسرائيل عضواً في جسمها السياسي ، والإقتصادي ، والإجتماعي ، صمم على السير في مخطط خلق الدويلات المشابهة لاسرائيل لكي تتعايش معها.[23] .

يقول كمال جنبلاط ، دون أن يوضح سبب قوله ، أن « كيسنجر قد أظهر عبقرية في التلاعب والمناورة.. »[24] وما لم يوضحه الزعيم الدرزي الإشتراكي عن سبب نظرته الى كيسنجر كعبقري في التلاعب والمناورة ، يتوضح تلقائياً عندما يذكر جنبلاط نفسه ، الذي كان يدرك تمام الإدراك أن المخطط الذي كان قيد التنفيذ هو مخطط تقسيمي ، أن للسيد « كيسنجر تصريحٌ بالغ الدلالة ، يقول فيه ، إذا أردتم إرضاء سوريا وتحويل بصرها عن الجولان فاعطوها جزءاً من لبنان[25] » تلك إحدى مناورات كيسنجر المضللة .

في الواقع ، هنالك أمر أساسي لا بد لمتتبع قضية اسرائيل واستراتيجيتها من أن يدركه ، وهو أن إمكانية استمرار الدولة العبرية في الحياة ، تتطلب شرطاً أساسياً ، هو التفاعل الكامل مع المحيط ، هذا التفاعل الكامل لا يمكن أن يتم عن طريق عقد معاهدات الصلح مع الدول الآسيوية المحيط بها ، على غرار المعاهدة التي عقدتها مع مصر ، جارتها الإفريقية البعيدة التي تفصلها عنها صحراء وقناة ، إنما هو يتم في حال قيام نوع من الفدرالية ، أو الكونفدرالية بين الدولة العبرية وجاراتها الشرق أوسطية . إلا أن قيام مثل هذا الإتحاد ، يبقى مستحيلاً مع الدول العربية القائمة حالياً ... وفي سبيل تحقيق مثل

٢٣ ـ راجع : المرجع السابق....
٢٤ ـ كمال جنبلاط. هذه وصيتي. ص ٧٧
٢٥ ـ كمال جنبلاط. هذه وصيتي . ص ٧٦

هذه الفدرالية أو الكونفدرالية على المدى العبيد ، لم يكن هنالك بد أمام اسرائيل من تفتيت المنطقة الى دول أقليات ، تكون غير قابلة للعيش إلا بذلك النوع من الإتحاد . . . . وقد يكون أصح القول بأنه لم يكن هنالك بد أمام اسرائيل من إعادة الكيانات في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط الى ما كانت عليه عشية إنشاء الدولة العبرية .

يقول أحد المفكرين اللبنانيين في هذا المجال :

« . . . دول أوروبا الغربية استلهمت مبدأ الإتصال الجغرافي في علاقاتها المتبادلة بعد الحرب العالمية الثانية ، فراحت تأخذ فيما بينها البادرة تلو الأخرى لاستثمار هذا الإتصال الجغرافي الى أقصى الحدود ، متحدية المخاوف التقليدية التي رسخت في قلوب شعوبها مع العداوة التاريخية السابقة ، فانطلقت السوق الأوروبية المشتركة الى أن وصلت في مطلع العام الحالي الى الوحدة النقدية . . . وقد يكون من أهم ثمار مبدأ الإتصال الجغرافي الطبيعي ، التحول الجديد في السياسة الإسرائيلية . فمنذ نشأة اسرائيل سنة ١٩٤٨ ، قام بين المفكرين الإسرائيليين من انتقد بشدة اعتبار اسرائيل « واجهة الديموقراطية الغربية في الشرق الأوسط » ومن حذر من خطر عزل إسرائيل عن محيطها الجغرافي العربي ، أما يمكن اعتبار ما يحدث في هذه المرحلة خطوة أولى نحو ربط اسرائيل بمحيطها الجغرافي الطبيعي؟[٢٦] » .

إن ربط اسرائيل بمحيطها الجغرافي الطبيعي كان يتطلب عملية

---

٢٦ ـ الدكتور بشارة صارجي . « الحوادث » العدد ١١٦٩ الجمعة ٣٠/٣/١٩٧٩ ص ٥٤ ـ ٥٥

قيصرية . وتلك العملية تبدأ بتحضير لبنان للتجزئة . وهكذا توافقت الإستراتيجية الإسرائيلية مع الإستراتيجية العلوية ، ولم تتعارض مع تطلعات سائر الأقليات الأخرى ، فوجدت المؤامرة لها تربة صالحة ، وساعدت التقنية الدولية الحديثة في خصوبتها ، فكانت حرب « الردّة » ، حرب إعادة رسم الخريطة السياسية لغربي سوريا إلى ما كانت عليه قبيل إنشاء دولتي سوريا ولبنان .

الفصل السابع

الفلسطينيّون

الوجود الفلسطيني في لبنان

الوجود الفلسطيني في لبنان ، وجود فوضوي ، وليس أكثر ما فيه من فوضى ، جهل عدد الفلسطينيين الموجودين على الأراضي اللبنانية ، إذ تختلف الأرقام ، حول هذا الوجود ، بين مصدر ومصدر اختلافاً كبيراً ، كما انها تختلف أحياناً لدى المصدر نفسه .

مديرية شؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان ، تقول أن عدد هؤلاء قد بلغ ، حسب معلوماتها ، حتى نهاية ١٩٧٦ حوالي ٢٥٠ ألف نسمة . إلاّ أن المديرية العامة للأمن العام اللبناني تذكر أن العدد يتراوح بين ٣٠٠ و٣٥٠ ألف نسمة . بينما اللجنة السياسية العليا للفلسطينيين في لبنان تؤكد جازمة أن عددهم في الفترة نفسها كان يفوق الـ ٤٠٠ ألف نسمة . وتصر وكالة الأمم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين في الشرق الأوسط على أن الرقم الصحيح ، حسب تقديرها ، لم يزد عن ٢١٠ آلاف نسمة لعام ١٩٧٦ . ولا ننسى هنا أن نعطي الرقم الذي ذكره رئيس الحكومة الإسرائيلية مناحيم بيغن مؤخراً ، فقد يكون عنده الخبر اليقين لما سوف يكون . . . . أما رقمه ، فهو ١٩٥ ألف نسمة .

في خضم هذه الأرقام ، يستحيل على الباحث أن يتوصل الى الرقم الحقيقي لعدد الفلسطينيين الموجودين حالياً على أرض لبنان ، إلا عن طريق المنطق . والمنطق هنا يفرض بعض التحليل ، وهذا ما اعتمده الكاتب الفلسطيني سمير أيوب في دراسته التي أفادت عن أن العدد الحالي للفلسطينيين في لبنان يناهز ال ٤٦٠ ألف نسمة ، وذلك تبعاً للمنطق التالي :

يعتمد أيوب نتيجة الإحصاء الرسمي التقريبية لعدد الفلسطينيين في لبنان عام ١٩٥٢ ، ويحددها بحوالي ١٥٠ ألف نسمة[1] ، ويعتمد معدل تزايد طبيعي سنوي ٣,٣ بالمئة ، فيصل عدد هؤلاء في نهاية العام ١٩٧٦ الى حوالي ٣١٦ ألف نسمة . يضاف الى هذا العدد ما أورده الدكتور مصطفى خالد ، المدير العام لشؤون اللاجئين الفلسطينيين في تقريره المرفوع الى وزير الداخلية اللبنانية عام ١٩٦٩ ، من أن هنالك ٤٠ ألف فلسطيني يقيمون في لبنان بموجب بطاقات بيضاء صادرة عن المديرية العامة للأمن العام ، تجدد كل ثلاث سنوات ، بحجة أنهم دخلوا الأراضي اللبنانية بصورة غير مشروعة ، بعد الإحصاء العام الذي تم للاجئين الفلسطينيين في أوائل ١٩٥٢ ، يضاف الى هؤلاء ٣٠ ألف شخص تقول مصادر الأمن العام انهم دخلوا لبنان على مرحلتين ، الأولى بعد احتلال غزة سنة ١٩٥٦ ، والثانية بعد احتلال الضفة الغربية سنة ١٩٧٦ ، وبالإضافة الى التزايد

---

١ ـ الإحصاء الرسمي لعام ١٩٥٢ حدد عدد جميع الفلسطينيين اللاجئين الموجودين على الأراضي اللبنانية ب ١٤٠ ألف نسمة . وتشير سجلات ووقوعات الولادة والوفيات حتى نهاية ١٩٦٨ الى أن عدد الوفيات كان ٤ آلاف ، وعدد الولادات ٨٧ ألفاً . فيكون عدد الفلسطينيين المسجلين رسمياً في لبنان ، قبل اللجوءات الجديدة ٢١٤ ألف نسمة .

الطبيعي لهذه المجموعات على أساس ٣,٣ بالمئة تراكمياً ، يصبح عددهم مع نهاية العام ١٩٧٦ حوالي ١٤٥ ألف نسمة . فاذا جمعنا عدد الفلسطينيين الذين جرى إحصاؤهم رسمياً عام ١٩٥٢ الى الفلسطينيين الذين دخلوا لبنان بعد ذلك الإحصاء ، مع إضافة الزيادة التراكمية ، أصبح مجموع عدد الفلسطينيين المقيمين في لبنان حتى نهاية ١٩٧٦ حوالي ٤٦١ ألفاً[2] » .

كمال جنبلاط أيّد هذا الرقم التقريبي ، معتبراً أن « عدد الفلسطينيين في لبنان قد ارتفع من ١١٠ آلاف عام ١٩٤٨ الى أكثر من ٤٠٠ ألف عام ١٩٧٥ . . .[3] » كذلك فان الرقم نفسه متداول حالياً في أوساط المقاومة الفلسطينية . إلا أن هنالك من يشكك بصحته بسبب حصول عدد كبير من الفلسطينيين على الجنسية اللبنانية ، ويتراوح تقدير هؤلاء بين ثلاثين وخمسين ألفاً . كما أن الاحصاء التقريبي الآنف الذكر لم يلحظ عدد اللاجئين الذين دخلوا لبنان واستقروا فيه اثر أحداث الأردن في « أيلول الأسود » عام ١٩٧٠ ، والذين دخلوا . . . أو خرجوا من لبنان خلال الحرب الأخيرة .

مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت السيد شفيق الحوت يقول :

«دخل الفلسطينيون الى لبنان بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، عبر جميع الحدود : البحرية والبرية والجوية . منهم من دخل البلاد باجراءات قانونية في أواخر نيسان من ذلك العام ، ومنهم من دخلها

---

٢ ـ راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٦ الجمعة ٩ اذار ١٩٧٩ ص ٥٤

٣ ـ راجع : كمال جنبلاط. هذه وصيتي . ص ٩٠

بعد ذلك دون أية معاملة رسمية ، ذلك نتيجة للهجمة الصهيونية الشرسة التي مورست بحقهم ، وكان عدد هؤلاء الفلسطينيين الذين لجأوا الى لبنان يومها يتراوح بين ١٠٠ و١٢٠ ألف نسمة قدموا من المدن والقرى الساحلية والجبلية المتاخمة للحدود اللبنانية ، وقد تحكم في توزيعهم الجغرافي في لبنان عنصران : الأول أن أصحاب الامكانات المادية اختاروا الأماكن المناسبة لهم في المدن والقرى اللبنانية ، والثاني يتناول المجموعات التي تفتقر الى هذه الإمكانات ، وقد تم توزيعها على المخيمات التي أنشأتها السلطة اللبنانية . . . ذلك كان اللجوء الأول ، أما اللجوء الثاني فقد كان نتيجة لحرب عام ١٩٧٦ ، حيث شهدت الدول العربية موجة نزوح جديدة للشعب الفلسطيني من الضفة الغربية وقطاع غزة . . . . وقد دخل لبنان آنئذ بين ٧ و١٠ آلاف فلسطيني بواسطة العمل الفدائي . أما موجة النزوح الثالثة الى لبنان ، فقد حصلت بعد أحداث الأردن عام ١٩٧٠ ، وقدر عدد النازحين في هذه الموجة بحوالي ٢٥ ألف نسمة .[٤] »

يقيم عدد من الفلسطينيين اللاجئين الى لبنان في أماكن تجمع كانت تعرف بـ « مخيمات » أما الكتّاب الفلسطينيون اليوم فأصبحوا يعرفون عنها « بالمعسكرات » بينما يقيم قسم آخر في « أماكن تجمع كبيرة » أصبح بعضها يضم أعداداً تفوق ما يضمه أكبر المعسكرات ، وهنالك قسم ثالث ، وهو الأكبر ، يقيم في الأحياء السكنية من بعض المدن اللبنانية .

نسبة الذين يقيمون في المعسكرات لا تزيد عن ٤٠ بالمئة .

---

٤ ـ راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٦ الجمعة ٩ آذار ١٩٧٩ ص ٥٤

وأهمها : معسكر مار الياس في مدينة بيروت ، معسكر شاتيلا ومعسكر برج البراجنة في جبل لبنان ، بينما انتقل سكان معسكرات الدكوانة (تل الزعتر) وجسر الباشا وضبية من هذه المحافظة الى منطقة الجناح ـ الأوزاعي والدامور من المحافظة نفسها . ثم معسكر نهر البارد والبداوي في محافظة الشمال . ومعسكر ويفل ـ الجليل في محافظة البقاع . ومعسكرات المية ومية ، وعين الحلوة ، والنبطية ، والبص ، وبرج الشمالي ، والرشيدية في محافظة الجنوب .

أما نسبة الذين يقيمون في التجمعات الضخمة ، فتزيد على ١٢ بالمئة ، وهم يتوزعون بين الجنوب والبقاع ، وأهم تلك التجمعات التي باتت تشكل جزراً سكانية فلسطينية : صبرا في بيروت ، البرغلية ، أبو الأسود ، عدلون ، الغازية في الجنوب . تعلبايا وسعدنايل في البقاع ، بالإضافة الى الدامور وشاطىء الأوزاعي في جبل لبنان .

والنسبة الباقية (حوالي ٤٨ بالمئة) تقيم في الأحياء السكنية المتراوحة بين الشعبية والوسطى والأرستقراطية في بيروت الغربية ومدن صيدا وصور وطرابلس وبعلبك والنبطية وبعض بلدات وقرى البقاع والشمال والجنوب .

من لاجئين الى حزبيين فمقاتلين

في بدء عهدهم بلبنان ، كان الفلسطينيون ، الذين وجدوا العطف والرعاية من قبل اللبنانيين ، وخاصة الأديار ومؤسسات الاكليروس والجمعيات الخيرية ، كانوا يعيشون ضمن اعتبارات اللجوء الشعبي ، ومع مرور الأيام ، وكان هؤلاء يفقدون أملهم

بالقيادات العربية وبالضمير العالمي في تأمين العودة الى فلسطين ، بدأت تنبت في مخيماتهم ، ضمن الظروف المعيشية السيئة البائسة ، دعوة للثورة والتمرد . وكانت الدعوات اليسارية الإنتهازية تجد لها في مخيمات البؤس والحرمان تربة خصبة للنمو . وسرعان ما راحت فئات لبنانية فقيرة نازحة من القرى النائية بقصد العمل في المدينة ، تختلط بهؤلاء اللاجئين وتشاركهم نمط الحياة ، فنشأ نوع من وحدة المصير بين الفلسطينيين وبين هؤلاء اللبنانيين ، وأكثرهم من الشيعة الذين قدموا من مناطق لا يزال الإقطاع السياسي يسيطر على مقدراتها ، وأهمها الجنوب والبقاع ، كذلك اتحدت مع هؤلاء فئات نازحة من بعض البلدان العربية ، كانت تعاني من الظروف نفسها التي تعاني منها الفئات اللبنانية المار ذكرها ، فاختلط الحقد والحرمان الفلسطينيان، وليدا الإغتصاب الصهيوني ، بالحقد والحرمان لدى باقي الفئات التي وجدت نفسها في ظروف ليست أفضل من ظروف اللاجئين الفلسطينيين ، مما جعلها تضمر للأنظمة القائمة ، إن في لبنان أو في البلدان العربية المجاورة ، كل كره وبغضاء . وعندما لاحت بوادر الثورة الفلسطينية في أواخر الستينات ، راح العامل يرمي أداة العمل ، سواء كانت مطرقة أم منجلا أم منشاراً . . . أم معولاً ، ويستبدلها ببندقية . وتوافقت هذه الحال الإجتماعية البائسة مع بعض الإستراتيجيات الأممية المتحينة الفرص ، فراحت البنادق تتكاثر ، وازداد التبدل في أوضاع سكان المخيمات ، التي راحت منذ ذلك الحين تتحول الى معسكرات .

وبحكم وجود هذه الجماعات في لبنان . . . . الدولة التي « بلا سقف ولا جدران . . . [٥] » تسابق أصحاب المآرب السياسية على احتواء

٥ ـ التعبير للأستاذ غسان تويني ، وقد أطلق هذا الشعار في إحدى مقالاته الصحافية في جريدة « النهار » في بداية السبعينات .

الفرق منها ، وراح كل من الدول العربية يغدق على الفرقة التي تبناها ، المال والسلاح ، ويجهزها كي تعمل لمصلحة النظام المعين عندما تدعو الحاجة . وشيئاً فشيئاً ، أصبح في تلك المعسكرات فرق خطيرة تضم عرباً ويابانيين وأميركيين لاتين و . . . من مختلف الجنسيات ، و يجمعهم الحقد و . . . البندقية .

كان من الطبيعي أن تتشكل لتلك الجماعات قيادات ، وكان من الطبيعي كذلك أن تتخذ لها شعاراً أول : استعادة فلسطين . غير أن ذلك الشعار المعلن ، كان يخفي وراءه شعارات عدة ، سرعان ما راحت تبرز الى العلن . . . ليس أقلها خطورة القضاء على الأنظمة العربية القائمة ، والقضاء على الكيانات المجزأة (بنظرهم) . . . وأخيراً ، إصلاح لبنان . . . على طريقتهم المتحالفة مع الطريقة الشيوعية تارة ، والطريقة العروبية طوراً ، تبعاً للظروف وللمعطيات .

تقول الجبهة اللبنانية :

« . . . أما نظرتنا للفلسطينيين ، فانها تنبع من تحليلنا لسياستهم في لبنان ، وهو يبين انهم تعمدوا ، بل صمموا ، هدم الدولة اللبنانية ، خدمة لأغراضهم التي يصعب معرفة ما إذا كانت فلسطينية أكثر منها يسارية ، أم يسارية أكثر منها فلسطينية ، وقد مرت هذه السياسة ، بمعرفة وموافقة مسلمي لبنان الضمنية على الأقل ، بمرحلتين : في الأولى منهما ، وابتداء من سنة ١٩٦٨ ، أخذ الفلسطينيون يهاجمون اسرائيل من أراضي الدولة اللبنانية الملتزمة ، بالنسبة للعدو ، باتفاقية هدنة ؛ وهم يعلمون تمام العلم أن هجماتهم

هذه لن تؤدي ، بحد ذاتها ، الى أكثر من إثارة مشكلة لاسرائيل ، لا تتعدى حدود المشاكل الأمنية البوليسية ، وقد استمرت هجماتهم خلال تلك المرحلة ، لا بقصد التوصل الى دحر اسرائيل ، وهو قصد يبدو بعيد المنال ، بل الى حملها من باب الإقدام على الثأر ، على احتلال لبنان الجنوبي أو قسم منه غير يسير ، وكان هذا المخطط يرمي في ذهن الفلسطينيين الى هدفين : أحدهما أتعاب إسرائيل عسكرياً عن طريق امتداد خطوط مواصلاتها العسكرية ، والآخر أتعابها دبلوماسياً كدولة معتدية تكراراً ، لا سيما على لبنان الذي بدا لهم أن له ، بين الدول الكبرى ، شيئاً من الحظوة ، فتندفع هذه الدول ، بحجة هذا الإعتداء الجديد ، على الإسراع الى تسوية قضيتهم . هذا هو مخطط المرحلة الأولى الذي لم يفت إذ ذاك أي مراقب . غير أن ما حصل هو ان اسرائيل ، استمرت على سياسة الضرب والهرب ، تحاشياً منها الوقوع في شرك الإستراتيجية المهيأة لها من الجانب الفلسطيني ، والتي أدركتها تمام الإدراك . وما حصل أيضاً في الوقت ذاته ، ان الفلسطينيين أدركوا وهن الدولة العاجزة عن قمعهم ، لا لشيء إلا لاندفاع المسلمين اللبنانيين الى نصرتهم في جميع الحالات ، مما كان من شأنه ، إذا حزمت الدولة أمرها على قمعهم ، أن يعرض « الوحدة الوطنية » للخطر .

« . . . أما في المرحلة الثانية ، وبعد أن ثبت للفلسطينيين أن اسرائيل لن تتركهم يقودونها ، عسكرياً ودبلوماسياً ، الى حيث كانوا يسعون ، وان الدولة اللبنانية أصبحت بقبضتهم بفضل موقف المسلمين اللبنانيين منها ، فانهم قرروا تحويل لبنان ، بكامله الى قاعدة يحكمونها على هواهم ، فكان تحالفهم من أجل ذلك ، مع هذه أو تلك من الدول العربية المجاورة ، ومع المسلمين ، لا سيما منهم

الذين تقنعوا بقناع اليسار ، وكانت البركة الصريحة أو الضمنية التي حصلوا عليها من هذه أو تلك من الدول غير العربية ، تقدمية كانت أم غير تقدمية ، وقد نجح هذا المخطط الثاني الى حد بعيد ، ما دام الفلسطينيون استطاعوا ، بمؤازرة الدول العربية ومسلمي لبنان ، وبتشجيع صريح أو ضمني من هنا وهناك من جانب الدول الكبرى ، أن يحتلوا القسم الأكبر من أراضيه ، وأن يحملوا بذلك« الطوائف المسيحية المتمسكة باستقلال لبنان ، على التقهقر الى مواقعها الأخيرة ، في المعنيين الحقيقي والمجازي . هذه هي الحقيقة التي عرفها أي مراقب ولا يجهلها أي سياسي ، لكن لم ينطق بها أي امرىء لأن لحرية الكلام ، بمفهوم الديموقراطية التي يدافع عنها مسلمو لبنان ، معنى خاصاً لم يكن ليسمح ، حتى الأمس القريب ، بالاجهار إلا بما يؤاتي مصالح الفلسطينيين حتى ولو كانت هذه المصالح على حساب مصلحة الدولة اللبنانية[٦] » .

هذه النظرة التي عبرت عنها الجبهة اللبنانية بالنسبة للنشاط الفلسطيني المشبوه في لبنان ، لم تكن بالغة درجة الخطورة التي أشار اليها الرئيس سليمان فرنجيه في رسالته الوداعية التي وجهها الى اللبنانيين في ١٩ أيلول ١٩٧٦ بمناسبة انتهاء ولايته في ٢٣ منه ، إذ قال :

« . . . الأعمال التي بدأ الفلسطينيون القيام بها في لبنان كانت تدل على أن غرضهم منها شيء ، ثم استحال الى آخر . أما غرضهم الأول ، فكان أن يتوصلوا مرحلياً بواسطة تنصيب نوع معين من

٦ ـ ملاحظات حول مشروع ورقة عمل المؤتمر الإسلامي . سلسلة القضية اللبنانية ـ الحلقة ٢١ ـ نيسان ١٩٧٧ ـ ص ١٧ ـ ١٩

اللبنانيين على الحكم الى أن يحكموا هم لبنان من خلالهم ، فيلتقي اتجاه الحاكمين الصوريين مع اتجاه الفلسطينيين ، وقد أصبحوا الحاكمين الفعليين . غير أن غرضهم الأول هذا استحال غرضاً آخر مع الإستمرار في العمل له . أما غرضهم الآخر فكان أن ينشئوا لهم وطناً فلسطينياً يكون قسم منه على أرض الجنوب في لبنان ، هذا القسم يضيق ويتسع بمقدار ما تكون غلبتهم على اللبنانيين كلية أو جزئية . . . [٧] »

* * *

تلك كانت بعض من الإتهامات التي وجّهت الى الفلسطينيين الذين كانوا طرفاً رئيسياً في تفجير الحرب اللبنانية ، فما هو الصحيح منها وما هو الخاطىء ؟ وما هي حقيقة أهداف المقاومة الفلسطينية من خلال اشتراكهم الرئيسي في الحرب اللبنانية؟

استراتيجيتان رئيسيتان

قبل الإجابة على هذه التساؤلات ، لا بد من تصحيح الرؤية بالنسبة للناظر الى الفلسطينيين من حيث القوة العسكرية والأهداف السياسية والمواقع الإستراتيجية .

فالمقاومة الفلسطينية ليست فصيلاً واحداً ، ولا تنظيماً واحداً ، ولا حزباً واحداً ولا صاحبة استراتيجية واحدة ، يكفي أن يكون في المقاومة الفلسطينية ما عرف ، يوم بدأت الحرب في لبنان ، بجبهة

٧ ـ الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١٩٣

الرفض ، ليكون هنالك خطان استراتيجيان داخل القوى الفلسطينية القتالية . وجبهة « الرفض » تلك ، كانت « ترفض » مؤتمر جنيف الذي كانت السياسة الدولية تحضر له ، وكانت تضم غلاة اليسار داخل المقاومة ، أمثال جورج حبش ونايف حواتمة وأحمد جبريل وسواهم ، وكانت هذه الجبهة مدعومة من الدول العربية المغالية في التطرف ضد مسألة اسرائيل ، ومنها ليبيا والجزائر . بينما كانت هنالك فصائل أخرى غير ملتزمة تمام الإلتزام بأي محور عربي ، وأهمها منظمة فتح التي كانت تضم داخل هيكليتها العديد من العناصر « الرافضة » ، إلا أن القيادة العليا للمنظمة كانت تستفيد من كافة الأنظمة العربية ، بمن فيها تلك المتقبلة لمؤتمر جنيف ، والمعروفة بصداقتها للولايات المتحدة الأميركية ، وبعدائها للشيوعية والإشتراكية ، ولكل المبادىء التي لا يقرّها الإسلام ، وأهم تلك الدول المملكة العربية السعودية ودول الخليج النفطي . ثم كانت هنالك منظمة الصاعقة التابعة للنظام السوري .

كانت تلك الإنتماءات داخل المقاومة تتصارع في الإستراتيجية من داخل ، ولم تكن بالتالي تتوافق في أي هدف ، مما جعل بعضها ، في بادىء الأمر ، ينزلق في الحرب اللبنانية مرغماً وراء البعض الآخر الذي فجر تلك الحرب . ولم يخف كمال جنبلاط استياءه من تأثير الإنتماءات العربية المتعددة المصالح داخل المقاومة الفلسطينية ، ومن أقواله ، انه « لا بد ـ قبل كل شيء ـ من أن تتوقف كل قوة من القوى العربية عن إعانة جماعتها داخل الثورة الفلسطينية ، إذ ينبغي لمختلف المعونات مالا وسلاحاً أن تسلم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، عبر صندوق مشترك يوضع تحت

إشراف الجامعة العربية والمقاومة ، فمن شأن ذلك أن يدعم كثيراً من تماسك الثورة الفلسطينية ، لأنه يقلص الى حد عظيم من مخاطر التناحر . . . .[8] » .

لقد بلغ عدد المقاتلين الفلسطينيين في لبنان ٢٠ ألف مقاتل[9] وكان من بين هؤلاء من يهدف الى وقد « حرب فيتنامية » على الأرض اللبنانية في هدف العودة الى فلسطين ، وتحويل اسرائيل الى بلد ديموقراطي الصيغة ، تتعايش فيه الأديان على الطريقة اللبنانية ، ومنهم من كان يهدف الى « تحرير » البلدان العربية من جميع الأنظمة القائمة ، حتى تلك التي تدعي التقدمية ، ومنهم من كان يهدف الى الإستيلاء على لبنان لجعله الوطن البديل ، ومنهم الأممي ، ومنهم العروبي ، ومنهم الإسلامي ، ومنهم العميل ، ومنهم النظيف . . . إلا أن جميع هؤلاء ، في النهاية ، قد تورطوا في الحرب اللبنانية ، فمن الذي ورطهم .؟

لم تكن الأنظمة العربية التي تدعي التقدمية بريئة من عملية التوريط هذه ، أما الأنظمة الإسلامية المحافظة ، فليس هنالك ما يثبت أي ما من شأنه أن ينفي عنها البراءة ، فهذه الأنظمة الأخيرة كانت تعمل ، فقط ، لإبعاد الدب عن كرمها ، قدر المستطاع ، ولأطول فترة ممكنة . أما الأنظمة ذات التسمية الثورية والتقدمية ، فكانت تستعمل المقاومة لأغراضها تبعاً للظروف والتطورات .

فلقد « . . . ساء ما عومل به الفلسطينيون ، كما أسيء تفهمهم

---

٨ ـ كمال جنبلاط. هذه وصيتي . ص ٩٢

٩ ـ أشرف حلمي . « الحوادث » العدد ١١٦٨ الجمعة ٢٣ آذار ١٩٧٩

من قبل الأنظمة العربية . . . فالفلسطينيون يعانون من الإستغلال السياسي من قبل الأنظمة بما في ذلك التقدمية منها .[10] وعندما يكون هذا الكلام لكمال جنبلاط ، فانه يعني الشيء الكثير .

لقد بلغ التناحر داخل المقاومة الفلسطينية ، قبل الحرب اللبنانية ، أن اختلف قادتها على شكل الحكم في فلسطين . . . . المحرّرة ، وقد عبّر رئيس جبهة المشاركة للثورة الفلسطينية عن هذا الخلاف بقوله : « . . . إذا كانت التيارات السياسية المتنوعة والمختلفة تخترق المقاومة الفلسطينية ، فان السيد ياسر عرفات ظل يؤكد دائماً وأبداً بصراحة بالغة بأن المطلب الرئيسي هو أولاً تحرير الأرض الفلسطينية ، وهو مطلب مقدم على أي شجار أيديولوجي ، وبعد التحرير ، يصير في وسع أي كان أن ينشىء حزبه الخاص وأن يدافع عن أيديولوجيته الخاصة ، وبانتظار ذلك ، فان المطلب القومي مقدم على كل شيء . فلا يجوز وضع المحراث قبل وجود الثورين ، ولا التفكير بما يجب فعله بالوطن قبل أن يتحرر »[11] .

إلا أن الخلاف الأيديولوجي الذي كان يعصف داخل المقاومة ، لم يكن مجرد خلاف على نظام الدولة بعد تحريرها ، بل كان في الوقت ذاته ، خلافاً على كيفية تحرير فلسطين .

فبينما ترى الأجنحة اليمينية في الثورة الفلسطينية وجوب تحرير فلسطين بالتعاون مع الأنظمة العربية القائمة ، ترى الأنظمة اليسارية التابعة للشيوعية العالمية أن التحرير يجب أن يتم عن طريق آخر ،

---

١٠ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٩١

١١ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٩٢

وهو طريق التعاون بين « الرفاق » في كل من البلدان العربية وإسرائيل لقلب الأنظمة والسيطرة على الحكم ، ليصار فيما بعد الى التعايش « الأممي » . وكان أفضل من عبر عن هذا الإتجاه صراحة كاتب شيوعي عربي صريح ، إذ قال :

« . . . لم يعد أمام الثوريين العرب الأمميين من مبرر لعدم فتح حوار نقدي ثوري ورفاقي مع الثوريين الإسرائيليين الأمميين ، بهدف اعداد وصياغة برنامج ثوري مشترك وأداة تنظيمية أممية موحدة للتحريض على تقويض المجتمع الصهيوني والمجتمعات الرجعية العربية ، التي استنفدت طاقاتها الخلاّقة ولم يبق أمامها إلا أن تغادر مسرح التاريخ ، وتشيد المجتمع الثوري اللاطبقي الجديد .[١٢] »

إن هذه النظرة الأممية المتطرفة تتعارض تماماً مع الإستراتيجية « الرسمية » لمنظمة التحرير الفلسطينية التي ذهب رئيسها مطالباً من على منبر الأمم المتحدة بتحويل اسرائيل الى دولة ذات صيغة تعايش بين الأديان الثلاثة : المسيحية والإسلام واليهودية . هنا يقع التصادم العميق بين القوى الفلسطينية المقاتلة ، ذلك التصادم الذي كان لا بد له من أن يقع على الأرض اللبنانية .

لم يكن من المقبول عدم توقع الخطر الفلسطيني اليساري المتطرف على لبنان بعد المواقف الواضحة التي أعلنها قادة جبهات الرفض . منها ما أعلنه رئيس الجبهة الديموقراطية الشعبية نايف حواتمة في مجال شرحه لأهمية الفارق بين مشروع حل المشكلة

---

١٢ ـ العفيف الأخضر . القضايا المعاصرة الجزء ٧ ـ ٨ المجلد الثاني . كانون الثاني ١٩٧٢ ص ١٧٢

الفلسطينية الذي طرحته جبهته وبين « الحلول الأخرى التي تلتقي عند الشعار العريض : قيام دولة فلسطينية ديموقراطية ، خاصة إذا أخذنا التركيب الطائفي المقترح لهذه الدولة بأنها دولة يعيش فيها المسيحيون والمسلمون واليهود . فمثل هذه الدولة لا تقدم حلاً ديموقراطياً يضع حداً للصراعات الطائفية والعنصرية ، بل يفتح المناخ واسعاً لهذه الصراعات وامتداداتها خارج حدود المنطقة العربية لا خارج حدود فلسطين فقط . وبتعبير أدق ، إن المضمون الديني والطائفي لهذه الدولة ينفي الطبيعة الديموقراطية لها ، ويفتح الأبواب أمام تداخلات القوى الرجعية والحركة الصهيونية والدول الامبريالية في البلاد لتعميق التمزق القائم فيها تحت راية « الدفاع عن هذه الأقلية الدينية أو العنصرية » خدمة لمخططات الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية في المنطقة ، وهذا ما يترك البلاد مرشحة باستمرار للتدخلات الخارجية وإعادة تقسيمها تحت ستار حل المشكلات الطائفية والعنصرية الناشبة من جديد ، ولذا نكون قد بعثنا المشكلة من جديد لتدور بذات الحلقة التي شهدتها المنطقة على امتداد هذا القرن » .

بعد هذا الشرح الوافي لمعارضته للدولة الفلسطينية ذات الصيغة التعايشية المشابهة للصيغة اللبنانية ، ينتقل نايف حواتمة الى التحدث عن مشروع جبهته الأممي فيقول :

« إن مشروع الحل الديموقراطي الذي تطرحه الجبهة يؤكد بوضوح أن ترجمة هذا الحل الى واقع ملموس ، يمر عبر الكفاح الجماهيري المسلح ، وبتعبير أدق ، عبر حرب الشعب الثورية الطويلة الأمد ، والتي يمثل فيها شعب فلسطين دوراً طليعياً في المعركة

القومية ضد الصهيونية والأمبريالية ، ولذا فقد دعت الجبهة جميع اليهود التقدميين في اسرائيل الى حمل السلاح والإنتظام مع شعب فلسطين في جبهة تحرير وطنية فلسطينية لإزالة الكيان الصهيوني ممثلاً بدولة اسرائيل ، وإقامة الدولة الديموقراطية الشعبية . . . كما أكد مشروع الحل أن إمكانيته العملية مرتبطة جدياً وعضوياً بحدوث انقلاب في ميزان القوى المادية لصالح حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية ضد اسرائيل والإمبريالية ، ومثل هذا الإنقلاب لن يتم إلا بدفع شعب الأمة العربية الى حمل السلاح وخوض حرب تحرير شعبية ، لا على الحدود الفلسطينية والعربية المحتلة فقط ، بل على امتداد الأرض العربية أيضاً ، لخوض صدام مباشر وطويل النفس مع اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل . . .[١٣] »

بعدما حدث في لبنان ، يمكن القول ، انه تم فصل من مشروع الجبهة الديموقراطية الشعبية ، الا وهو « خوض حرب التحرير الشعبية . . . لا على الحدود . . . . بل على امتداد الأرض اللبنانية » .

أو ليس من الواضح بعد هذا الشرح لنايف حواتمه ، ان استراتيجية جبهته الأممية كانت تقضي بنسف الصيغة اللبنانية التي طرحها ندّه ياسر عرفات حلاً لقضية اسرائيل وفلسطين ؟ تماماً كما كانت تقضي استراتيجية اسرائيل بنسف هذه الصيغة ؟

. . . ويتساءلون عن سر التواطؤ الظاهر بين جبهات الرفض

١٣ ـ نايف حواتمة . القضايا المعاصرة . الجزء الرابع ، المجلد الأول . تموز ١٩٧٠ ص ٦ ـ ٧

الفلسطينية واسرائيل في عملية هدم الكيان اللبناني .

ولكن ، إذا كان الرافضون للصيغة اللبنانية حلاً للقضية الفلسطينية والإسرائيلية ، من اسرائيليين وفلسطينيين وشيوعيين ، قد اشتركوا في هدم هذه الصيغة ، فما هو السر الذي جعل منظمة التحرير الفلسطينية تنساق في هذا التيار ، وهي التي طالب رئيسها من على منبر الأمم المتحدة بالصيغة اللبنانية حلاً للقضية الفلسطينية؟ . . .

لندع السوريين يكشفون للتاريخ عن مطامع « فتح » وسائر منظمة التحرير الفلسطينية عبر جريدة البعث السورية الرسمية التي قالت أن بعض الفلسطينيين ، في أحد اجتماعات شتوره ، « وصلت بهم القحة الى حد مساومة سورية في لقاء جانبي بين الرفيق اللواء ناجي جميل وبين صلاح خلف (أبو أياد) على اقتسام لبنان . قال صلاح خلف : لا خلاف بين سوريا والمقاومة ، ولن يكون هناك خلاف في لبنان ؟ . . . لن نعارض سورية في ضم أي جزء من لبنان ، على أن نستولي نحن على الجزء الآخر[١٤] » .

مصدر سوري آخر ، يشرح بعض الجوانب التي جعلت المنظمات الفلسطينية اليمينية تفكر بالسيطرة على لبنان ، وهو رئيس منظمة الصاعقة زهير محسن الذي قال :

« إن جهات عربية ودولية زينت للمقاومة الفلسطينية حكم لبنان ، وقالت للزعماء الذين استمروا في الحرب . . . . إذا حكمتم لبنان تستطيعون المقايضة عليه بالضفة الغربية . . . وبعض قادة

١٤ ـ صحيفة « البعث » السورية عدد ١١/ ١٠/ ١٩٧٦

المقاومة كان مقتنعاً بأن النظام الهزيل في لبنان يعطي المقاومة مجالاً للحركة لا يتوفر في ظل حكم قوي. . .[١٥]» .

من هنا يتضح أن المقاومة الفلسطينية كانت تقاتل، مجتمعة، في الحرب اللبنانية لاستراتيجيتين مختلفتين : الأولى يسارية أممية ترمي الى القضاء على الصيغة اللبنانية ، والسيطرة على الحكم عن طريق الأحزاب اليسارية ، والثانية عروبية إسلامية تقضي بتسليط الحكم الإسلامي على البلاد ، بدعم إسلامي عربي وبتحالف مع القوى الإسلامية اللبنانية . كذلك كانت هناك استراتيجيات الآخرين التي كان الفلسطينيون يعملون لها ، سواء عن إدراك أو عدم إدراك ، منها مثلا إرادة تمرير اتفاقية سيناء ، وتحويل الضجة التي كان يمكن أن تثار حولها الى الحرب اللبنانية . من هذا القبيل أن ياسر عرفات قد علق ، في ثورة غضب ، على اتفاقية سيناء بقوله : « سنطربق لبنان على رأس أميركا والسادات. . .[١٦] » إلاّ أن « الطربقة » التي حصلت وقعت على رأس عرفات والمقاومة الفلسطينية ولبنان !

الفلسطينيون في الحرب اللبنانية

قبل تفصيل وقائع التحالف التآمري بين الفصائل اليمينية من المقاومة الفلسطينية والمسلمين من أجل السيطرة على الحكم في لبنان ، فيما يلي غوص في موضوع التحالف الفلسطيني اليساري مع القوى اليسارية اللبنانية وفي وقائع ذلك التعاون خلال الحرب اللبنانية .

---

١٥ ـ عبده عويدات . ص ٦٢ ـ ٦٣
١٦ ـ راجع : « الحوادث » العدد ١٠٤٠ ص ٢٤
وعنه : ج . أ . نصر . ص ٥٩

انطلاقاً من الإستراتيجية الأممية التي شرحت آنفاً ، راحت الفصائل اليسارية تعمل علناً مع القوى اليسارية اللبنانية لتقويض النظام ، وقد أعلن الدكتور جورج حبش خلال مهرجان أقيم في بيروت بتاريخ ٩ آذار ١٩٧٦ أن « الثورة الفلسطينية . . . لن تتنازل عن أي حق من حقوقها المكتسبة في لبنان. . . . لنا مهمة ثانية في لبنان ، لا نخجل من أن نسجلها أمامكم وأمام العالم كله . وهي أن نساند البندقية اللبنانية التي رفعها الكادحون والمضطهدون والفقراء في لبنان[١٧] » .

وكان ممثل « جبهة القوى الرافضة » قد ألقى كلمة قبل يومين من ذلك التاريخ في حفل تأبيني في تل الزعتر ، قال فيها : « . . . نحن لسنا على الحياد في الصراع القائم في لبنان ، ان الحركة الوطنية ساندتنا ووقفت معنا في كل المحن ، وان أول واجب علينا هو أن نقف الى جانبها ونقدم اليها كل دعم مادي وعسكري ومعنوي[١٨] » .

وعندما انزلقت المقاومة الفلسطينية ، بجميع فصائلها ، في الحرب اللبنانية ، ووجدت نفسها في مرحلة تحالف قتالي مع القوى اليسارية ، اضطر الإعلام الفلسطيني الى الاعلان عن « وحدة الخندق » بين اليسار والفلسطينيين . ففي أوائل حزيران ١٩٧٦ كتب « المحرر السياسي » لوكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) محدداً موقف المقاومة من الامسألة اللبنانية بقوله « ان الثورة الفلسطينية هي في خندق واحد مع الحركة الوطنية اللبنانية . . . ونحن جزء من الحركة

---

١٧ ـ « النهار » ١٠/ ٣/ ١٩٧٦
١٨ ـ « النهار » ٨/ ٣/ ١٩٧٦

الوطنية اللبنانية[19] » -.

والواقع ، أن الفصائل اليسارية في المقاومة الفلسطينية لم تكن محض فلسطينية ، أو فلسطينية - لبنانية ، إنما هي أضحت حركة أممية بالمعنى الصحيح ، فكان هنالك ، بالإضافة للفلسطينيين ، الكوبيون واليابان والطليان والفرنسيون والأميركيون الجنوبيون ، والمخيم الفلسطيني ، على حد تعبير أحد كبار الكتاب الفلسطينيين ، لم يعد « غيتو فلسطينياً » ، بل أصبح يضم يداً عاملة لبنانية ومصرية وغيرها من الجنسيات . . .[20] »

وهكذا ، كانت المقاومة ، باقرار كمال جنبلاط ، قائد اليسار في لبنان « الجيش المسلح للشعب اللبناني . . . ولو لم تكن المقاومة الى جانبنا لكان « الإنعزاليون » قد نفذوا مخططهم لاحتلال كل لبنان بثلاثة أيام . . .[21] » . بمعنى آخر ، كانت الأحزاب المسيحية قد فرضت السيطرة اللبنانية التامة على جميع الأراضي اللبنانية خلال ثلاثة أيام .

إلا أن زعيم اليسار اللبناني ، الذي كان يستعين بالفلسطينيين وسائر يساريي العالم ، ومسلميه . . . للتوصل الى السلطة ، لم يخف انزعاجه من طموحات المقاومة ، إذ قال في حديث الى مجلة فرنسية يسارية : « . . . كنا بالأحرى متضايقين من الوصاية الدائمة التي مارسها الفلسطينيون علينا . لقد مارسوا دائماً نوعاً من

١٩ - « النهار » ٤/ ٦/ ١٩٧٦ وراجع : ج . أ . نصر ص ٥٥

٢٠ - سمير أيوب . صاحب دراسة عن البناء الطبقي للفلسطينيين في لبنان . راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٦ الجمعة ٩ آذار ١٩٧٩

٢١ - ج . أ . نصر. ص ٧٧ نقلاً عن الأنوار في ١٩/ ٩/ ١٩٧٦

الإنتداب ، وكانوا يراقبون خطوط التموين ، وشبكات الهاتف والتلكس ، ان حصولنا على أسلحة ثقيلة كان يتم بواسطتهم ، وكانت بعض فصائل اليسار تعتمد أيضاً عليهم في الحصول على ذخائر الأسلحة الخفيفة . إن الإدارة العسكرية كانت كلياً بين أيديهم ، ولم يكن لدينا شيء نقوله في هذا النطاق . لقد حاولت أن أعترض على بعض قدراتهم العسكرية التي كنت أخالفهم فيها ، فلم ألق أبداً أذناً صاغية[22] » .

وإذا قابلنا هذا التذمر ، من قبل زعيم اليسار الراحل ، من جرّاء عدم انصياع القوى الفلسطينية لرغباته ، بقول الرئيس السوري عن أن « حقيقة الأمر أن هناك قوى في داخل لبنان . . . . تريد أن تسخر المقاومة الفلسطينية لأهدافها التكتيكية أو الإستراتيجية . . . . وإن المقاومة الفلسطينية تقاتل الآن (١٩٧٦) من أجل أهداف الآخرين وضد مصلحة وأهداف الشعب الفلسطيني[23] » حرنا في معرفة من كان يسخر الآخر .

في الواقع ، لم يكن هنالك تسخير ، بل كان هناك تعاون ، يقضي بهدم الصيغة والنظام اللبناني في المرحلة الأولى . . . أمّا في المرحلة اللاحقة ، وفي حال نجاح هذه الفئة في السيطرة على لبنان ، فكان الصراع عائداً ليعصف بين أطماع زعيم اليسار اللبناني من جهة ، والأمميين ، من جهة ثانية ، والقوى الإسلامية المتحالفة مع يمين المقاومة من جهة ثالثة .

٢٢ - كمال جنبلاط في Le Nouvel observateur. No 632, 20-26 dec. 1976. P:36
وعنه : ج . أ . نصر. ص ٦٦

٢٣ - الرئيس حافظ الأسد . الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١٢٤

والآن ، ماذا عن التحالف الفلسطيني - الإسلامي في حرب لبنان ؟

في السابع عشر من أيار **١٩٧٦** ، عقدت قمة عرمون اجتماعاً بحضور رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود ، قال خلاله رئيس الوزراء اللبناني الأسبق ، عبد الله اليافي : « لحسن حظنا أن الفلسطينيين موجودون ، فلو لم يكونوا موجودين لهلكونا[24] » (يقصد القوات اللبنانية) .

وقال مرجع المسلمين السنة في لبنان ، مفتي الجمهورية اللبنانية ، الشيخ حسن خالد ، في المجال نفسه : « ... قبلاً ، كنا نلجأ الى الضغط السياسي دائماً ، وهذه كانت وسيلتنا الوحيدة للإصلاح والمساواة ، من جهة أخرى ، برزت القضية الفلسطينية ، فوجدنا أنفسنا متلاحمين مع الفلسطينيين لأننا معاً نشكل أيديولوجية واحدة ، نحن والفلسطينيون شيء واحد ، عربياً ودينياً ووطنياً ...[25] » .

وعندما سأل الرئيس الليبي مفتي المسلمين السنة في لبنان عن قدرة طائفته على الصمود ، أجاب الشيخ حسن خالد :

« ... إنني أريد أن أقول لك أن قدرتنا مستمدة من قدرة العرب ، ومن قدرة الفلسطينيين في آن معاً ، فاذا قالوا بأنهم قادرون على استمرار المعركة ، فنحن قادرون أيضاً ... نحن أقوياء بكم

٢٤ - الشيخ حسن خالد . ص ٢٨١
٢٥ - الشيخ حسن خالد . ص ٢٨٢

وبالفلسطينيين ، هذا جوابي ...[26] » .

وفي اجتماع بين كمال جنبلاط والمفتي خالد ، قال جنبلاط لمفتي المسلمين في لبنان : « ... لولا الفلسطينيين لهزمنا ودخل الكتائب البسطا ، الفلسطينيون يدافعون عن المسلمين ، المسيحيون والموارنة رؤوا انه إذا قوي الفلسطينيون فسيقوى المسلمون ويطالبون بحقوقهم أكثر وأكثر ، وقالوا ثمة خطر من الفلسطينيين علينا ، أي على امتيازاتهم ، الفلسطينيون كما كنت تقول سماحتك « هم جيش المسلمين » إذا كنا سنسلم للموارنة فانهم سيسيطرون علينا وعلى الفلسطينيين ...[27] »

وعندما يعتبر مفتي المسلمين في لبنان أن المقاومة الفلسطينية هي جيش المسلمين ، يصح ما ذكره أحد الأساقفة في رسالته الى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الإسلامي ، من أن « المسلمين اغتنموا الوجود الفلسطيني المسلح على أرض لبنان ، علماً بأن أكثرية الفلسطينيين الساحقة من المسلمين ، وحاولوا الإستيلاء على السلطة بقوة السلاح ، في هدف جعل لبنان بلداً مسلماً كسائر الدول العربية في الشرق الأوسط ، حيث نظرياً ، وغالباً عملياً ، دين الدولة الإسلام ، والإسلام مصدر التشريع ، ذلك لأن لبنان هو البلد الوحيد في المشرق الذي يشذ عن هذه القاعدة[28] »

ولكن إذا كانت استراتيجية المسلمين السنة تقضي بالسيطرة

٢٦ - الشيخ حسن خالد . ص ٢٨٣
٢٧ - الشيخ حسن خالد . ص ٢٨٧
٢٨ - من رسالة المطران باسيم .

الإسلامية على الحكم ، فماذا كان يبغي الفلسطيني اليميني من هذه السيطرة ، وهو الذي كان يطالب بالصيغة اللبنانية لفلسطين؟!

لا شك في أن لبنان كان يشكل المركز الأرحب والأنسب بالنسبة لحرية تحرك المقاومة الفلسطينية ، غير أن هذه الحرية في التحرك كانت تلاقي معارضة عنيدة من قبل القوى المسيحية الخائفة على مصير الوطن من جراء انطلاق العمل الفدائي ضد اسرائيل من الأراضي اللبنانية ، وعندما تعاظمت هذه المعارضة ، وجدت المقاومة الفلسطينية نفسها في مواجهة الجيش اللبناني ، فراحت ، بالتعاون مع سائر القوى الهادفة الى تقويض الدولة اللبنانية ، تعمل لتفكيك الجيش ، وعندما تبدّى للقوى المسيحية المحافظة ما قد يشكل لها انهيار المؤسسة العسكرية من أخطار من شأنها أن تهدد مصيرها ، راح المسيحيون يتسلحون ويتدربون على القتال ، ويتهيؤون لليوم العصيب . بالمقابل ، راحت القوى الإسلامية تدعم المقاومة الفلسطينية في مواقفها السياسية ، حتى غدا الولاء للمقاومة عندهم مقياساً للوطنية ، وكانت المزايدات من قبل مسترئسي الوزارات لتزيد في هذا الوضع الشاذ استشراء ، فنشأ ذلك التلاحم السياسي غير الطبيعي بين يمين المقاومة والزعامة الإسلامية، وبذلك أصبح رئيس الوزراء يستلهم مواقفه السياسية، ليس من رئيس الجمهورية أو من السلطة التشريعية أو من مصلحة البلاد ، بل من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، الذي أصبح يساهم مساهمة فعالة ، وان غير قانونية أو غير مباشرة ، في تعيين رؤساء الوزارات والوزراء . ولكي يحافظ اليمين الفلسطيني على هذه المكاسب في تسيير دفة الحكم في لبنان عن طريق السيطرة على رئيس مجلس الوزراء ، كان لا بد له من أن يقاتل مع المسلمين رافعاً شعار العروبة والإسلام . . .

من الأمثلة على مدى تدخل اليمين الفلسطيني وسيطرته على ممثلي المسلمين في الحكم وعلى رئيس مجلس الوزراء ، انه في اليوم الثاني من عام ١٩٧٥ ، عقد اجتماع للقمة الإسلامية في عرمون بحضور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد تناول البحث موضوع التمديد لمجلس النواب ، وكان الحكم السوري قد أبدى بعض الضغوط لحمل النواب للموافقة على مشروع التمديد ، وكان الرئيس رشيد كرامي متأثراً بهذه الضغوط ، وبالطبع ، كانت أكثرية النواب تميل الى هذا التمديد بحكم المصالح الشخصية .

يومها قال الرئيس صائب سلام : « يقال إذا مدد المجلس مدته تصبح انتخابات رئيس الجمهورية أضعف . . . فربما يستقيل رئيس الجمهورية تحت وطأة الأحداث حيث لا يمكن إجراء الانتخابات ، ويقول البعض عندما يمدد المجلس ويهتم بأحداث البلاد أحسن بكثير من انتخاب الرئيس » .

ويبدو أن مفتي الجمهورية كان يرغب في إحداث الفراغ الدستوري كما كانت تقضي استراتيجيته ، فرد على سلام مقترحاً :

« إذا وافقتم على التمديد فباستطاعة المجلس بعد ذلك أن ينتخب رئيس الجمهورية معنى ذلك انكم ساعدتم رئيس الجمهورية » (يقصد رئاسة الجمهورية المارونية) .

هنا قال أبو عمار : « هذه ورقة ينبغي أن تبقى بأيديكم ولا تعلنوا عنها . » وراح عرفات يقرأ تقريراً عن معلومات منظمته حول اجتماعات الكسليك ، وجوهر التقرير يتحدث عن التصلب الماروني في المجال السياسي في وجه المطالب الإسلامية من ناحية ، وعن

التصعيد العسكري المسيحي من ناحية أخرى . مما حدا بممثل الشيعة في الإجتماع الشيخ مهدي شمس الدين أن يتدخل بقوله : « أرجو أن لا نصل الى حالة واقعية أكثر خطورة كأن نصل الى التقسيم[29] » .

إلا أن حسابات حقل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ومفتي الجمهورية بالنسبة لإحداث الفراغ الدستوري في سبيل وضع اليد على الحكم ، لم تصدق على بيدر الحكم السوري ، الذي جاء ليقلب المعادلة رأساً على عقب ، وليعيد مركز حج رؤساء الوزارات الى دمشق ، بعد أن كانت المقاومة قد حولته نحو . . . . صبرا الى حين . وبالتكويعة السورية غير المنتظرة ، أضحت دمشق محج الجميع ، بمن فيه المقاومة الفلسطينية بجميع فصائلها . وبذلك خسر الفلسطينيون حرية التحرك التي كانوا يتمتعون بها قبل الحرب اللبنانية التي شاركوا في تفجيرها من جراء ممارساتهم الغريبة في بلد استضافهم ، وسرعان ما راحوا يعملون في الإساءة اليه انطلاقاً من دوافع عدة . وكان الرئيس السوري قد تناول موضوع التدخل الفلسطيني في الحكم اللبناني إذ قال : « . . . جاءني ياسر عرفات بعد الانقلاب (انقلاب الأحدب) بأيام قليلة ، ورجاني أن أبذل جهداً من أجل إقناع رئيس الجمهورية بالاستقالة . . .[30] » .

الممارسات الفلسطينية

على هامش الإستراتيجيتين الفلسطينيتين ، يفرض البحث في الحرب اللبنانية تناول الممارسات الفلسطينية التي كان لها التأثير المباشر

٢٩ ـ الشيخ حسن خالد . ص ٩٥
٣٠ ـ الرئيس حافظ الأسد . الكتاب الأبيض اللبناني ص ١٢٥ ـ ١٢٦

في تحضير أجواء الحرب في لبنان ، باضعاف هيبة الدولة ، وتقسيم مؤسساتها ، وتحريض الفئات اللبنانية ، إن سلباً أم إيجاباً ، على أعمال العنف .

هذه الممارسات ، لم يستطع أحد إنكارها ، بمن في ذلك حليف المقاومة الفلسطينية والمستفيد الأكبر من عناصرها القتالية ، كمال جنبلاط . وقد عبر عن ذلك في وصيته إذ قال :

« . . . لا بد من القول أن الفلسطينيين أنفسهم ، سهلوا بخرقهم القانون اللبناني ، وبفوضاهم ، في حمل الأسلحة وقيامهم بدور الشرطة على بعض المداخل في العاصمة ، إعداد المؤامرة وتدبيرها . . . وكانوا يعرضون أنفسهم بغفلة كاملة للنقد ، وفي بعض المرات للمقت ، ففي بعض الأحيان كانت الدوريات الفلسطينية توقف موظفين ومدراء عامين للتحقق من هويتهم ، وفي أحيان أخرى ، كان يجري خطف وسجن لبنانيين أو أجانب بحجة صحيحة أو واهية . . . . هذه التجاوزات ، التي كان ينظر اليها في بداية الأمر بكثير من التساهل ، أصبحت مع الأيام صعبة الإحتمال ، ففرض القانون من قبل الآخرين على الأرض اللبنانية ، والأعياد والتظاهرات المسلحة ، وجنائز الشهداء العسكرية ، كل ذلك لم يكن إلا ليزعج الرأي العام ، ولا سيما الرأي المحافظ المتعلق بالأمن ، بسبب التجارة والصناعة اللتين يتعاطاهما في العموم المسيحيون ، وفي مقدمتهم الموارنة . والحق اني لم أر ثورة أقل روية وأدنى تكتماً . . .[31] » .

٣١ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٧٨

في الواقع ، هذه الممارسات الفلسطينية الخاطئة في لبنان لم تبدأ عشية الحرب اللبنانية ، ولا بدأت أثر تأسيس المقاومة الفلسطينية ، بل منذ مجيء الفلسطينيين الى لبنان في العام ١٩٤٨ ، وقد بدأ الفلسطينيون يلعبون دوراً شارعياً حقيقياً وبارزاً « منذ عام ١٩٥٨ حيث قاتلوا في صفوف المعارضة لحكم شمعون . . .[٣٢] » وكانت تلك الممارسات تتصاعد حتى بلغت ذروتها في العام ١٩٦٩ ، حيث وقعت اشتباكات بين الجيش اللبناني وفصائل المقاومة ، وبعد أن أحدثت تلك الإشتباكات أزمة خطيرة ، توسّطت القاهرة بين الحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية ، فعقد اجتماع في الثالث من تشرين الثاني في العاصمة المصرية ، حضره وفد لبناني برئاسة عماد الجيش اميل بستاني ، ووفد من منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة السيد ياسر عرفات رئيس المنظمة ، وحضرعن الجمهورية العربية المتحدة محمود رياض وزير الخارجية والفريق الأول محمد فوزي وزير الحربية ، وقد تم خلال ذلك الإجتماع عقد « اتفاقية القاهرة[٣٣] » التي نظمت ، على الورق ، العلاقات بين الحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية على أساس حق العمل والإقامة والتنقل « للفلسطينيين المقيمين حالياً في لبنان[٣٤] » ضمن نطاق السيادة اللبنانية الكاملة .

غير أن بنود هذا الإتفاق بقيت دون تطبيق من الجانب

---

٣٢ ـ راجع : «الحوادث» العدد ١١٦٨ الجمعة ٢٣ آذار ١٩٧٩ ص ٥

٣٣ ـ راجع نص الاتفاقية في الكتاب الأبيض اللبناني ص ١٩٦ وما يليها .

٣٤ ـ جاء في الفقرة (٥) من مقدمة تقرير المفوض العام لوكالة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى وتشغيلهم ، للمدة المتراوحة بين ١/ ٧/ ١٩٦٧ و٣٠/ ٦/ ١٩٦٨ ان « في لبنان استمرت الوكالة في تقديم خدماتها بشكل عادي طوال السنة الماضية وكان عدد اللاجئين المسجلين لدى الوكالة ١٦٦٢٦٤ لاجئاً في آخر حزيران ١٩٦٨ »

الفلسطيني ، وعادت التجاوزات هذه المرة لتأخذ حجماً خطيراً في العام ١٩٧٣ ، أدت الى وقوع اشتباكات بين الجيش والمقاومة ، كادت أن تؤدي الى حرب أهلية ، لاحت بوادرها في الأفق ، فسارعت الأوساط العربية للقيام بالوساطة ، مما أسفر عن عقد اجتماعات بتاريخ ١٥ و١٦ و١٧ أيار ١٩٧٥ بين « اللجنة المشتركة العليا » من الجانبين اللبناني والفلسطيني في فندق ملكارت ببيروت ، تم بخلالها عقد « اتفاقية ملكارت[٣٥] » الملحقة باتفاقية القاهرة . وقد مثل الجانب الفلسطيني المقدم الركن أبو الزعيم ، وأبو عدنان ، وصلاح صلاح . ومثل الجانب اللبناني العقيد الركن أحمد الحاج ، العقيد نزيه راشد ، المقدم سليم مغبغب[٣٦] والمقدم ديب كمال .

اعتبر اتفاق ملكارت ملحقاً لاتفاقية القاهرة . وقد فند طرق تطبيق اتفاقية القاهرة بالتفصيل ، غير أن نصيب اتفاقية ملكارت من التطبيق لم يكن أفضل من نصيب اتفاقية القاهرة . وإذا كان اتفاق العاصمة المصرية قد أجل الانفجار أربع سنوات ، فان الاتفاق الثاني لم يفد في إخماد المقدر أكثر من أشهر قليلة ، عادت بعدها الممارسات الفلسطينية لتهدد بالإنفجار الكبير .

وفي معرض اعترافه بأن الممارسات الفلسطينية قد سببت ، الى حد كبير ، الإنفجار في لبنان ، يقول زعيم اليسار اللبناني :

« كان على هؤلاء (الفلسطينيين) أن يوكلوا الى جيش التحرير الفلسطيني المقيم في لبنان مهمة حفظ الأمن في المخيمات ، وليس الى

---

٣٥ ـ راجع نص الاتفاقية في الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١٩٩

٣٦ ـ حضر الاجتماع الأول . . .

ميليشيات غير متلاحمة ، بل وفي أكثر الأحيان متنافسة فيما بينها . وكان ينبغي لهم كذلك أن يتعاونوا بلا انقطاع مع السلطة اللبنانية بحيث لا يتمكن المذنبون ، الذين يلجأون في بعض الأحيان الى داخل المخيمات ، من الإفلات من القانون .... والمقصود هو أن المجرمين الفلسطينيين العاديين يجب أن يسلموا الى الدولة اللبنانية ليحاكموا وفقاً للقانون اللبناني .... على الفلسطينيين أن يفكروا في ذلك ، فلا بد من وضع حد نهائي للفوضى المستحكمة لدى الفلسطينيين وفي داخل المقاومة ، فلو لم يكن ثمة هذا القدر من المخالفات وخرق القانون ، لما شاهدنا ذلك الهيجان ضد الفلسطينيين في الأوساط الانعزالية .[٣٧] » .

من صور المخالفات الخطيرة التي تجاوز بارتكابها الفلسطينيون تلك الاتفاقات ، انه قد جاء في المادة ١١١ من اتفاقية ملكارت الآنفة الذكر : « في المخيمات الفلسطينية لا وجود للفدائيين ولا وجود للأسلحة المتوسطة والثقيلة ، وعلى سبيل المثال : الهاون الصاروخ المدفع الأسلحة المضادة للدروع .... »

إلا انه عندما تم اقتحام مخيم تل الزعتر من قبل القوات اللبنانية بعد قتال دام أكثر من خمسين يوماً . تبين أنه كان في ذلك المخيم « اثنا عشر ألف مقاتل فلسطين وتقدمي .... وأكثر من ثلاثة آلاف من المنتسبين الى المنظمات العالمية المتطرفة العائدة لجبهة تحرير اريتريا والجيش الأحمر الياباني والتوباماروس ، يزاد اليها بعض الآلاف من المقاتلين من مختلف الميليشيات ... وبين المعدات الحربية التي

٣٧ ـ كمال جنبلاط . هذه وصيتي . ص ٩١ ـ ٩٤

وجدت بحوزة هؤلاء : ٧ مزاحف للصواريخ الموجهة أرض أرض من نوع غراد وكاتيوشا و٢٠ مدفع هاون ، و١٠ مدافع قتالية للرمي المباشر و٦ مدافع ضد المدرعات و٣١ مدفعاً مضاداً للطائرات من أنواع مختلفة ، بالاضافة الى ٢٠ قنطاراً من المواد الشديدة الانفجار والى كميات كبيرة من البنادق الروسية والأميركية والى قاذفات الصواريخ الموجهة ومصنعين للذخيرة ولقذائف الآر . بي . جي . والكميات الكبرى من القنابل المختلفة [٣٨].

الإستيلاء على الجنوب

أما الوجود الفلسطيني المسلح في جنوب لبنان ، فكان بمجمله مخالفاً لبنود تلك الاتفاقات ، مما راح يشكل خطراً كبيراً على الجنوب الذي كانت اسرائيل تتحينّ الفرص لاحتلاله ، وكان يمنعها عن ذلك عامل قانوني دولي ، يتمسك به لبنان كعنصر وقائي ضد ضياع أراضيه ، وهو اتفاقية الهدنة المعقودة بينه وبين الدولة العبرية . إلا أن الفصائل الفلسطينية ، وخاصة اليسارية منها ، بالتعاون مع القوى اليسارية اللبنانية ، أصرت على ممارساتها في جنوب لبنان ، فراحت تقصف القرى والمستعمرات الإسرائيلية الحدودية من هناك ، وتقوم بعمليات عسكرية تخريبية داخل الحدود الإسرائيلية انطلاقاً من الأراضي اللبنانية ، مما أدى في النهاية الى الوضع الخطير الذي وصل اليه جنوب لبنان اليوم .

رغم كل ذلك ، ظل الفلسطينيون مصرين على موقفهم ، معتبرين أن الأرض اللبنانية هي ملك لهم ، يتصرفون عليها ، بقوة

٣٨ ـ راجع الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١٧٨

السلاح ، كيفما يشاؤون ، وليس من حق أي كان أن يردعهم عن ذلك ، ولسان حال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يقول : « إننا ضيوف في عيون الانعزاليين فقط ، أما في مفهومنا نحن ، فنحن وأنتم في بيت واحد[٣٩] » .

وفي وقت من الأوقات . بدا أن هنالك تواطؤاً سافراً بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، إذ كثف الفدائيون عملياتهم ضد اسرائيل انطلاقاً من الأراضي الجنوبية ، وراحوا يعلنون مسؤولياتهم ، من لبنان ، عن تلك العمليات ، مما أعطى إسرائيل الذريعة لاحتلال شمالي الليطاني ، ولم يتخلص لبنان من ذلك الإحتلال إلا بواسطة مجلس الأمن الذي اتخذ قراراً بوضع قوات دولية داخل الأراضي اللبنانية الحدودية مع اسرائيل ، إلا أن القوات الدولية قد عجزت بدورها عن ضبط هذه العمليات ، إذ راح الفلسطينيون وأعوانهم يتسللون من البحر تارة ليقوموا بعملياتهم داخل اسرائيل ، ويقصفون طوراً الأهداف الإسرائيلية من خلف خطوط القوات الدولية . . . وما برحوا يقومون بنشاطاتهم تلك ، حتى تمت الخطوة الأولى من المخطط الرامي الى تغيير خريطة المنطقة مع قيام دولة . . . سعد حداد .

مهما قيل في دولة سعد حداد ، فإن المسؤول المباشر عن قيامها ، هو المقاومة الفلسطينية . وإذا كان لم يعد خافياً على المراقب أن الهدف الإسرائيلي البعيد من خطوة سعد حداد المرحلية ، هو السيطرة الإسرائيلية على كامل جنوبي نهر الليطاني ، فإنه لم يعد خافياً كذلك أن الإنكفاء الفلسطيني بعد تحقيق الهدف الإسرائيلي ، سيكون إلى شمالي النهر ، بحيث تصبح منطقة ما بين النهرين مركز ثقل فلسطيني

---

٣٩ ـ ياسر عرفات في ذكرى وفاة كمال جنبلاط عام ١٩٧٩ . راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٨ الجمعة ٢٣ آذار ١٩٧٩ ص ٤ .

خطير ، بعد أن تكون أكثرية السكان الشيعة قد نزحت بسبب الأحداث المفتعلة من قبل الفلسطينيين والإسرائيليين . وسوف تتوضح هذه الإستراتيجية المشتركة ، والداخلة في صميم المؤامرة ، عبر الفصول الأخيرة من هذه المؤلف .

الفصل الثامن

الشيوعيّة واليسار

تحالف في سبيل الهدم

إذا كان البحث في الحرب اللبنانية يتطلب مقداراً كبيراً من الحذق في معرفة الحلحلة السياسية لكومة من الخيطان المتشابكة ، فإن أكثر هذا التشابك تعقيداً يقع في زاوية اتحاد القوى اليسارية التي عملت في خندق واحد خلال تلك الحرب . كون تلك القوى تتألف من مجموعة أحزاب يدّعي كل منها التقدمية ، ولكن كل من أيديولوجيات تلك التقدميات يتعارض تماماً مع أيديولوجية كل من التقدميات الأخرى . هدف مشترك واحد كان يجمع بين تلك القوى : هدم النظام اللبناني الذي كان قائماً ، أمّا قضية إعادة البناء ، في حال انتصار اليسار في الحرب اللبنانية ، فكانت ستتطلب مرحلة جديدة من الحرب بين اليساريين أنفسهم ، يتقرر بنتيجتها لمن تكون الغلبة ، ومن سيعيد البناء .

أما قضية مفارقة التحالف اليساري - الإسلامي العجيبة ، فلم يعد من الضرورة محاولة الإجتهاد حولها بعد النموذج الحي الذي حصل في ايران .

تألفت القوى اليسارية في الحرب اللبنانية من مجموعة فصائل من المقاومة الفلسطينية (أنظر الفصل السابق) وأحزاب يسارية عدّة ، منها الأممية ومنها القومية ومنها الاقليمية .

فبالإضافة الى الحزب الشيوعي بأجنحته المختلفة ، والتي تتألف منها القوى الأممية ، كان هنالك من الأحزاب القومية : السوريون القوميون الإجتماعيون ، والقوميون العرب بأجنحتهم المختلفة ، والبعثيون بجناحيهما السوري والعراقي ، وكان يتزعم جميع هذه القوى رئيس حزب إقليمي ، هو كمال جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الإشتراكي .

وكان كل من تلك الفصائل والأحزاب يتلقى الدعم من مصدر معين ، وبطبيعة الحال ، كان كل من تلك المصادر يعمل لمصالحه أو لاستراتيجيته ، إذ ما من أحد يقدّم المال والسلاح دونما مقابل .

أحد النواب السنة ، وعنده من بعد النظر ما جعله يرفض التورط في الحرب الدينية ، عبّر عن غرابة ذلك التحالف بقوله : « العجب . . . أن الأحزاب المرتبطة بالأحزاب الأم في الخارج ، العاملة معها على تنفيذ سياستها في لبنان ، قد اجتمعت في تكتل احتكر لنفسه الوطنية ، على ما بينها من صراع ، والجامع بينها انهاك الحكم في لبنان حتى إسقاطه . وأعجب منه أن رؤساء الدول العربية الذين يحاربون هذه الأحزاب على أرض بلادهم ويطاردون المنتسبين اليها والملتزمين بها ، لداعي مبادئها الهدامة ، يستقبلون زعاماتها اللبنانية بالتجلة والإحترام ، ويمحضونهم كل وسائل التأييد والمساعدة ، علماً بأن هذه الأحزاب التي يصفونها بالهدامة في بلادهم ، إنما تتخذ من لبنان قاعدة للقفز الى بلدان هؤلاء الرؤساء ، وتنفيذ خططهم فيها بعد أن يستتب الأمر لهم في لبنان[1] » .

لقد كان ذلك التنوع في الإنتماء وفي مصادر الدعم عامل جعل الولاء عند القوى اليسارية متنوعاً ، غير أن زعيم اليسار في لبنان ، قد تمكن بحذقه ودهائه من أن يوحد تلك القوى جمعاء تحت شعار عريض واحد : الوطنية والتقدمية . وكانت إرادة هدم النظام والصيغة عند هؤلاء قاسماً مشتركاً .

فاليساريون الإقليميون ، وعلى رأسهم كمال جنبلاط ، كانوا يهدفون الى التوصل لحكم البلاد ، ومن مركز السيطرة ، كان بوسع كمال جنبلاط أن يكمل مخططه الطموح ، الذي بُحثت تفاصيله تحت عنوان (الدروز) . كل ذلك كان يتطلب التغلب على القوى المسيحية المحافظة ، المتمسكة بالصيغة والنظام القائمين .

واستراتيجية القوميين ، من سوريين وعرب ، كانت تقضي في الوقت نفسه ، كخطوة مرحلية ، بالتغلب على القوى المسيحية المحافظة ، معارضة الإندماج بالدول العربية ، أو دول الهلال الخصيب ، والمتمسكة بالصيغة والنظام القائمين .

كذلك فان استراتيجية الأمميين ، كانت تقضي أيضاً ، كخطوة مرحلية ، بإزاحة القوى المتمسكة بالنظام والصيغة القائمين . غير أن استراتيجية هؤلاء ، كانت أكثر عمقاً وأشد خطورة .

الأهداف الشيوعية

الشيوعية على عداء عميق ومصيري مع الإسلام ، والتجارب

١ ـ النائب عبده عويدات . ص ٣٤

دلت السوفيات بوضوح على أن « الإسلام والماركسية متناقضان كلياً[2] » وانه لن يمكن للشيوعية أن تنمو في بلد دين الدولة فيه الإسلام . والشيوعية باتت تدرك أن الإبقاء على الصيغة اللبنانية بحالتها الحاضرة ، بحيث يتمتع المسلمون بصفة تقريرية هامة في الحكم ، لا يمكن أن يؤدي الى اشتراكية الدولة . والشيوعية اشتركت بضراوة في الحرب اللبنانية في هدف القضاء على تلك الصيغة ، سواء بالتوصل الى العلمنة ، وهو هدف عرضي ، أو بالتوصل الى التقسيم ، وهو هدف أشمل ، بحيث يصار من خلال تقسيم لبنان الى تقسيم سائر دول المنطقة فيما بعد ، فيزول طابع الإسلام عن دول الأقليات الجديدة التي ستكون موضوعاً قابلاً للإشتراكية المرحلية وللشيوعية الأممية فيما بعد .

في ندوة صحافية عقدها السيد زهير محسن ، قال الزعيم الفلسطيني المتحالف مع الحكم السوري : « هناك من أقنع الاتحاد السوفياتي بأن لبنان . . . لا يمكن أن يصبح دولة تقدمية . . . وأدخل في قناعتهم أن التقسيم في مصلحتهم[3] » .

في الواقع ، لم يكن السوفيات بحاجة لمن يقنعهم بذلك ، بل قد يكونون هم الذين يقنعون الغير بفوائد التقسيم بالنسبة لهم . ومن اطلع على موقف الإتحاد السوفياتي من إنشاء الدولة العبرية على الأرض الفلسطينية ، يكون بوسعه أن يستشف موقف السوفيات الحقيقي من إقامة الكيانات المتفرقة على أنقاض دول شرقي البحر الأبيض المتوسط .

٢ ـ الامام الخميني « النهار » ٢٥ شباط ١٩٧٩ .
٣ ـ النائب عبده عويدات . ص ٦٣ .

فبعد الموقف الصهيوني الذي اتخذه السوفيات ودول أوروبا الشرقية من قضية تقسيم فلسطين ، وفي جلسة مجلس الأمن بتاريخ ١٣ تشرين الأول عام ١٩٤٧ ، تحدث المندوب السوفياتي سيمون تساربكين فقال : « إن الحجج القانونية والتاريخية التي يقدمها العرب ليست الآن بذات شأن ، فأهميتها باطلة جداً بعد أن أقرت الأمم المتحدة قرار التقسيم . وليس للإتحاد السوفياتي رغبة بالدخول في الجدل البيزنطي مع العرب . يكفي أن نعلم بأن اليهود عانوا ويعانون الإضطهاد ، وفي طليعة المسؤوليات علينا في الأمم المتحدة أن نضمن لليهود وطناً خاصاً بهم ، ومن الظلم أن لا نساعدهم على ضمان مثل هذا الوطن . ومن الحق الشرعي الكامل لليهود أن يفرضوا سيادتهم على وطن في فلسطين فلا يكونوا تحت رحمة العرب . إن الإتحاد السوفياتي يدعو ويؤيد ويعمل من أجل إقامة الدولة اليهودية وضمانها[4] » .

وفي جلسة ٢٦ تشرين الثاني ، ١٩٤٧ ، أوضح أندريه غروميكو الأهداف البعيدة التي كانت ترمي اليها الدول الإشتراكية من خلال إنشاء دولة اسرائيل ، إذ قال : « إن الإتحاد السوفياتي قد رفض الرأي القائل باعلان استقلال فلسطين في دولة واحدة ، وأيد خلق دولة لليهود وأخرى للعرب . إن للعرب واليهود جذوراً تاريخية قديمة وراسخة في فلسطين ، فمن حق اليهود أن يبنوا دولة لهم هناك ، دولة ديموقراطية تكون نموذجاً للمؤمنين بالديموقراطية في المنطقة[5] » .

٤ ـ قدري قلعجي . مناقشة آراء العلماء والقادة السوفيات . (دار الكتاب العربي ـ ١٩٧٢) ص ١١٢
٥ ـ قدري قلعجي . ص ١١٤

وفي جلسة أخرى أكمل المندوب السوفياتي جاكوب ماليك ما لم يوضحه غروميكو ، إذ قال في جلسة الأول من تشرين الثاني ١٩٤٨ : « لا تستغربوا أيها السادة إذا وجدنا أنفسنا ذات يوم ، أمام وضع تقوم فيه الأطراف المعنية بالأمر ، العرب واليهود أنفسهم ، مدفوعين بمصالحهم الخاصة ، مصالح الجماهير التقدمية ، للتفاوض السلمي والتعايش السلمي والأخوة التقدمية ، ويفاجئوا العالم بالأمر الواقع .... إن الإتحاد السوفياتي لن يكل عن السعي للمساعدة والتأييد بالترحيب لمثل هذا المسعى العربي اليهودي[٦] » .

ومن أوضح ما تبينه مناقشات السوفيات والكتلة الإشتراكية حول الهدف الأممي من تقسيم المنطقة هو ما ذكره الدكتور سكارلانج ، مندوب بولونية ، أمام اللجنة السياسية المؤقتة في مجلس الأمن في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٧ ، إذ قال : « صدقوني أيها الزملاء ، ان انتصارنا في هذه القضية (قضية إقامة الدولة اليهودية في فلسطين) سيفتح آفاقاً واسعة لنا جميعاً لنتعاون في تحرير دياركم من الإستعمار ... فهنالك مصالح كثيرة مشتركة بين العرب واليهود في النضال ضد الإستعمار على أساس المبادىء الإشتراكية » وبعد أن أشاد « بالحكمة العقائدية التي تتحلى بها القيادات اليهودية » وعدد وجوه الحياة والمعاش التي تجمع الجماهير العربية واليهودية على صعيد واحد ، وأكد أن العمال والفلاحين والمثقفين « في كلا الجماعتين العربية واليهودية » ذوو مصلحة واحدة ، قال : « وإني لشديد الأمل والإيمان بأن التعاون العقائدي سيتم بين الجماهير ونقابات العمال والإتحادات والهيئات الديموقراطية التحررية ، فان الفوارق بين الجانبين ستزول ويعم

٦ - قدري قلعجي . ص ١٢٣

المنطقة الاخاء بين الجماهير[٧] » .

لقد كان الملك فيصل ، رحمه الله ، من حكماء العالم العربي ، وفي وقت طغت خلاله العاهة العربية على الأبعاد الحقيقية للأهداف الدولية في الشرق الأوسط ، بقي ذلك الرجل الحكيم متيقظاً مترفعاً فوق الظرفيات ، متفهماً ، بفضل نظرته الثاقبة وحسه السياسي ، حقيقة ما يجري .

فخلال جولته المكوكية ، زار هنري كيسنجر الملك فيصل الذي كان يصغي اليه شارحاً موقف بلاده ، فكان العاهل السعودي « يطبق شفتيه بشكل ينم عن الإشمئزاز » وفي النهاية ، قال الملك موجهاً كلامه لكيسنجر : « شكراً لك على إيضاحاتك .... أود أن أذكرك بما سبق وقلته للرئيس نيكسون ولوزير خارجيته روجرز ... إن الأمر الأساسي هو إرغام اسرائيل على الجلاء عن الأراضي العربية المحتلة ... إنك لا تجهل أن الشيوعية تريد أن يظل الموقف حرجاً ... إن إسرائيل تدعم الأهداف الشيوعية ... إن ستالين هو الذي طرح في مؤتمر يالطا فكرة الدولة اليهودية ... يجب أن تكون فلسطين دولة مختلطة ، يتعايش فيها المسلمون واليهود .... إن معظم اللاجئين الإسرائيليين يأتي من الاتحاد السوفياتي ، وهؤلاء يريدون قيام قاعدة شيوعية في الشرق الأوسط ... إن الشيوعيين مجردون من الإيمان .... انهم لا يؤمنون بالله[٨] » .

٧ - قدري قلعجي . ص ١١٣
٨ - أسرار مفاوضات كيسنجر في الشرق الأوسط . ص ٢٨ نقلاً عن مجلة (فورين بوليسي) الأميركية ، بقلم ادوارد شيهان . الصحافي الأميركي العضو في مركز الشؤون الدولية في جامعة هارفرد ، وقد رافق كيسنجر في رحلاته المكوكية .

مخطط التقسيم الذي كانت الأممية الشيوعية تعمل له ، ألمح اليه كمال جنبلاط نفسه حين قال : « ... يتعلق الأمر كله في الواقع بالولايات المتحدة ، وبما إذا كانت لا تزال تؤيد بصدق لبنان الواحد الكامل ، فالدويلة المارونية لا يمكن أن تقوم من دون موافقة الدولتين العظميين...[9] »

أو ليس يعني هذا القول ضمناً أن الاتحاد السوفياتي موافق على التقسيم ؟

ثم إن القوى اليسارية ، كانت أول من أسقط القناع .... عندما نشرت جريدة « السفير » مقالاً افتتاحياً بتاريخ ١٩٧٦/٣/٩ بقلم عصام نعمان الذي أصبح فيما بعد ناطقاً باسم المجلس السياسي المركزي لجبهة الأحزاب اليسارية ، اقترح عبره « أن تبادر القوى الوطنية الحية من خلال جبهة سياسية وقيادية عسكرية موحدة ، الى إقامة سلطة وطنية حيثما يمكنها الهيمنة ، تشكل بقيادتها وأجهزتها وسلوكها السياسي والمدني نواة السلطة المركزية العاملة ، مهما طال الزمن » .

لقد كان من البديهي أن يسفر إجراء كهذا عن إعلان دويلات في كل من الأراضي اللبنانية تبعاً للهيمنة ، غير أن الطبخة لم تكن قد استوت بعد .

أسئلة كثيرة طرحت عن أسباب عدم تدخل الإتحاد السوفياتي بصورة فعلية للحد من مآسي الحرب اللبنانية ومن طول استمرارها ،

٩ - كمال جنبلاط. هذه وصيتي. ص ١١٧

وقال كمال جنبلاط في هذا المجال : « إن الاتحاد السوفياتي لا يدرك كفاية ، أهمية نمو الديموقراطية السياسية في لبنان ، ونتائجها المحتملة في العالم العربي ، ولو أن الإتحاد السوفياتي تدخل إيجابياً (...) في النزاع اللبناني ، لأنهض وضعه السياسي في العالم العربي من كبوته الكامل[10] » .

في بداية الحرب اللبنانية ، جاء من ينبه الى خطورة الإستراتيجية السوفياتية ، غير أن الضوضاء كانت أعنف من أن تسمح بسماع صوت العقلاء فالشيخ بيار الجميل لم يكف عن التنبيه الى مؤامرات اليسار الدولي ، والرئيس كميل شمعون فعل الشيء نفسه ، وكذلك العميد ريمون اده ، أمّا نائب الشوف عبده عويدات فقال في ٥ كانون الأول ١٩٧٥ : « ... ضرب المركز العالمي للبنان يفسح المجال للتقسيم وللقاعدة الشيوعية .... وإسقاط الدولة طريق للتقسيم وللقاعدة الشيوعية ...[11] » وعندما طلع الرئيس السابق سليمان فرنجيه على اللبنانيين بشعار : « الصهيونية والشيوعية ... » كان المسلمون اللبنانيون سكارى بحلم تحويل لبنان الى دولة إسلامية ، وكانوا يعقدون الإجتماع تلو الإجتماع في عرمون ، واضعين العصي في دواليب الحكم . وعندما ذهبت سكرة الحلم وجاءت فكرة الواقع ، أصبحت اجتماعات عرمون تشهد نقاشاً من نوع آخر : الخطر الشيوعي ، والتقسيم .

ففي اجتماع الخامس عشر من أيار ١٩٧٥ ، قال الإمام الصدر موجهاً كلامه لياسر عرفات : « ... الملاحظ أن تطور الأحداث يقرب

١٠ - كمال جنبلاط. هذه وصيتي. ص ١١٦
١١ - النائب عبده عويدات. ص ١٣٢

بين المقاومة والأحزاب ، وهذا يدعونا للمرارة والقلق . . . وأنا أعرف أبو عمار المؤمن المجاهد ، وإن قاعدة القدس هي الإيمان ، القدس لا يمكن أن يقبل بالشيوعية ، وأنت ضمان للمؤمنين ، فعندما يقال أن هناك تحالفاً لا يمكن أن يفصل بين المقاومة والأحزاب وبين الشيوعيين ، كل القوى الوطنية في الساحة مرتبطة بالقيادة الوطنية . . . نحن نشعر أن هذه المسؤولية الأساسية لإيماننا ولصيانة عقائد أبنائنا تجعلنا نشعر بقلق ازاء المستقبل[12] » .

أين الامام الصدر ؟ . . .

وفي المجال نفسه ، قال المفتي حسن خالد : « ليس مطروحاً على الساحة غير برنامج الأحزاب وهذا شيء مؤسف» فرد عرفات : « اطرحوا برنامجاً لماذا لا تطرحون ؟ . . . » قال المفتي : « يطرحون العلمانية ، فهل نطرح عكس العلمانية ؟ . . . .[13] » .

وفي اجتماع لاحق حضره رئيس وزراء ليبيا الرائد عبد السلام جلود ، قال المفتي موجهاً كلامه لجلود : « القوى الوطنية انشرخت لأن الأحزاب طرحت أفكاراً تناقض مبادئنا ، وكنا نحذرهم من ذلك . . . » فرد جلود : « القوى اليسارية والشيوعية يستفيد منها المسلمون ، . . . . في العالم الإسلامي الحركة الشيوعية حركة واعية جداً[14] » .

. . . وبعد اختفاء الامام ، دعي المفتي الى ليبيا مرات عدة ، ولكنه لم يذهب . . .

١٢ ـ المفتي حسن خالد . ص ٢٧٤
١٣ ـ المفتي حسن خالد . ص ٢٧٤
١٤ ـ المفتي حسن خالد . ص ٣٨٣

المنظمة الإشتراكية الإسرائيلية (ماتسبن) وهي تمثل الجناح اليساري المتطرف في اسرائيل ، وقد سبق أن أقامت حواراً مع « الرفاق » العرب حول المصير المشترك ، طرحت الرؤية الأممية التي تراها ، وتعمل لها ، من أجل مستقبل اسرائيل والدول المحيطة بها على الشكل التالي :

« . . . الحل الجذري . . . هو الذي يستشف الواقع الجديد للمنطقة بعد هزيمة الرجعية والامبريالية والصهيونية ، وبقيام « جمهورية الشرق الأوسط الاشتراكية » ضمن هذا الواقع الجديد، لن تكون هناك قضية فلسطينية منعزلة ، بل وجود أقليات قومية كثيرة وحسب (اكراد ، يهود ، سودانيون جنوبيون . . .) وهي مسألة تتطلب حلاً ثورياً على أساس مبدأ تقرير المصير للأقليات القومية وضمان حقوقها الوطنية الأساسية ضمن « الجمهورية الإشتراكية[15] » .

ويرد « الرفاق » العرب على هذا الإقتراح الأممي الإسرائيلي الهادف الى تقسيم المنطقة الى أقاليم قومية من أجل اتحادها فيما بعد مع اسرائيل ، يردون بأن « هذا الحل لن يتحقق عبر فرضه بالقوة على الشعب الإسرائيلي ، بل عن طريق دعوته لقبوله طوعياً للمشاركة في بناء الإشتراكية مع الجماهير العربية المتحررة من اغلال الماضي واستلاب أيديولوجيات الطبقات التي قادتها وقمعتها[16] » .

١٥ ـ راجع القضايا المعاصرة. الجزء ٧ ـ ٨ / المجلد الثاني / كانون الثاني ١٩٧٢ ص ١٧٩
١٦ ـ العفيف الأخضر . المرجع السابق . ص ١٨٠

كذلك فان مشروع « الجبهة الديموقراطية الشعبية » الذي طرحه رئيسها . نايف حواتمة ، لا يتناقض في جوهره بشيء مع هذا المشروع الشيوعي التقسيمي - الإتحادي - العربي - الإسرائيلي . (راجع فصل الفلسطينيين من هذا المؤلف) .

أخيراً ، يمكن اختصار الأهداف التي عملت لها القوى اليسارية التي اشتركت في الحرب اللبنانية ، بأنها كانت ، عموماً ، تبتغي هدم الصيغة والنظام ، بينما الإستراتيجية الشيوعية كانت تهدف ، بالإضافة الى الهدم ، لإقامة دويلات الأقليات عن طريق التقسيم . وبهذا توافقت الإستراتيجية الأيديولوجية مع الإستراتيجية القومية بالنسبة للإتحاد السوفياتي ، كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل التالي .

الفصل التاسع

الاستراتيجية الدولية

« ... إن تدخل القوى الكبرى هو شيء طالما يحدث منذ قديم الزمان ، لقد انقضى وقت تدخل فرنسا وبريطانيا في شؤون الدول الصغرى ، والآن أتى دور الإتحاد السوفياتي وأميركا ، ونحن نعلم انهما يتدخلان ويلعبان دوراً مهماً له علاقة بمسألة اسرائيل ، ونظراً لأن مسألة اسرائيل محورها القوة ، فاننا نعرف أن مصير هذا الموضوع متعلق بهاتين الدولتين الكبريين ، وهذا كان ظني عندما تحدثت عن تدخل ممكن للإتحاد السوفياتي ، ولكن ليس لدي شعور بأن أي واحدة من هاتين الدولتين تتدخل حقيقة بالأزمة التي تمزق بلادكم .... هل أنا مخطىء ؟[١] »

هذا الكلام ذو الاتهام الدبلوماسي ، قاله رئيس الوزراء الفرنسي السابق موريس كوف دي مورفيل لمفتي المسلمين في لبنان ، عندما كان الأول موفداً من قبل الرئيس الفرنسي في مبادرة فرنسية للمساهمة في إخماد نار الحرب اللبنانية .

أما التناقض الوارد في كلام الدبلوماسي الفرنسي ، فهو من مستوجبات الدبلوماسية .

١ - راجع الشيخ حسن خالد . ص ١٩٦

فهو يقول : « نحن نعلم انهما (الإتحاد السوفياتي وأميركا) يتدخلان ويلعبان دوراً مهماً . . . » ثم لا يلبث أن يستطرد موجهاً كلامه للمفتي . « ولكن ليس لدي شعور بأن أي واحدة من هاتين الدولتين تتدخل حقيقة بالأزمة التي تمزق بلادكم . . . . فهل أنا مخطىء ؟ »

فهم مفتي الجمهورية مغزى هذا التناقض الذي انتهى بسؤال . . . ، وكأنه يعني : « هل لكم علاقة في مواقفكم مع أي من أميركا أو الإتحاد السوفياتي ؟ » فأجاب : « . . . قد يكون هنالك تدخلات أميركية وسوفياتية ، ولكن نحن لا ندرك عمقها ومقصدها . . . . ولكن المؤسف أن الطرف الآخر يحاول أن يوهم بأن هناك تدخلاً سوفياتياً للإساءة الينا في العالم العربي ، والعالم أجمع . . . »

على أي حال ، تبقى ملاحظة المبعوث الفرنسي حول معرفته عن التدخل الأميركي والسوفياتي، ذلك التدخل الذي هو على علاقة باسرائيل ، ملاحظة ذات اعتبار ، رغم أن تدخل الجبارين لا يتطلب شهادة من أجل إثباته .

في الفصل السابق تعداد للأهداف المبدئية للاتحاد السوفياتي من خلال الحرب اللبنانية . تلك تقع في خانة المصالح السوفياتية الأيديولجية ذات المدى البعيد . غير أن سياسة موسكو لا تقتصر دوماً على هذه الأهداف الرّانية الى بناء المجتمع الإشتراكي ، إنما هي تهتم أيضاً بالمصالح القومية للدولة السوفياتية ، وقد شرح الدكتور شارل مالك هذه المفارقة بقوله : « . . . الإتحاد السوفياتي يخضع في تخطيط سياسته واتخاذ مواقفه لاعتبارين منافسين بعضهما لبعض : أولاً ،

الاعتبار القومي ، أي مصلحة الاتحاد السوفياتي وأمنه وازدهاره . وثانياً ، الاعتبار الأيديولوجي ، أي روسيا الفكرة ، الإشتراكية ، الشيوعية ، المادية ، الماركسية ، الإلحادية ، التي يعتبرها البعض انها الحقيقة المطلقة ، ويريد أن تنشر في العلم كله ، ويرى أن الأفكار الأخرى التي يسمونها بالرجعية أو بالبورجوازية ، أو بأسماء أخرى لا حصر لها ، هي التي لا تهدد أيديولوجيتهم فحسب ، بل تهدد وجودهم هم في سدة الحكم . . . وانطلاقاً من هذا المفهوم ، هنالك دائماً ازدواجية في التخطيط السوفياتي العالمي ، ويحدث دائماً قيام تضارب بين الإعتبارين . أما إذا لم تشكل هذه الأزدواجية أي ضرر ، فتبقى سليمة ، لكن عندما يبلغ الأمر حد الجوهر بالنسبة لمصلحة روسيا كدولة ، فانها تضع العقيدة جانباً وتسعى للحفاظ على مصلحتها وسلامتها ، وإن أهمية العقيدة الشيوعية تخضع لمقتضيات أمن ومصلحة ووجود الدولة ، ولاستمرار الحزب الحاكم في سدة الحكم ، ومن هنا يجب فهم خطوات موسكو وتطورات سياستها.[2] » .

انطلاقاً من هذه « الإزدواجية في التخطيط السوفياتي العالمي » هنالك للإتحاد السوفياتي في الحرب اللبنانية ، الإعتبار القومي السوفياتي ، والاعتبار الأيديولوجي الشيوعي .

الإعتبار الثاني ، تم تناوله في الفصل السابق ، أما الإعتبار الأول ، فقد كان خاضعاً لمضامين صفقات الوفاق المعقودة بين موسكو وواشنطن .

٢ ـ عادل مالك . من رووس الى جنيف . دار النهار للنشر . (بيروت ١٩٧٤) من المقدمة للدكتور شارل مالك . ص ٢٨ ـ ٢٩

قبل تلك « الصفقات » التي وضعت لها تسمية رفيعة المستوى : الوفاق الدولي ، كان اهتمام الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط ، من ناحية المصالح القومية المصلحية ، يقوم على «خوف الروس من أن يكون أو يصبح الشرق الأوسط قاعدة للهجوم العقائدي أو السلاحي عليهم . وحتى إذا عدنا الى القياصرة والى نظرة النفاذ الى المياه الحارة في المتوسط ، وجدنا أن حسابهم كان استراتيجياً في الدرجة الأولى ، أي أنهم كانوا يخشون من أن تصبح هذه المنطقة قاعدة بيد أوروبا الغربية لتطويق بلادهم . وفي الحرب العالمية الثانية ، كان السلاح يدخل الحدود السوفياتية من ايران ، أي أن الشرق الأوسط هو أحد الطرق المؤدية الى موسكو ، إن للغزو أو للعون . لذلك فان استراتيجية هذه المنطقة تهم الإتحاد السوفياتي بشكل حاسم . فاذا نجحت روسيا ، على الأقل ، في تحييد الشرق الأوسط وجعله غير خاضع للنفوذ الغربي ، تشعر بالإرتياح ، حيث لا يعود من مبرر لنفوذها أو نفوذ غيرها في المنطقة .[٣] » .

كان من الطبيعي أن تكرس سياسة الوفاق ، بين الجبارين ، استراتيجية كل من المتوافقين ، ولكن على حساب استراتيجيات الآخرين . وبالنسبة للشرق الأوسط ، كان الوفاق على حساب أوروبا الغربية .

فحتى الأمس القريب ، كانت منطقة الشرق الأوسط منطقة نفوذ لأوروبا الغربية : فرنسا وبريطانيا ، يوم كانت هاتان الدولتان في أوج عزهما . وغداة الحرب العالمية الأولى ، في العام ١٩١٦ ، تمت الصفقة

٣ ـ الدكتور شارل مالك في المرجع السابق . ص ٢٩

على هذه المنطقة بين لندن وباريس تحت عنوان اتفاق سايكس ـ بيكو ، والتي تكرست فيما بعد في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ .[٤]

إلا أن « الوفاق » الأميركي ـ السوفياتي ، جاء لينتزع من الغرب الأوروبي مناطق نفوذه ، بعد أن أصبح كل من فرنسا وبريطانيا دولة من الدرجة الثانية قبالة الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي .

في بداية حلول الدولتين الحديثتي العظمة مكان بريطانيا وفرنسا ، راحتا تعملان على اقتسام العالم عن طريق الحرب الباردة التي بقيت مسيطرة حتى نهاية الستينات ، في تلك الأجواء ، راحت موسكو تتغلغل الى بلدان العالم الثالث عن طريق المبادىء الاشتراكية والشعارات الشعوبية وبواسطة الأحزاب ورجال الفكر والاعلام ، والتسليح ، والدعم الدولي ، بينما كانت الولايات المتحدة الأميركية تعتمد أسلوب الدعم المادي والتقني والمناداة بالحرية ، بالإضافة الى التسليح والدعم الدولي . وقد بلغ هذا التسابق حداً من الخطورة راح يهدد العالم بحرب نووية ، وقد جرت في ظله حروب إقليمية شتى ، منها الحروب الثلاثة بين العرب واسرائيل .

إلا أن الدولتين العظميين وجدتا نفسيهما في غنى عن كل هذا التصارع ، إذ بالإمكان اقتسام العالم عن طريق التفاهم ، وبهذا يكون بوسعهما أن يوفرا على دولتيهما الكثير من الهدر ، ويتقيا شرور ومخاطر ما قد ينشب بينهما من حروب . وبذلك بدأت سياسة الوفاق التي تتوجت بتوقيع اتفاقية « سالت » الأولى في فلاديستوك عام ١٩٧٢ .

٤ ـ راجع : زين نور الدين زين . الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان . دار النهار للنشر (بيروت ١٩٧٧) ص ٦٧ وما بعدها .

هذه الإتفاقية ، أعلن عن أنها تتناول قضايا الحد من الأسلحة الإستراتيجية . إلا أن المضمون الأهم قد بقي سرياً . ومن بين البنود السرية ، يبدو أن هنالك واحداً يقضي بالتعاون « بين الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفياتي من أجل إعاقة تكوين القوة الأوروبية المستقلة ، والحد من السيطرة الأوروبية ، عن طريق مساعدة الدول النامية الخاضعة لأوروبا على التحرر ، وذلك بتسليح تلك الدول ودعمها ، واعتماد حرب اقتصادية سرية ضد أوروبا[5] » . هذا البند ، كان عاملاً هاماً في تسرب الاتفاق السري ، كون أوروبا لم تفقد بعد كل إمكانيات « الاستخبار » . أما وقد تسرب الاتفاق ، فقد أصبح من المواد السرّية المتبادلة دبلوماسيا ، وإذ كان للدبلوماسية الأوروبية مصلحة في فضح تآمر الجبارين ضدها ، فقد أوصلت نسخاً من تلك المواد الى بعض وسائل الإعلام ، وبذلك لم يعد سراً أن الإتفاق الأميركي ـ السوفياتي قضى بـ « إشعال النزاعات الداخلية في البلدان غير المتراصة ، أو النزاعات الإقليمية المحدودة بين تلك الدول ، وذلك في هدف تشغيل معامل الأسلحة في كل من البلدين من جهة ، ومن أجل إضعاف النمو الإقتصادي في الدول الصغرى والدول النامية ، من جهة ثانية ، كي تبقى معتمدة على كل من الدولتين العظميين . »

أما توقيت تلك النزاعات ، وملابساتها ، وما يمكن أن تحققه من أهداف ثانوية ، فكل ذلك يخضع للاعتبارات التي تراها كل من الدولتين مناسبة لها .

٥ ـ راجع التقرير الدبلوماسي المنشور في جريدة (Le Reveil) اللبنانية في عدد ٤/٦/١٩٧٩

وقضى الإتفاق بأن تتنازل الولايات المتحدة الأميركية للإتحاد السوفياتي عن منطقة الهند الصينية ، على أن تحيط موسكو ببكين استراتيجياً وتحتويها .

كذلك تعهدت الولايات المتحدة الأميركية بتزويد الاتحاد السوفياتي بحاجته مع القمح ، الى أن يتمكن السوفيات من حل مشاكلهم الزراعية والإقتصادية ، وبالمساعدة التكنولوجية اللازمة من أجل تنمية الإقتصاد السوفياتي (مثل استخراج نفط سيبيريا وغيرها) .

مقابل هذه التعهدات الأميركية ، يترك السوفيات للأميركيين حرية التحرك في الشرق الأوسط العربي ، وذلك في هدف مراقبة منابع النفط ، واتخاذ الإجراءات العسكرية اللازمة عند الضرورة .

وأخيراً ، وهذا ما يتعلق مباشرة بموضوع البحث الحالي ، موافقة الدولتين العظميين على المشروع الإسرائيلي الهادف الى إعادة رسم خريطة منطقة الشرق الأوسط .

يلاحظ هنا ، أن ما يتعلق بالشرق الأوسط من بنود الإتفاق ، يمكن أن يتفق مع اعتباري موسكو : القومي والأيديولوجي . فمن الناحية القومية ، تؤمن موسكو استراتيجيتها ، إذا تم لها تحييد المنطقة عن طريق انتزاعها من الزعامة الأوروبية الغربية ، ووضعها تحت الزعامة الأميركية ، التي أصبحت تربطها بموسكو اتفاقية رسمية ، تقضي ، من جملة ما تقضي به ، بجعل منطقة الشرق الأوسط والمناطق الآسيوية المحيطة بالإتحاد السوفياتي مناطق منزوعة من السلاح الإستراتيجي . وقد كان إفساح المجال للثائرين الإيرانيين من أجل

الوصول بايران الى حيث وصلت اليه ، تنفيذاً لسياسة الوفاق هذه ، إذ بذلك لم تعد ايران قاعدة عسكرية أميركية من جهة ، ومن جهة ثانية ، فقدت قوتها العسكرية الذاتية التي كانت متعاظمة عهد الشاه الطموح . ومن المتوقع أن تشهد تركيا في القريب أحداثاً شبيهة بالأحداث الايرانية ، تنتهي بما انتهت اليه ايران ، وتفقد كونها قاعدة عسكرية أميركية في الوقت ذاته . كذلك الأمر بالنسبة لمصر ، التي كانت قد أضحت في وقت من الأوقات شبه قاعدة سوفياتية ، فجاء طرد الخبراء السوفيات منها تتويجاً لسياسة الوفاق ، وبعد فترة ، حدث الأمر نفسه في الصومال .

أما من ناحية الإعتبارات الأيديولوجية لموسكو ، فان المخطط الإسرائيلي الذي اتفق على تنفيذه ، يحقق للشيوعية العالمية خطوة الى الامام (راجع في هذا الكتاب : الفلسطينيون ، الشيوعية واليسار) .

بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية ، ليس هنالك من ازدواجية في اعتباراتها لسياستها الخارجية ، كون القضية الأيديولوجية لا تدخل في حسابات واشنطن . وقد دلّت الأحداث بوضوح على أن أميركا لا تمثل دور الداعية للنظام الرأسمالي ، وهي بالتالي لا تكترث للنظام الذي يتبعه بلد ما بقدر ما يهمها التبادل المصلحي بينها وبين ذلك البلد . وأميركا تدرك أن نظام اسرائيل الإشتراكي لم يغن الدولة العبرية عن الدعم الأميركي ، وكذلك الأمر بالنسبة لمصر مثلاً ، فكيف إذا كان الحديث عن الصين الشيوعية ؟

في الشرق الأوسط ، لأميركا ، غرضان : اسرائيل والنفط .

الغرض الأول فرضته السيطرة الصهيونية على مقدرات أعظم

دولة في العالم ، والغرض الثاني فرضته . . . الطبيعة .

أمام هاتين المصلحتين ، وجدت الولايات المتحدة الأميركية نفسها في وضع تجاذب مضاد : النفطيون ، وعلى رأسهم فيصل السعودية ، يجذبون من طرف القضية الفلسطينية ، والقدس ، والإسرائيليون بما لهم من أذرع تمتد الى قلب واشنطن ، يجذبون بالطرف النقيض : اسرائيل الصهيونية . ووجدت أميركا أنه عبثاً التوفيق بين الهدفين في ضربة واحدة . فاعتمدت دبلوماسيتها أسلوب « الخطوة خطوة » الذي يبدأ بأكثر بلدان العالم العربي تهيئة للخروج من دائرة الصراع : مصر . وكان التنفيذ برعاية سياسة الوفاق ، فبدأ بتوقف الإتحاد السوفياتي عن تزويد مصر بقطع الغيار لآلياتها الحربية ، مما دفع بالسادات نحو واشنطن ، وسرعان ما أصبح يعتبر أن ٩٩ بالمئة من أوراق أزمة الشرق الأوسط بيد أميركا ، وراحت التطورات تجري بسرعة مذهلة ، الى أن كان أغرب صلح في تاريخ العداءات الدولية .

من أجل تمرير صفقة القرن العشرين في السياسة الشرق - أوسطية ، كان لا بد من أمرين : التخلص من رائد القدس ، الملك المحاط بأنهار النفط المتدفقة في مصانع العالم ، فيصل . ثم الهاء باقي العالم العربي ببركان ما ، وفي الوقت نفسه ، شراء الرأي العام المسلم بشكل أو بآخر ، فدلت المعادلة على لبنان . ولقد كان تحقيق الهدف الأول (إزاحة فيصل) شرطاً لتحقيق الهدف الثاني (تفجير لبنان) .

حتى الآن ، ليس بوسع المرء أن يدرك الكيفية الجهنمية التي بواسطتها تم القضاء على فيصل بذلك الشكل الدراماتيكي ، إلا أن التاريخ سيجيب يوماً عن هذه المؤامرة .

يجدر هنا معرفة ما تسرب من اللقاء العاصف بين الملك المغدور ، والوزير . . . الأميركي ، هنري كيسنجر خلال جولته الأولى في المنطقة ، حيث قال فيصل : « إني أتهم الرئيس نيكسون بالخداع والكذب وليس من عادتي التعامل مع الكذابين والمخادعين . لقد خدعنا أكثر من مرة . طلب إخراج الخبراء السوفيات من مصر مقابل الضغط على اسرائيل للقبول بالصلح .وأخرج الرئيس السادات الخبراء السوفيات من مصر بقرار دراماتيكي مفاجأ العالم ، ولم يتحرك المستر نيكسون . » ثم طلب الملك فيصل من كيسنجر أن يتطلع من خلف النافذة ، وعندما فعل ، قال له : « أقول لك بصراحة ، إننا على استعداد لأن نقتات من هذا النخيل الذي تراه مئة سنة دون أن نحني رؤوسنا لأحد . فأرجو أن تبلغ نيكسون بمطالبنا التي هي مطالب محقة وعادلة ، أولها القدس وكرامة العرب . . . وكرامة الإسلام[6] » .

عندما وجد العقل الإلكتروني وجوب إزاحة الملك عن درب قطار الإرادة الأميركية ـ السوفياتية ، وجد أيضاً أن قتل فيصل لا يتحقق إلا على يد . . . من فقد عقله ، ومن سخريات القدر ، أن يكون في بلاط الملك الحكيم ، رجل فقد عقله في أميركا .

بذلك ، لما أعطت الولايات المتحدة الأميركية الضوء الأخضر لاسرائيل كي تبدأ بتنفيذ مخططها في لبنان ، كان قد غاب عن المسرح ذلك القادر الذي يعرف كيف يضغط على أميركا ، وعلى سائر أرباب التيارات العربية المشتركة ، بشكل أو بآخر ، في الحرب اللبنانية .

٦ ـ راجع : عادل مالك . ص ٣٠٧

ولم يكن ينقص إسرائيل العملاء والمفتنون لتشعل الحرب اللبنانية ، كما أن الأرض اللبنانية أصبحت مهيأة تماماً للإشتعال ، خاصة بعد حادثة فردان التي أدت الى الإطاحة بالمعادلة اللبنانية المتبعة لاستقرار الوضع الداخلي ، تلك المعادلة التي تقضي بأن يتعاون رئيس جمهورية قوي مسيحياً ، مع رئيس وزراء قوي إسلامياً . وكانت بداية عهد الرئيس سليمان فرنجية قد حققت بعض الإستقرار بسبب تعاون فرنجية الذي كان مدعوماً من أحزاب الكتائب والأحرار والكتلة الوطنية ، مع الزعيم التقليدي السني صائب سلام . إلا أن استقالة سلام لخلافه مع رئيس الجمهورية بسبب إصرار الأول على وجوب تحميل قائد الجيش العماد غانم مسؤولية عملية فردان ، أطاحت بتلك المعادلة ، خاصة وأن رئيس الجمهورية لم يستبدل سلام بشخصية إسلامية قيادية ، بل راح يكلف شخصيات سنية غير قيادية بتشكيل وزارات ضعيفة ، لم تتمكن من مواجهة الظروف الصعبة التي راحت تواجه البلاد . وعندما جاء فرنجية برشيد الصلح الى الرئاسة الثالثة ، حقق لليسار هدفاً هاماً ، إذ جعل له حصاناً طروادياً داخل الحكم . وبذلك وجدت المؤامرة لها مرتعاً خصباً ، وإذ راحت القوى المتناقضة تلعب أدوارها بارتياح ، بينما كل من المراجع الخارجية : أميركا وروسيا واسرائيل والمقاومة الفلسطينية والحكم السوري . . . يهيء جماعاته في الداخل عن طريق التسليح والتمويل والتخطيط ، الى أن كان الإنفجار الكبير اثر سلسلة عمليات مشبوهة ، بالإمكان اتهام اسرائيل بأنها تقف وراء أكثرها إن لم يكن جميعها ، وكان أهم تلك العمليات حادثة الأوتوبيس في عين الرمانة في ١٣ نيسان ١٩٧٥ .

في هذه الأثناء ، كانت مررت اتفاقية سيناء ، وتلتها اتفاقية الجولان ، فتحققت للدبلوماسية الأميركية الخطوة الأولى من رحلة كان

يعتقد انها ستكون رحلة الألف ميل ، إلا أن المسافة الفاصلة بين القاهرة والقدس ، كانت أقصر من ذلك بكثير . . .

وقبل أن يصحو مسلمو لبنان من الكأس المسكرة التي سقتهم إياها الجهات الأميركية الخبيرة في فنون الإغراء ، كانت أمور كثيرة قد حدثت : فجأة وجد المسلمون أن الحرب الفلسطينية ـ المسيحية لم تكن حربهم ، بل كانت حرب اليسار . فراحوا يتبرؤون من اليسار أمام الرأي العام الإسلامي المحافظ في الدول العربية اليمينية ، ممولة مسلمي لبنان وولية أمرهم . وعندما أعطي الضوء الأخضر لبدء التدخل السوري ، ظن المسلمون أن ما أوحت لهم به أميركا من مستقبل السيطرة الإسلامية على لبنان ، إن لم يتحقق عن يد الفلسطينيين الذين اعتبروهم حتى الأمس « جيش المسلمين في لبنان » فهو سيتحقق على يد القوات السورية الداخلة بتفويض أميركي . ولم تكن قد غابت عن ذهن أحد بعد تلك المقابلة العاصفة التي جرت بين المبعوث الأميركي براون وزعماء الجبهة اللبنانية في زوق مكايل ، حيث كان رئيس الجمهورية قد اتخذ من قصر البلدية مقراً مؤقتاً للرئاسة .

وقد روى رئيس الجمهورية السابق سليمان فرنجية أنه خلال الاجتماع الذي ضم قادة الجبهة اللبنانية مع المبعوث الأميركي ، دين براون ، فوجيء الزعماء بالمبعوث الأميركي يطرح عليهم خطة كاملة للنقل البحري بواسطة السفن الأميركية « لكل ماروني يرغب في الهجرة وطلب الحياة السعيدة في العالمين القديم والجديد » ويقول فرنجية أن الأباتي شربل قسيس كاد أن يرفع الكرسي . . . على المبعوث الأميركي استنكاراً للدعوة السافرة للهجرة الجماعية[7] » .

٧ ـ راجع : « الحوادث » العدد ١١٦٦ الجمعة ٩ آذار ١٩٧٩ ص ٢٦

هذه الحادثة ، كانت كافية لإفهام المسلمين بأن أميركا تعمل لتقديم لبنان لهم ، ولم يكتف دين براون بهذه التمثيلية المعروفة النتائج سلفاً . . . إنما خلال إجتماعه بمفتي الجمهورية حسن خالد في ٣ نيسان ١٩٧٦ ، قال : « . . . كل السياسات الإستعمارية ، اتبعت سياسة . . . . إعطاء الإمتيازات للقلة ، وهذا موقف سياسي خاطىء وغير إنساني . . .[8] »

أو ليس في هذا الكلام ما يكفي لطمأنة المسلمين بالنصر العتيد ، وبأن الولايات المتحدة تعمل من أجلهم وتناصرهم ؟؟

ليس هذا وحسب ، بل راح براون يوحي للمفتي بوجوب إقامة دولة على الأرض اللبنانية تضم الفلسطينيين والمسلمين ، إذ عندما أثار المفتي خالد قضية الوجود الفلسطيني في لبنان بسبب اسرائيل ، قال براون : « إنني موافق بتأثير العامل الفلسطيني ، « وجود » دولتين (كذا) يخلق صعوبات كثيرة . . .[9] » .

وراح براون يتباهى بالدور الذي لعبته أميركا من أجل الفلسطينيين ، بشكل غير مباشر ، ويلقي على مسمع المفتي ما من شأنه أن يفيد عن مستقبل بقاء الفلسطينيين الى جانب المسلمين في لبنان ، فقال :

« . . . سنة ٦٧ وصفنا الفلسطينيين بأنهم لاجئون ، ولكن هذه السنة جلسوا في مجلس الأمن على قدم المساواة مع باقي الدول ، وما

٨ ـ راجع : الشيخ حسن خالد . ص ٢٤٥

٩ ـ راجع : الشيخ حسن خالد . ص ٢٤٦

يحدث اليوم في لبنان هو إشارة للعالم كله بوجود شعب فلسطيني وقضية فلسطينية ، ولا أحد ينكر أن للفلسطينيين دورهم في لبنان . . .[10] » .

إلا أن دين براون نفسه ، عندما جاء الى لبنان في رحلته الثانية ، فاجأ المسلمين بتصريحه وهو يغادر إذ قال : « . . . إن جميع الفرقاء أدركوا أنه لن يكون هناك رابحون وخاسرون لأنه يستحيل على أي فريق تأمين انتصار عسكري .[11] »

كثيرون اقتنعوا بأن الولايات المتحدة كانت ، في المرحلة الأولى من الحرب ، تعمل لتحويل لبنان الى دولة إسلامية . من هؤلاء ، الرئيس سليمان فرنجية الذي اعتبر أن « المؤامرة على لبنان ، شهدت ثلاث مراحل ، الأولى تمثلت في رغبة الولايات المتحدة في تهجير المسيحيين من لبنان كما ألمح بذلك المبعوث الأميركي دين براون ، والمرحلة الثانية تمثلت في السعي الى خلق وطن خاص للمسيحيين في لبنان بعدما رفض هؤلاء التوطين ، أما المرحلة الثالثة فهي الأخطر ، وتقضي بأن تحتل اسرائيل جزءاً من الجنوب ، وتهجير اللبنانيين منه تمهيداً لتقديمه للفلسطينيين[12] » .

ولم يستثن هذا التصور أجهزة الاعلام اللبنانية ، إذ خلال زيارة دين براون ، كتبت إحداها تقول :

« عندما وضع الرئيس الراحل كيندي سياسة المناطق بدل

١٠ ـ راجع : الشيخ حسن خالد . ص ٢٤٧

١١ ـ الكتاب الأبيض اللبناني . ص ٤٤ ـ ٤٥

١٢ ـ « النهار » في ٢٢/٢/١٩٧٩

سياسة الشعوب . . . . ظهر لبنان كعلامة فارقة على وجه الشرق الأوسط . ولقد تكشفت للبطريرك المعوشي خلال رحلته الى الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٦٢ هذه السياسة الجديدة . ففي لقائه مع الكاردينال سبيلمان ـ صديق عائلة كيندي ـ لاحظ البطريرك أن كلامه عن دور لبنان المسيحي في صيغة التعايش ، لم يرق كثيراً للكاردينال الأميركي الذي سأله في نهاية الحديث : لماذا لا يتحول مسيحيو لبنان الى مسلمين . . . ويريحونا ؟ ومع أنه وضع السؤال في صيغة غير جدية ، ثم عاد وتراجع عنه ، . . . إلا أن هذا الحل ليس بعيداً عن تفكير كبار المسؤولين في واشنطن ، الذين يتعاملون مع الشعوب من خلال المصلحة فقط ، بغض النظر عن الشعارات الإنسانية والديموقراطية التي لا يؤمنون بها كوسيلة تعامل . وهذا ما يفسر تخليهم عن عائلة « نهو » الكاثوليكية في سايغون مثلا ، واشتراك سفيرهم بذبح الرئيس وعائلته عندما ظهر لهم أن البديل البوذي قد يكون أفضل منه ، بل هذا يفسر اختلاف ديغول مع جميع الرؤساء الأميركيين حول سياستهم نحو لبنان . ولقد برز هذا الإختلاف في وجهتي النظر مؤخراً بين البابا والرئيس الأميركي ، ووصفته الصحافة الإيطالية بأنه (الإختلاف) من النوع الذي أخذ شكل التهديد بتشجيع ٤٠ مليون كاثوليكي لانتخاب فورد إذا ما هو غامر باتخاذ موقف نحو لبنان قد يغضب اسرائيل والناخبين اليهود[13] » .

قد يكون ما جاء في القسم الأخير من هذا التحليل أفضل ما يدل على خطئه ، كون أكثر ما يمكن أن يغضب اسرائيل ، الى حد الإصرار النهائي ، هو إقامة دولة إسلامية ـ فلسطينية على حدودها الشمالية ، في

١٣ ـ « الحوادث » العدد ١٠١٥ الجمعة ١٣/٤/١٩٧٦ ص٦٣

الوقت الذي تسعى خلاله لإبراز كيانات الأقليات المنتشرة بينها وبين الحدود الأوروبية ، بهدف التحالف معها في مجموعة واحدة .

في الواقع ، قد تكون أميركا مستفيدة من تحويل لبنان الى دولة دينها الإسلام ، يتوطن فيها الفلسطينيون ، فتزول بذلك المشكلة الفلسطينية ، ويزول الخطر الشيوعي ، إلا أن هذه العملية ، لا يمكن أن تحصل بوجود اسرائيل ، من هنا قول المحللين الغربيين أنه لولا وجود اسرائيل على حدود لبنان الجنوبية ، لكان مصير مسيحيي لبنان مأساوياً .

ما أن تأكد للمسلمين أن الولايات المتحدة الأميركية لن تسير حتى النهاية في تحقيق حلمهم الرامي الى أسلمة الحكم اللبناني ، حتى طلعت الحكومة الأميركية بشعارها الجديد : لا لتقسيم لبنان . وراحت تبرر أسباب موقفها بقرائن لا تنطلي إلا على السذج من متتبعي الألاعيب السياسية .

من ذلك أن السفير الأميركي غودلي أوضح وجهة نظره لمختلف الزعماء اللبنانيين بأن التقسيم هو عامل مخالف للإستراتيجية الأميركية ، فقيام دولة مسيحية يمينية في جبل لبنان ، سيقابله على الجزء الآخر قيام دولة إسلامية يسارية .... ومثل هذا الجواب أعطاه جوزيف سيسكو للعميد ريمون اده عندما سأل الأخير سيسكو في مكتبه بوزارة الخارجية الأميركية : لماذا تسعون الى تقسيم لبنان ، وخلق دويلات فيه ؟ هل تقبلون بأن يشجع العرب الدعوة الى إقامة دولة مستقلة للزنوج داخل الولايات المتحدة؟[١٤] » .

١٤ - راجع : « الحوادث » العدد ١٠١٥ الجمعة ٢٣/ ٤/ ١٩٧٦ ص ١٣

حتى أن ملك اليسار في لبنان ، كان مقتنعاً ، ولكن بتحفظ ، بأن الأميركيين لا يبغون تقسيم لبنان ، من ذلك قوله : « ... أفنصير ضرباً من بولندة جديدة أو تشيكوسلوفاكيا جديدة ؟ إني لا أعتقد أن السابقة القبرصية يمكن أن تتكرر في لبنان بسهولة ، فالسياق مختلف ، ... ولا يبدو أن الأميركيين ، حتى الساعة ، مؤيدون للتقسيم ...[١٥] » .

من مفارقات القرن العشرين ، وعصر الذرة ، أن تسيطر دولة مثل اسرائيل على دولة مثل أميركا . ومن الطبيعي أن يكون التصور عند الأكثرية هو العكس تماماً . انما لفهم المؤامرة ، لا بد من الإعتبار الصحيح ، وهو أن المسيِّر (بكسر الياء) هي اسرائيل ، والمسيَّر (بفتح الياء) هي أميركا في لعبة الشرق الأوسط . واسرائيل تريد التقسيم .

أوروبا والفاتيكان

هنا ، يتبادر الى الذهن تساؤل : إذا كانت أميركا وروسيا ومن يسير في خطيهما موافقين على التقسيم ، فلماذا لم يحصل التقسيم حتى الآن ؟ .

في الواقع ، هنالك العديد من الأسباب التي أخّرت عملية التقسيم ، ومن جملة تلك الأسباب موقف أوروبا عامة ، وفرنسا والفاتيكان خاصة .

في سياق البحث ، يتبين أن الدولتين العظميين متفقتان على الحد من النفوذ الأوروبي في العالم . ولا شك أن إعادة خلط الدول

١٥ - كمال جنبلاط . هذه وصيتي . - ص ١١٦

التي أنشأها الإستعمار الأوروبي من شأنها أن تؤثر مباشرة على نفوذ أوروبا في مناطق تلك الدول، وبالأخص في لبنان. وكان من الطبيعي أن تكون فرنسا في طليعة محاولي عرقلة مشروع التقسيم، ولكن تبقى محاولاتها ضمن إمكاناتها.

موريس كوف دي مورفيل اعترف خلال مهمته في لبنان بأن التدخل الخارجي في هذا العصر، لم يعد لفرنسا ولبريطانيا، إنما هو أصبح للولايات المتحدة الأميركية وللإتحاد السوفياتي. وقد أفهم الفرنسيون جميع المعنيين في الأزمة اللبنانية أن فرنسا تعارض فكرة التقسيم الداخلي والضم الخارجي، وهي في الأصل مع سيادة لبنان داخل حدوده المعترف بها. وقال الفرنسيون بوجوب تعزيز قوة الشرعية لكي تصبح قادرة على فرض الأمن عن طريق جيش وطني يتم بناؤه على مراحل...[١٦]

ويتضح الموقف الفرنسي النبيل الذي كان يهدف الى الإبقاء على صيغة التعايش في لبنان الذي كان لا يزال على الصورة التعايشية التي ساهمت فرنسا في رسمها خلال الأربعينات، يتضح من خلال المحاولات التوفيقية التي أوفد لها الفرنسيون الرسل والمبعوثين، منها ما جرى خلال مقابلة مفتي الجمهورية حسن خالد للمبعوث الفرنسي موريس كوف دي مورفيل في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ١٩٧٥.

فعندما انتهى المفتي من عرض مطالبه، قال دي مورفيل:
« لقد أدركت مقاصد سماحتكم، على وجه التحديد، انكم تؤكدون

١٦- راجع: « الحوادث » العدد ١١٦٦ الجمعة ٩/ ٣/ ١٩٧٩ ص ١٤

على إلغاء الطائفية السياسية... بمعنى آخر، تطبيق قانون الأغلبية. وإنني أدرك أن كل الشخصيات وهم يمثلون الإتجاهات المختلفة التي لها أهدافها، والى جانب تحديد الأهداف، لا بد من تحديد الوسائل لتحقيق الأهداف، وفي الواقع، فهذا هو جوهر المشكلة اللبنانية، وهذا ينحصر في السؤال: « كيف يمكن التوفيق بين الجهات كلها؟ وإلا فان تقاتلكم سيستمر ».

كان من الطبيعي ألا يروق هذا الكلام لمفتي المسلمين الذي أجاب:

« هل أستطيع أن أفهم من خلال كلامكم بأنه لا يمكن التفاهم إلا إذا تراجعنا عن مطالبنا الوطنية؟ »

وعندما شدد دي مورفيل على أن ما يجب، برأيه، أن يكون هو « حل وسط » رد المفتي مطالباً بـ « الحرية والحق والعدالة والمساواة وباقناع الساسة الموارنة بالتراجع عن الإمتيازات » فكان جواب دي مورفيل قاسياً هذه المرة، إذ قال:

« موافقون على الحق والحرية، ولكن أين يكمن الحق والحرية وهذه المشكلة موجودة في لبنان وغير لبنان.. وطالما كانت مشكلة لبنان هي في معرفة كيفية التوفيق بين المسلمين والمسيحيين، أو بين السنة والموارنة...[١٧] ».

ولم يبق سراً أن القضية اللبنانية أوجدت خلافاً بين الولايات المتحدة الأميركية وبين فرنسا، وقد ألمح المبعوث الفرنسي جورج

١٧- راجع: حسن خالد. ص ١٩٧-١٩٨

غورس الى ذلك الخلاف عندما تحدث عن فروقات في وجهات النظر بينه وبين المبعوث الأميركي براون « حول نوعية الجهود المبذولة في طريق التسوية[18] » .

أما نقطة الخلاف العملية ، فقد برزت أثر محاولة فرنسا في أوائل ١٩٧٦ العمل على إرسال قوة دولية لحفظ الأمن في لبنان ، ومعارضة أميركا لهذه الفكرة ، متذرعة بتخوفها من الفيتو السوفياتي .

ففي الثلاثين من آذار ١٩٧٦ ، استلمت وزارة الخارجية اللبنانية من سفارة لبنان في باريس « كتاباً ينبيء عن اهتمام فرنسا وقلقها لما يجري في لبنان ، ويقول أن فرنسا ترى في عرض القضية على مجلس الأمن من أجل إيفاد قوات دولية ، احتمالاً يصطدم بعقبات كثيرة قانونية وسياسية وعملية ، ذكروا منها : حق الفيتو . . . وان ما يريده بعضهم في مجلس الأمن هو أن تنتصر القوى اليسارية في لبنان لا أن يتوقف القتال . . .[19] » .

وعندما حاول الرسميون في لبنان جس نبض الولايات المتحدة الأميركية حول هذا الموضوع ، جاءهم الجواب واضحاً من دين براون الذي برر معارضة واشنطن لدعوة التدخل التي أعلنها فالدهايم ، بالتخوف من الفيتو « من بعض الدول الأعضاء[20] » .

وكان الفشل الفرنسي بالنسبة لمساعي باريس في أوائل ١٩٧٦ الآيلة الى تدويل الأزمة اللبنانية ، خاتمة لسلسلة مساع قامت بها

١٨ - راجع : « الحوادث » العدد ١٠١٥ الجمعة ٢٣/٤/١٩٧٦ ص ١٤
١٩ - الكتاب الأبيض اللبناني . ص ٤٤
٢٠ - راجع : « الحوادث » العدد ١٠١٥ الجمعة ٢٣/٤/١٩٧٦ ص ١٤

العاصمة الفرنسية في محاولات لتفشيل المخطط الدولي في لبنان . وكان من تلك المساعي صدور بيان عن وزراء خارجية دول السوق الأوروبية المشتركة اثر اجتماعهم في نيويورك بتاريخ ٢٤ أيلول ١٩٧٥ جاء فيه :

« إن الدول التسع قلقة للأحداث التي تجلل لبنان بالحزن ، والتي تجعله يمر في مخاطر كبيرة ، هذا البلد الذي يعتبر استقراره وسيادته واستقلاله أساسياً للتوازن في الشرق الأوسط ، ومن ثم في أي تسوية سلمية للمشاكل المطروحة ، إننا نأمل في أن يعود السلام الى هذا البلد في سرعة[21] » .

وفي ٣٠ تشرين الأول ، أعلن وزراء الدول الأعضاء في السوق « انهم بحثوا خلال اجتماعهم الموقف في لبنان الذي تشكل أزمته عنصراً يبعث على القلق الشديد . إن الأحداث المفجعة الجارية في هذا البلد الذي تربطه بأوروبا روابط تاريخية ومادية كثيرة ، أملت على الوزراء ضرورة إجراء دراسة عميقة لكل الإحتمالات لإقرار السلام في لبنان[22] » .

إلا أن أوروبا ، التي تنبهت الى الإستراتيجية الأميركية الجديدة ، متأخرة ، وجدت نفسها مكبلة اليدين أمام وفاق العملاقين ، وكان أن دفع لبنان قسطاً من هذا الوفاق ، كبيراً جداً بالنسبة لإمكاناته .

وكما فشلت أوروبا ، رغم اهتمام فرنسا الزائد ، ومحاولات

٢١ - الكتاب الأبيض اللبناني . ص ١٦
٢٢ - الكتاب الأبيض اللبناني . ص ٢٠

ألمانيا الغربية الكاثوليكية ، في تخفيف الآلام عن هذا الوطن الصغير ، الذي كان ينزف من جرح وفاق الكبار ، كذلك فشل الفاتيكان ، الذي أصر على وجوب الإبقاء على صيغة التعايش ، وذلك رغم الجهود الحثيثة والخطيرة التي بذلتها تلك الدولة المعنوية . إلا أن المعنويات لم تعد تنفع في هذا العصر الذي تحدد مصير الشعوب فيه ، مصالح . . . الجبارين .

فقد بات من الثابت أن إعلان الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور كورت فالدهايم عن دعوته لتدخل الأمم المتحدة في المشكلة اللبنانية ، الذي نادى به في أوائل ١٩٧٦ ، إنما جاء بطلب من قداسة البابا الراحل بولس السادس . وفي الأول من حزيران ١٩٧٥ ، كان الفاتيكان قد أعلن أن البابا بولس أكد للرئيس الأميركي في محادثة معه ، أن حل أزمة الشرق الأوسط يجب أن يقوم على الإحترام المتبادل لحقوق الجميع ، وقالت صحيفة « أوبسير فاتوري رومانو » الناطقة بلسان الفاتيكان أن البابا أبلغ الرئيس الأميركي فورد أن مصالح جميع الشعوب يجب أن تؤخذ بعين الإعتبار عند العمل في سبيل السلام.[23]

الفاتيكان ، كانت له استراتيجية واضحة : المحافظة على التعايش . وقد برزت هذه الإستراتيجية أكثر ما برزت خلال المهام التي قام بها موفدو الكرسي الرسولي الى لبنان خلال الحرب . ففي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، وبمناسبة عودة الكاردينال برتولي من لبنان حيث كان قد أمضى أسبوعاً قام خلاله ، بتقصي الحقائق عن النزاع ، صدر عن إذاعة الفاتيكان اثر مقابلة برتولي لقداسة البابا ، بيان جاء فيه :

٢٣ ـ راجع : فاضل سعيد عقل وانطوان جرجي الجبيلي . ص ٣١٨

« أكد الكاردينال برتولي عزم الفاتيكان على الإستمرار في مسعاه لخير هذا البلد ، لأن لبنان هو مثل للتعايش الإنساني والروحي . . . إن العالم لا يعرف حق المعرفة أهمية الصيغة اللبنانية الدائمة التعايش السلمي بين مختلف الأديان ، ومن واجب الجميع التفكير في هذا الأمر ، والقيام بمحاولة عملية لإعادة السلام الى لبنان . »

وقال البيان أيضاً :

« يبدو أن الرأي العام في الغالب ، ليس ملماً إلماماً صحيحاً ، أو هو أحياناً غير موضوعي ، فمثل هذا الوضع يسيء الى القضية اللبنانية ويجعل من الصعب التوصل الى حل يستجيب لمصلحة البلاد الحقيقية ولخير الشرق الأوسط[24] » .

إلا أن الرأي العام ، بقي ، وقد يبقى في المستقبل المنظور ، في الغالب ، غير ملم إلماماً صحيحاً بمجريات الأمور التي يتم توجيهها من على منضدة صفقات الجبابرة . وقد يكون أتعس ما تواجهه شعوب الأرض في هذه الحال ، أن تكون دولة قائمة على الإغتصاب ، وعلى اللاشرعية واللاانسانية ، مسيطرة على الجبارين معاً . . . على الواحد بالإبتزاز الصهيوني ، وعلى الثاني بالتبشير الأيديولوجي . ومن مفارقات القدر أن تكون هذه الدولة ، المستغرب عدم لفظها من قبل حضارة القرن العشرين ، قائمة بمحاذاة وطن حضاري أريد له أن يكون نموذجاً للتعايش الإنساني السامي . وليس من غريب المصادفات أن تنتصر إرادة القوة على إرادة السلام في عالم لم يسجل فيه السلام يوماً انتصاراً على القوة . تلك القوة ، التي أصبحت ، على ما هي عليه من رعب وفتك ودمار ، أم السلام وأباه .

٢٤ ـ الكتاب الأبيض اللبناني . ص ٢٤

الفصل العاشر

المؤامرة

بقدر ما تبدو خيوط الحرب اللبنانية متشابكة ومعقدة للناظر اليها من خارج دائرة المؤامرة الحقيقية التي أشعلت نيران تلك الحرب، بقدر ما تبدو، تلك الخيوط، واضحة الألوان المتمايزة ومهندسة التشابك للناظر من داخل. وبغية الدخول الى دائرة حقيقة المؤامرة، كان لا بد من وضع هذه الدراسة التي تطلبت، في بعض الأحيان، الرجوع الى الينابيع البعيدة.

هذه الدراسة، حتى الآن، تشكل الدائرة الخارجية المحيطة بحقل العمليات الذي جرت عليه أحداث لبنان الأخيرة. أما الولوج الى ذلك الحقل، فممكن من مدخل واحد: الإستراتيجية الإسرائيلية. لأن اسرائيل، تشكل في هذه المؤامرة، المفاعل، بينما تشكل العوامل الأخرى، الوقود.

وكون اسرائيل هي صاحبة الإستراتيجية الأولى في المؤامرة، لا يعني أن ليس لسواها من القوى الدولية والقومية والثورية من استراتيجيات، إلاّ أن الوجود الإسرائيلي كان شرطاً حتمياً لإمكان وضع المؤامرة، وتنفيذها، وتحقيق مراميها، بل قد يصح القول،

بأنه لولا الوجود الإسرائيلي ، لما كان من حاجة لمثل تلك المؤامرة التي ، بافتراض عدم وجود اسرائيل ، تنعدم أسبابها الرئيسية .

هذا لا يعني الانتقاص من أهمية التناقضات المبدئية التي تحفل بها تركيبة الوطن اللبناني ، والتي سمحت بحصول الحرب الدينية على أرض لبنان ، تنفيذاً للمؤامرة الكبرى ، إنما تلك التناقضات كانت ممكنة المعالجة بأساليب أقل خطورة بكثير مما حصل في لبنان خلال حرب السبعينات ، ذلك فيما لو لم تكن الغاية من إثارة التناقضات هي أبعد من معالجتها ، بل هي تتعدى هدف التفجير الى إرادة التفكيك الكامل .

إن التناقضات المبدئية في التركيبة اللبنانية تبدو ، على عمقها ، سهلة المعالجة عن طريق إحداث نوع من لا مركزية الحكم ، بحيث يصبح بوسع كل طائفة من طوائف وطن التعايش أن توفق بين مفاهيمها الدينية ونزعتها القومية من جهة ، والمحافظة على تعايش الأديان وعلى بقاء الوطن ونموه وازدهاره من جهة أخرى . إلا أن الإستراتيجية الإسرائيلية ، تتناقض تماماً مع هذا الهدف الإيجابي ، كما تتناقض معه أيضاً استراتيجية قومية - دينية أخرى ، هي الإستراتيجية العلوية التي كان لوجودها في مركز التقرير في الدولة المجاورة فعل شرطي آخر لإمكانية تنفيذ المؤامرة .

كذلك لا بد من الإعتراف بأن الإستراتيجية الإسرائيلية ، وثانيتها العلوية ، ما كانت ليكتب لها أقل قدر من النجاح ، حتى أنها ما كانت لتوضع بهذا الشكل ، فيما لو لم تكن التناقضات المبدئية قائمة في التركيبة اللبنانية .

بل بوسع المتعمق الذهاب الى أبعد من ذلك ، الى حيث يمكنه

القول بأن قيام اسرائيل ، أصلاً ، ما كان ليحدث لولا وجود تلك التعددية الاتنية في المنطقة المحيطة بالوطن العبري . وستوضح بقية هذا البحث ما من شأن النقطة الأخيرة أن تعنيه .

❊ ❊ ❊

في الحقبة التي جرى خلالها التحضير الصهيوني لقيام الدولة العبرية على أرض فلسطين ، والتي تمتد الى تاريخ قيام تلك الدولة ، كانت التركيبة الدولية ، أو الخريطة السياسية ، لمنطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط ، وبالتحديد ، غربي سوريا ، مختلفة تماماً عن تلك التي هي عليها اليوم . وإذ كان لا بد للفكر الصهيوني الذي دبر قيام الدولة العبرية ، من أن يأخذ بواقع المنطقة التي تحيط بالدولة الجديدة من أجل وضع استراتيجية تلك الدولة ومن أجل إمكانية ديمومتها ، فقد اعتمد ، ذلك الفكر ، على الواقع الذي كانت عليه تلك المنطقة في خلال حقبة العمل على إنشاء الدولة الإسرائيلية .

وواقع المنطقة ، في الثلاثينات من هذا القرن ، أي في أوج العمل الصهيوني لإنشاء دولة اسرائيل ، كان على الشكل التالي :

تفصل بين اسرائيل وجارتها الى الجنوب : مصر ، صحراء سيناء وبالتالي قناة السويس ، تلك الحدود تشكل لها فاصلاً طبيعياً يرفع عنها خطر الضربة الخاطفة ، ولا يوجب عليها بالتالي أيّ تفاعل اجتماعي . أما على حدودها الشمالية ، فمنطقة واسعة تتألف مجتمعاتها من قوميات دينية متعددة ، وهي بالتحديد : جبل لبنان المسيحي (الموسع حديثاً في دولة لبنان الكبير ليضم شيعة الحدود المباشرة ودروزها . والمخطط الصهيوني يقضي بأن يصبح نهر الليطاني حدّاً طبيعياً فاصلاً

بين الدولة العبرية والوطن المسيحي) ثم دولة جبل الدروز ، وأكثر بعداً دولة دمشق ، ودولة حلب ، ودولة جبل النصيرية . ويفصل بين الدولة العبرية (العتيدة نسبة للمخطط الصهيوني) وبين البقعة التي تشكل محاذاتها الشرقية ، والتي تقطنها قبائل عربية مختلفة ، نهر الأردن .

انطلاقاً من ذلك الواقع الجغراسي ، اعتبرت الصهيونية المخططة ، كما اعتبرت معها سائر الدول المتعاطفة معها من غربية وشرقية ، انه سيكون بالإمكان إقامة نوع من الإتحاد الفدرالي بين الدولة اليهودية وباقي دول الأقليات التي كانت قائمة آنذاك . فمن شأن ذلك الإتحاد أن يؤمن : لليهود إمكانية استمرار الدولة عن طريق التفاعل الإجتماعي والتكامل الإقتصادي ، وللغرب إمكانية الفصل بواسطة فاصل بشري (دولة القوميات والديانات المتعددة) بينه وبين الشرق العربي المسلم ، ذي وحدة الدين ووحدة الأرض ووحدة اللغة والثروة الطبيعية الهائلة ، والذي لا بد له ، بهذه المعطيات ، من أن يشكل في المستقبل خطراً على الغرب ، في حساب ذلك الزمان ، ومن شأن ذلك الإتحاد أن يحقق للغرب الشرقي ، أرضية صالحة للمجتمع الإشتراكي ، وقد اعتبر السوفيات وسائر دول المجموعة الإشتراكية خلال مناقشات الأمم المتحدة في العام ١٩٤٨ أن اليهود القادمين من الإتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية ، سيكونون رسل الإشتراكية الأممية بين أمم دول ذلك الإتحاد . كما رأينا في الفصول السابقة . (راجع فصلي الشيوعية واليسار ، واسرائيل) .

إلا أن الواقع الجغراسي الذي كان معولاً عليه في مجمل تلك الإعتبارات ، الصهيونية والدولية ، تبدل بشكل مثير ، إذ سرعان ما

ثار تيار المد العربي الإسلامي ، الذي كان الغرب يضرب له حسابات مستقبلية ، وتمكن من قلب المعادلة التي كانت قائمة ، ليسفر عن إقامة الجمهورية السورية الموحّدة .

إلا أن الواقع الجديد الذي أحدثته الثورة العربية لم ييئس اسرائيل ، التي راحت تعمل مسبقة الأهم والأقرب والأكثر إلحاحاً من أجل البقاء ، على الأقل أهمية والأبعد والأقل إلحاحاً من أجل البقاء . وكان التعامل الإسرائيلي بين اسرائيل والغرب الغربي والغرب الشرقي ، قائماً على المعادلة المصلحية نفسها : الفاصل البشري بين الشرق المسلم والغرب المسيحي . فبعد أن تمكنت الدولة العبرية من تحقيق الأهم ، باقامة الدولة واعتراف العالم بها ، والأقرب ، باحتلال الضفة الغربية والقدس والوصول الى الحدود الشرقية المرسومة (نهر الأردن) والأكثر إلحاحاً ، باستقدام المستوطنين اليهود من كافة أقطار العالم وتركيز أسس الدولة وإقامة المستوطنات الجديدة ، بعد تحقيق كل ذلك ، عادت لتكمل المخطط الأساسي ، فراحت تعمل على خطين : خط إنهاء الصراع مع مصر وتثبيت حدودها الجنوبية المقررة ، وخط إعادة خريطة المنطقة الشمالية الجغراسية الى ما كانت عليه أبان دويلات الأقليات ، تمهيداً لتحقيق هدفها النهائي المتمثل باتحادها مع تلك الدويلات في جمهورية شرق أوسطية . وقد تلاقت الإستراتيجية الصهيونية من جديد ، مع مصالح الغرب والشرق على السواء .

فالغرب ، الذي أصبحت قوته الفاعلة والمقررة محصورة بالولايات المتحدة الأميركية ، وجد ، مع بداية السبعينات وظهور خطر عدم السيطرة على منابع النفط ، خاصة اثر استعماله سلاحاً عربياً في حرب ١٩٧٣ ، انه بات من الضروري العودة الى تنفيذ إعادة جغراسية

شرقي البحر الأبيض المتوسط الى ما كانت عليه في نهاية الثلاثينات ، من أجل الهيمنة على منطقة منابع النفط ، وراحت تلك الحاجة الإستراتيجية تزداد إلحاحاً مع التطورات . والغرب الشرقي ، كان قد تأكد أن مصلحته الأيديولوجية تقضي باحياء الخريطة نفسها ، على أن تتأمن مصلحته القومية ، وقد تأمنت بالفعل من خلال سياسة الوفاق التي تعمدت في اتفاق « سالت ١ » عام ١٩٧٢ . (راجع فصل الإستراتيجية الدولية من هذا المؤلف) .

مع إقرار « سالت ١ » توافقت أكثر الإستراتيجيات الفاعلة على المسرح الدولي مع الإستراتيجية الإسرائيلية ، وكان قد سبق ذلك تحضير مبدئي للمؤامرة ، بتمكين إحدى الطوائف الأقلية من الهيمنة شبه التامة على الدولة السورية ، وبضمان تلك الجماعة في السير بالمخطط المرتقب . أما لماذا وقع الإختيار على العلويين بالذات ؟ فلأن تلك الطائفة كانت مهيأة ، تبعاً لحلم قديم ، ولاستراتيجية ذاتية (راجع فصل العلويين من هذا المؤلف) .

ومع بداية العام ١٩٧٣ ، بدا كل شيء جاهزاً للتنفيذ ، فكانت الحرب الصورية تنفيذاً لمتطلبات الخط الإسرائيلي الأول (خط مصر) ولبعض متطلبات الخط الثاني (تثبيت أقدام العلويين في الحكم والسيطرة على الضفة الغربية وتحريك الصراع في لبنان عن طريق ضرب المقاومة بالسلطة) .

نجحت اسرائيل ، وعبرها الغرب والشرق ، في تحقيق معظم الأهداف المرحلية للإستراتيجية المقررة ، عبر حرب ١٩٧٣ ، إلا أنها فشلت في اسعار الحرب في لبنان . فكان لا بد من إعارة الموضوع أهمية أكبر .

لا شك في أنه قد اتضح الآن أن تفكيك لبنان يشكل بحد ذاته وسيلة وغاية ، بالنسبة للأهداف المبنية . وسيلة لتفكيك سوريا فيما بعد ، وغاية بغية العودة الى صيغة جبل لبنان .

في هذا الوقت ، كانت قضية بروز لبنان كصيغة تعايش مناقضة للصيغة الإسرائيلية الدينية ، قد أخذت تقلق الدولة العبرية ، خاصة بعد قيام الرئيس المسيحي للجمهورية اللبنانية ، مكلفاً من الدول العربية الإسلامية ، بالتحدث من على منبر الأمم المتحدة باسم العرب كافة ، مدللاً ، بمجرد قيامه بهذه المهمة ، على عدم صحة ادعاءات اسرائيل القائلة باستحالة التعايش بين الأديان في الشرق المسلم ، وبعد مطالبة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، في المجال نفسه ، بالصيغة اللبنانية حلاً للمشكلة الفلسطينية ـ الإسرائيلية . وزاد في قلق اسرائيل بوادر التقارب المسيحي ـ الإسلامي الذي ظهر في بداية السبعينات وكأنه سائر نحو صيرورته تحالفاً بين الديانتين الكبريين ضد اليهودية . وغني عن القول أن فقدان اليهود للرأي العام المسيحي في العالم يضع دولتهم القومية على شفير هاوية لا عودة منها .

من هنا ، بدأ العمل السريع لدك لبنان ، وقد ساعدت التناقضات المبدئية القائمة في بنية الدولة بسبب التعدد الطائفي على سرعة التفجير ، ذلك بسبب قلة بعيدي النظر ، وعدم تأثير تلك القلة ، في المصير اللبناني .

فالصراع الذي استمر قائماً بين المسلمين والمسيحيين في تاريخ لبنان الحديث ، كان يفيد عن إمكانية تفكيك الدولة عند الطلب . . . وقد أصبحت إمكانية التفجير ، من أجل التفكيك ، أكثر سهولة بوجود المقاومة الفلسطينية ، وباعتبارها من قبل المسلمين ، جيش

المسلمين في لبنان (راجع فصل السنة وفصل المقاومة الفلسطينية من هذا المؤلف) . في الوقت الذي شهد بداية صراع خطير بين الأحزاب والقوى المسيحية من جهة ، والمقاومة الفلسطينية من جهة ثانية ، خاصة بعد ذلك التحالف الإسلامي - الفلسطيني - اليساري الذي أخاف المسيحيين على مصيرهم . وهكذا فقد بدا أن ضرب المقاومة بالأحزاب المسيحية من شأنه أن يطلق الشرارة الصائبة للانفجار . وسوف يستتبع ذلك أو يلازمه وجوب تفكيك الجيش وهدم سائر مؤسسات الدولة المعنوية والمادية .

وسرعان ما تبين أن النظرية كانت صائبة تماماً . فبضرب الجيش بالمقاومة الفلسطينية والقوى الإسلامية واليسارية في صيدا ، وانتصار القوى المسيحية للجيش ، ومن ثم ضرب المقاومة بالمسيحيين في بيروت ، ظهر الإنقسام ، وبدا البنيان بكامله مزعزعاً ، وسرعان ما راحت ركائزه تتهاوى . . . الى أن انفجر البركان . . . وراحت كل جماعة تعمل لمصلحتها ، أو لما صور لها من قبل الخارج ، بأنه مصلحتها ، فزاد بروز حدة التناقضات في عنف الإنفجار العنيد الذي قوض أركان الجمهورية اللبنانية الحديثة .

ليس بوسع من يدرس سير العمليات الحربية في المرحلة اولى من الحرب ، وما رافقها من تصعيد في الصراع السياسي الديني ، أن يبرىء الرؤوس المسيّرة لتلك العمليات من الإطلاع على الأهداف الحقيقية للحرب اللبنانية . فان عمليات الفرز الطائفي والتهجير التي مورست من قبل مختلف القوى وفي كافة المناطق ، لا يمكن أن تخفى أهدافها على أحد . وما كان يحصل سراً قبل البدء بتنفيذ المؤامرة وفي بداية عهد تنفيذها ، راح يبرز الى العلن . ولم يبق سراً اليوم أن جميع

الأطراف المشتركة في الحرب اللبنانية ، هو على اتصال مباشر مع اسرائيل .

من من تلك القوى ليس على اتصال مباشر مع اسرائيل؟!

ومن من تلك القوى يدرك ما يطلب الاسرائيليون من الطرف المعادي له أن يقوم به؟!

فالقوى التي تضاربت على الأرض اللبنانية ، ست هي :
القوى المسيحية المحافظة
القوى الفلسطينية الداعمة للمسلمين
القوى الفلسطينية اليسارية المتعاونة مع الأحزاب اليسارية العاملة في لبنان
القوى الدرزية
القوى الشيعية
وأخيراً ، القوى السورية العاملة تحت سلطة الحكم القائم .

المسيحيون قاتلوا للدفاع عن كيانهم ، واستطراداً في سبيل تحقيق صيغة جديدة تمنع تعرضهم للخطر كل بضع سنوات ، حتى وإن لم يجدوا من صيغة تحقق لهم هدفهم سوى التقسيم ، (راجع فصل المسيحيين) نادوا بـ . . . الفدارلية .

والقوى الفلسطينية الداعمة للمسلمين ، قاتلت ، مع المسلمين ، في سبيل السيطرة التامة على لبنان ، وجعل دين الدولة فيه الإسلام (راجع فصل السنة) .

والقوى الفلسطينية اليسارية المتعاونة مع الأحزاب اليسارية

العاملة في لبنان ، قاتلت لهدم النظام القائم ولجعل لبنان دولة اشتراكية علمانية (راجع فصلي الفلسطينيين والشيوعية) بينما كانت أهداف القوى الشيوعية ترنو الى هدم الكيان في سبيل إنشاء دويلات الأقليات .

والقوى الدرزية قاتلت من أجل استعادة سيطرتها على لبنان ، أو التوصل الى حكمه (كمال جنبلاط) أو إنشاء وطنها القومي على قسم منه في حالة التقسيم (راجع فصل الدروز) .

والقوى الشيعية قاتلت من ضمن الإعتبار الذي قاتل من خلاله الدروز (راجع فصل الشيعة) .

أما القوى السورية العاملة تحت سلطة الحكم القائم في دمشق ، فقد سيرت ونفذت فصولاً كبرى من المؤامرة ، وقاتلت في فصولها الأخرى ، تنفيذاً للمؤامرة الدولية التي تلحظ للعلويين وطناً قومياً (راجع فصل العلويين) .

وأما اسرائيل ، فكانت توحي لكل من تلك القوى على حدة ، بأنها تساعدها على تحقيق أهدافها ، وبذلك تمكنت من تمرير الفصل الأول ، والأهم ، من المؤامرة الرهيبة الهادفة الى تحقيق حلم الصهيونية الطامحة بدولة شرق أوسطية ، يكون فيها لاسرائيل مكان للتفاعل ، والإستيعاب ، والعيش الطبيعي . فأين نحن من المؤامرة اليوم ؟!

مهما بدت الظروف الحالية مطمئنة ، فان لدى الباحث الأمين ما يسمح له بالقول : المؤامرة ما تزال سائرة نحو أهدافها .

فالتعايش الذي كان قائماً في لبنان قد تفكك الى غير رجعة ،

بعد فقدان الثقة بين مختلف الطوائف . واستحالة هذا التعايش لا بد وأن تؤدي في النهاية الى التقسيم المخطط له . خاصة بعد عمليات الفرز عن طريق التهجير ، وليست المحافظة على سخونة خطوط التماس في العاصمة بيروت ، سوى محافظة على مكاسب ملاحم الفرز والتهجير ، وعلى عدم عودة الثقة بين المسلمين والمسيحيين عن طريق عودة الإنفتاح فيما بينهما .

❋ ❋ ❋

لا بد من تساؤل يطرح نفسه هنا ، ماذا ينتظر المخططون لإعلان التقسيم ؟ !

إن ما ينتظرون إتمامه ، قد بدأ تحقيقه مؤخراً ، وهو السيطرة التامة من قبل كل جماعة على كامل المنطقة التي ستتكون منها دولتها ، إذ بغير ذلك ، لا يمكن إعلان التقسيم . وحدهم ، العلويون ، من المعنيين في المؤامرة ، تسيطر فئة متماسكة منهم على منطقة الدولة العلوية العتيدة ، التي أصبحت مجهزة بكافة مقومات الدولة .

أما الطوائف اللبنانية ، فما زالت تحافظ على بعض من التعددية الديموقراطية التي نعمت ، أو ابتلت ، بها الجمهورية اللبنانية الديموقراطية ، بعكس نهج حكم الحزب الواحد في سوريا . وليست العمليات المشبوهة التي خطط لها السوريون في لبنان مؤخراً سوى بعض المظاهر لعملية حروب السيطرة التي لا بد لكل دويلة عتيدة من أن تخضع لها قبل إعلان التقسيم الذي ما زال ، حسب المخطط الموضوع ، يتطلب :

● سيطرة قوة مسيحية منصهرة في وحدة قومية وأيديولوجية على المناطق المسيحية .

● سيطرة قوة درزية منصهرة في وحدة قومية وأيديولوجية على وادي التيم في لبنان ، تقابلها أخرى مثيلة في جبل الدروز (يبدو أنها حاضرة) وأخرى في اسرائيل (حاضرة تماماً) .

● ضرب الشيعة بالسنة بغية سيطرة إحدى الطائفتين على البقاع الشرقي وعكار . ومن المقرر أن تبدأ هذه العملية التي يجري التحضير لها حالياً من ايران ، وتمتد الى العراق فسائر المناطق .

● انحصار سيطرة الفلسطينيين في منطقة ما بين النهرين من جنوب لبنان .

بعد أن تتم تلك الشروط ، أو خلال إتمامها ، تقضي المؤامرة الدولية بأن ينفجر الوضع الأمني في سوريا والعراق ، وبين العراق وايران ، وتحصل في الوقت ذاته بعض القلاقل في تركيا ، مما يجعلها في حالة استنفار .

وسط هذا الجو المضطرب ، تشن اسرائيل حرباً خاطفة على سوريا عبر لبنان ، فيؤدي ذلك الاجتياح الى :

١ ـ انكفاء العلويين نحو جبل النصيرية ، مما يؤمن لهم السيطرة التامة على جبلهم الممتد من حدود لبنان الشمالية الى حدود تركيا الجنوبية .

٢ ـ السيطرة الدرزية الكاملة على جبل الدروز ووادي التيم ، بالإضافة الى المنطقة التي ما زالوا يقيمون فيها من الأراضي

الإسرائيلية الحالية . أمّا القوى التي ستسيطر على تلك المناطق فهي بأكثريتها من دروز جيش الدفاع الإسرائيلي .

٣ ـ السيطرة المسيحية الكاملة على : محافظة بيروت . محافظة جبل لبنان ، محافظة لبنان الشمالي (باستثناء طرابلس وبعض المناطق) قضاء جزين ، وقضاء زحلة .

٤ ـ السيطرة الشيعية أو السنية (بحسب نتيجة النزاع بين الطائفتين) على البقاع الشرقي وبعض مناطق من عكار (تبقى مدينة طرابلس موضوع نزاع بين العلويين والسنة والشيعة حتى يتم لأحدهم السيطرة عليها) .

٥ ـ السيطرة الفلسطينية على منطقة ما بين النهرين .

٦ ـ السيطرة الإسرائيلية على الجنوب اللبناني بكامله ، وعلى قسم من البقاع اتصالاً بسوريا .

في هذه الأثناء ، يترك المجال للأردن ، عملاً باتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا ، ليسيطر ، بالاشتراك مع بعض القوى السورية السنية ، على المناطق السورية الشرقية الجنوبية التي من شأنها أن تؤلف فيما بعد دولة سنية متحدة مع المملكة الهاشمية . وتتدخل القوى النظامية العراقية من منطلق الدفاع المشترك لتسيطر على منطقة شمال شرق الفرات . بينما تتقدم تركيا نحو حلب ودير الزور لتستعيد تلك المناطق التي لا تزال تدعي ملكيتها .

وسط هذا الأتون الهائج في منطقة الشرق الأوسط ، تكون الحملة الإعلامية والنفسية التي تقوم بها أميركا لإظهار خطورة الحاجة

الى النفط ، قد فعلت فعلها في الرأي العام الأميركي والغربي ، فتجري في الوقت نفسه عملية إنزال أميركي في الخليج النفطي الذي ستجد حكوماته نفسها في وضع يضطرها القبول بمثل هذا الإجراء .

يلحظ المخطط الإسرائيلي مهلة عشرة أيام ، بدءاً من أول يوم لعملية الإجتياح ، من أجل تحقيق هذا الوضع العسكري ، يصدر بنهايتها قرار عن مجلس الأمن يدعو لوقف إطلاق النار .

بعد وقف إطلاق النار ، تبدأ على الأثر مفاوضات يشترك فيها كل من : إسرائيل ، العراق ، لبنان ، تركيا ، الأردن ، وسوريا . يتقرر بنتيجتها :

- موافقة اسرائيل على الإنسحاب من كافة الأراضي التي احتلتها خلال تلك العملية ، باستثناء منطقة جنوبي نهر الليطاني التي يقام فيها حكم ذاتي شبيه بذلك الذي سيعطى للضفة الغربية ولقطاع غزة . وسيكون سعد حداد ، أو من يرثه . . . حاكم تلك المنطقة . وبذلك تثبت اسرائيل نهائياً أ حدودها الشرقية (نهر الأردن) والشمالية (نهر الليطاني) كما هو مرسوم ، بعدما ثبتت حدودها الجنوبية مع مصر .
- موافقة الحكم السوري العلوي على الإكتفاء بجبل النصيرية ، وطناً علوياً عربياً . . . وقد تسبق ذلك محاولة علوية للسيطرة على طرابلس في سبيل ضمها الى الدولة العلوية العتيدة .
- إرغام لبنان على القبول بالدولة المسيحية الممتدة من جزين جنوباً ، إلى القبيات شمالاً ، وزحلة شرقاً ، والبحر غرباً .

- تمسك الأردن بالمناطق « السنّية » التي يكون قد سيطر عليها ، ومن ثم ضم تلك المناطق الى الضفة الشرقية من المملكة الأردنية الهاشمية التي ستصبح دولة سنّية شرق أوسطية .
- تمسك العراق بالأراضي الواقعة شرقي الفرات ، والتي يكون قد سيطر عليها ، مقابل إعطائه الحكم الذاتي للأكراد ، وللشيعة في منطقة كربلاء والنجف .
- تمسك تركيا بالمنطقة التي تكون قد سيطرت عليها . وهي تضم حلب ودير الزور مقابل إنشاء وطن أرمني قومي .
- تمسك الدروز - بواسطة اسرائيل - بمناطق : وادي التيم ، جبل الشيخ ، الجولان ، جبل الدروز ، ليصار الى إعلان تلك المناطق جمهورية درزية . وتكون تلك المناطق إذ ذاك تحت سيطرة دروز جيش الإحتلال الإسرائيلي .
- حصر الفلسطينيين ، بشكل مؤقت ، في منطقة ما بين النهرين من جنوب لبنان . ويكون قد تم نزع سلاح هؤلاء على يد جيش الإحتلال الإسرائيلي .
- يبقى مصير منطقة البقاع الشرقي ، ومنطقة عكار المسلم رهناً بالتطورات ، ولا تزال علامة استفهام مرسومة فوق تلك المناطق وفوق مدينة طرابلس المرشحة لأن تشهد صراعات خطيرة في غمرة نزاع علوي - سني - شيعي للسيطرة عليها .

ومن ثم يصار الى بدء مفاوضات في سبيل إنشاء وحدة جمهوريات فدرالية بين الدويلات الجديدة تضمها مع اسرائيل .

وبذلك ، تكون الولايات المتحدة الأميركية قد حققت استراتيجيتها المتناسقة مع اسرائيل ، والهادفة الى التمركز بقرب منابع النفط ، بينما تكون القوى الشيوعية قد حققت حظوة متقدمة نحو الأممية الدولية ، وقد نزعت السيطرة الإسلامية السنية ، العدو الأيديولوجي التقليدي ، عن أكثرية المنطقة . ويكون كل من المسيحيين والشيعة والدروز والعلويين والأرمن والأكراد قد أنشأ وطنه القومي ، وبذلك تتحقق أحلام الأقليات الهادفة الى الحكم الذاتي ، وتنتهي مشكلة الأمم المتحدة مع الشرق الأوسط الذي طالما كلفها مليارات الدولارات وشتى المتاعب ، ولا تكون هنالك حاجة الى قوات دولية وميزانيات وأعباء ضخمة .

* * *

يقول الرئيس شارل حلو : « إن دولة مثل أميركا ، لا يمكن أن يكون عندها مخطط واحد ، عندها مخطط رقم ٢ ومخطط رقم ٣ ومخطط رقم ٤ . . . وتختار المخطط على ضوء تطورات الظروف ، وهذا ينطبق على الإتحاد السوفياتي كما ينطبق على اسرائيل . . . إن الدول عادة يكون عندها خمسون حساباً لا حساباً واحداً . . . »

في الواقع ، ليس هدف هذا البحث إبراز المخطط ، إنما هو إبراز الهدف . وسواء كان المخطط واحداً أو كان هناك مخططات عدة ، فإن الهدف من حرب لبنان وما سيتبعها من حروب أهلية وغير أهلية في المنطقة المجاورة ، هو إعادة خريطة الشرق الأوسط الجغراسية الى ما كانت عليه عشية نشوء الدولة العبرية ، كما تتمكن اسرائيل من إكمال برنامج نشوئها كما وضعته الصهيونية العالمية بالإتفاق مع القوى الكبرى منذ ما قبل بداية هذا القرن . وبكل ألم ، لا بد من

الإعتراف ، في هذه النهاية ، بأن اليهود قد استحقوا أن ينسبوا ، عصر منطقتنا على الأقل ، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، إلى ما لم تتحدد نهايته بعد ، إليهم ، فصار يتوجب تعريف هذه الحقبة من التاريخ ، بـ « العصر الصهيوني » .

في غضون الإشراف على نهاية هذه الدراسة ، تعرض أحد الزعماء اللبنانيين لمحاولة اغتيال ، وقد يكون في تلك المحاولة عبرة هامة من شأنها أن تدل على تصميم وعناد العاملين على تنفيذ هدف إعادة رسم خريطة شرقي البحر الأبيض المتوسط .

فالذي تعرض لمحاولة الإغتيال كان الشيخ أمين الجميل ، والشيخ أمين ، استناداً الى الوقائع ، والحقائق العملية ، هو واحد من القلّة العاملة على إعادة توحيد لبنان ، وعلى فضح المؤامرات الجارية بجرأة قلّ مثيلها . فإضافة الى ما نشرته صحيفة « الريفاي » من فضح سافر للمخططات المشبوهة ، ذهب نائب المتن الى باريس ليحاضر في الطلبة اللبنانيين في الخامس عشر من حزيران ١٩٧٩ معلناً أنه « كان من السهل علينا أن نقبل بمشاريع التقسيم والتجزئة والإنفصال ، ولكننا ، في الواقع ، نناضل من أجل لبنان موحد ، حر ، سيد » .

فهل سيكون ، في محيط التآمر الهائج ، للسفينة من حظ بالوصول الى شاطىء الأمان دون أن تتفكك ؟!

وهل سيكون بوسع الإرادات الطيبة ، على قلتها ، أن تقهر الإرادات العاتية ؟! .

يا ليت !

كلمة أخيرة ، تفرض الأمانة قولها ، وهي أن ليس كل ما يعرف يمكن أن يقال في أي وقت ، وقد يكون فيما قيل ، عبر هذا البحث ، كفاية في الوقت الحاضر ، لإماطة اللثام عن الوجه الطبيعي للمؤامرة . ولا بد أنه سيأتي يوم يصبح بالإمكان معه قول ما لا يصح ذكره الآن . إلاّ أن ذلك لا يمنع من تسجيل كلمة حق :

مرّة أخرى ، تمكن جبابرة لبنان من الصمود بوجه الطوفان ، ولا تزال على ضفة مصب نهر الكلب صخور كثيرة تعد بالآلاف ، قادرة لأن تستوعب ما شاء الله من لوحات تذكارية .

قدرنا ، أننا عصب في مكان ، لا يتوقّف الزمان عن إغنائه بالأحداث ، . . ولن يتوقف ، طالما في الكون كون ، وزمان ، ومكان ، وإنسان . .